تقديم

بقلم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

هذه مقدمة الصحاح للجوهري ، أول مقدمة من نوعها فى تاريخ معجماتنا العربية ، إذ لم يسبق تقديم معجم عربي بمقدمة مثلها فى استقصائها لتاريخ المعجمات فى لغتنا ، وإلمامها بتاريخ المعجمات فى اللغات الأخرى ، وقد أفرد فيها الكاتب الباحث نبذة حسنة لترجمة الجوهري صاحب الصحاح ، ولكنها — فيما عدا هذه النبذة — تصلح أن تكون مقدمة تامة للصحاح ولسائر المعجمات العربية فى جملتها ، لأنها تغني القارئ بما اشتملت عليه من المعلومات والآراء فيما يتحراه من التوسع والإفاضة إذا شاء .

وقيمة المقدمة بالآراء التى اشتملت عليها لا تقل عن قيمتها بالمعلومات الوافية عن الصحاح وما عداه من الموسوعات المعجمية .

ومن الآراء الصائبة فى المقدمة أن الاحتجاج بالموروث من لغة الجاهلية لا يعنى أن هذا الموروث صحيح كله أيًّا كان مرجعه إلى الآحاد أو القبائل ، فإن العربي قد يحتج بكلامه فيما سمعه ووعاه من مفردات لسانه ، ولا يصح أن يحتج بكلامه ولا بحكمه فى جميع المفردات ، وقد روي عن علي رضى الله عنه أنه سمع النبي صلوات الله عليه يخاطب وفد بني نَهْد بكلام لا يفهمه فسأله فى ذلك فأوضحه له عليه السلام .

وإذا روي هذا عن الإمام فى سعة علمه وصحة حكمه وجودة فهمه فأحرى أن يكون غيره دون ذلك فى درجات الفهم والإحاطة والاجتهاد .

على أن العامة من عرب الجاهلية وما بعدها كانوا ربما عرفوا الكلام بمفرداته ولم يعرفوه بمعانيه ، ومن طريف ما ورد من الشواهد على ذلك قصة الشاعر الأعرابي مع امرأته التي لامته لأنه لا يتغزل بها ولا يطري محاسنها فقال يسترضيها :

تمت عبيدة إلا من محاسنها   فالحسن منها بحيث الشمس والقمر
قل للذي عابها من عائب حنق   أقصر فرأس الذي قد عبت والحجر

فهذا وصف على غاية الذم قد فهمته المرأة الأعرابية على أنه غاية الإطراء ، وليس كل الأعراب بهذا الجهل لمعنى الكلام المركب مع فهم مفرداته ، ولكنهم ليسوا جميعاً بمنزلة امرئ القيس وطرفة وزهير فى القدرة على تركيب الكلم وفهمه وتوجيهه إلى معناه .

وهذه الملاحظة عن فهم الكلام المركب أجدر ملاحظة أن نلتفت إليها بصدد الحكم على الصحيح وغير الصحيح من القواعد العربية ، لأن الصحة هنا مرتبطة بالكلمة فى عبارتها المركبة أو بموقعها من الإعراب — كما يقال فى اصطلاح النحاة — فإذا جاز أن يكون اللفظ المفرد المسموع من العرب صحيحاً متواتراً فلا يلزم أن يفهمه جميع الرواة على صحته مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً على حسب موقعه من التركيب .

يقول الأستاذ عطار وقد أصاب : « من الخطأ أن يفهم أحدنا أن الجاهليين كانوا فى نجوة من الخطأ، وفى عصمة من اللحن ، بل كان فيهم من يلحن ويخطىء ، وقد جاء فى الشعر الجاهلى أبيات لا تجيزها قواعد النحو والصرف ، وبعضها لا تجيزه القواعد إلا بعد تأويل مسفّ وعلل مصطنعة واعتذار مفتعل[١] » .

نقول : إن الباحث الفاضل قد أصاب فى هذه الملاحظة ، وإنما الخطأ أن نظن القاعدة سابقة لصواب المصيبين وخطأ المخطئين من أصحاب الشواهد التي يسوقها النحاة ، فإنما عُرفت القاعدة بعد حصر الشواهد وتغليب الكثرة منها على القلة ، والراجح منها على المرجوح ، ويدخل فى ذلك تقدير مكان القبيلة من أصالة اللغة والبعد عن منافذ الدخيل ، ويدخل فيه ثبوت الشواهد من كلام محفوظ كالشعر المنظوم والمثل السائر ، ويدخل فيه النظر فى المتشابه من لهجات القبائل بين الحاضرة والبادية ، ثم يأتي المرجع الأكبر من القرآن الكريم فيصلا نافذ الحكم بين مختلف الآراء والروايات ، فما ورد فيه أغنانا عن البحث فيما عداه ، وما لم يرد فيه كان مرجع الحكم عليه إلى الترجيح والتغليب

ففى اللغة العربية كلمات لا شك فى أصالتها لم ترد فى القرآن الكريم ، ومنها ما هو كثير التداول على ألسنة الخاصة والعامة ككلمة السخاء ، وهي أصيلة فى لفظها ومعناها من العربية الفصحى ، وهي وغيرها مما لم يرد فى القرآن الكريم خليقة أن تهدينا إلى وجوه الاستدلال بالكلام المحفوظ

---

(١) صفحة ٢٧ من هذه المقدمة .

أو الـكلام المأثور كائناً ما كان ، فما ورد فيه فهو حجة يؤخذ بها ، وما لم يرد فيه فلا يجوز رفضه إلا إذا خالف الصحيح المتفق عليه .

والأستاذ العطـار يشتد فى التحرج فيقول عما جاء من العرب مخالفاً للصحيح : « وأنا لا أجيزه لأنني لا أريد القاعدة الصحيحة أن تعتـل أو تتهدم ،أو يعتورها بعض الخلل ، بل لا أسيغ الشاذ أن يجد طريقاً ليضعف من القاعدة ، كما لا أحب العـلة أو التقدير الذى يراد منه تسويغ الخطأ أو الشاذ »[1].

ثم يضرب المثل بما روى عن أبى النجم العجلي حيث يقول :

إن أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها

وبما ورد لغيره حيث يقول :

تزوّد منا بين أذناه ضربة دعته إلى هابي التراب عقيم

إلى سائر الشواهد التي أنكرها الأستاذ ، وهو على حق فى إنكار الاقتداء بها إذا خطر لبعض المتأخرين أن يقتدي بها ، لأنها سمعت من العرب الأقدمين ، ولـكنها لا تسقط من عداد الشواهد التي نسجلها للعلم بتاريخ القاعدة والحـكم لها بالتغليب على الشذوذ المرفوض .

ويبدو لنا أن ثروة العربيـة تقاس بوفرة الشواهد فيها على المقبول من قواعدها والمرفوض من شواذها ، وبخاصة ما جاء منه لغير ضرورة شعرية كقول القائل :

تزوّد منا بين أذناه ضربة دعته إلى هابي التراب عقيم

---

(١) ص ٢٩ — ٣٠ من هذه المقدمة .

فإن الوزن يستقيم بالباء في أذنيه كما يستقيم بالألف ، ويلوح البيت مع هذا عربياً فى أصالة معاني الكلمات فإن « دعته » في البيت أصيلة المعنى لم يتطرق إليها التعبير المجازي الذى شاعت به في لهجاتنا الحديثة ، ولا يمنع هذا أن يكون القياس عليه باطلا لإلزام المثنى الألف فى جميع مواقع الإعراب ، فإنما توضع القاعدة لتغليب المطرد ونفي الشذوذ ، ولا محل لوضع القاعدة إذا تساوى المقبول والمرفوض .

عندنا — وعند أنصار الفصحى أجمعين — أن مسألة القواعد قد فُرِغَ منها في عصرنا ، فلا يجوز لنا أن نلغيها ولا أن نستحدث بديلا يناقضها ، وكل ما يجوز لنا أن نتوسع فى تطبيقها وأن نقيس عليها ما يماثلها ، وأن نحرص على بقاء نحوها وصرفها ، لأن لغتنا — خاصة — لا تبقى بغير الإعراب ، ولا تصح المشابهة بينها وبين اللغات التي لا إعراب فيها ولا اشتقاق ، لأن قوام اللغات القائمة على النحت ولصق المفردات غير قوام اللغة التى تختلف بالحركة فى كل موقع من مواقع الحروف ، ولا سيما الحروف التى يقع عليها الإعراب .

فليست أواخر الكلمات وحدها هي التي تتغير معانيها بالحركة ، بل يتغير معنى الكلمة بالحركة في أول الكلمة ووسطها حتى تتبدل من المعلوم إلى المجهول ، ومن الفاعلية إلى المفعولية ، ومن التكلم إلى الخطاب ، ومن التخفيف إلى التشديد بلفظه ومعناه ، ونحسب أننا لم نستخف بالحركة ودلالتها القوية في اللغة العربية إلا بعد شيوع الكتابة وشيوع الظن بأن الحركة نافلة لأنها لاتثبت مع الحروف ، ولكن حروف العلة كانت كذلك لاتثبت في أول العهد بالكتابة ، وهي ما هي من القيمة الجوهرية في معاني الأصول والمشتقات .

فمسألة القواعد في عصرنا هذا مفروغ منها لا تحتمل التغيير إلا على نية واحدة ؛ وهي نية القضاء على الفصحى والاستغناء عنها باللهجات العامية ، ولا يقول بذلك أحد يفقه ما يقول ولو كان من دعاة التسهيل بغير مبالاة منه بالعاقبة ، فإن كتابة العلوم والمعارف باللهجة العامية أصعب جدا من كتابتها بلغة القواعد والإعراب .

إنما نحن في عصر المعجمات على اختلافها لا في عصر القواعد واستحداثها .

وإنما نحن في عصر المعجمات اليوم ، لأن المعجمات الأولى — ومنها هذا الصحاح — قد وضعت في حينها لأسباب كالأسباب التي نواجهها بجميع تفصيلاتها ، ومنها انتشار الدخيل والمولد والمعرّب والمترجم ، واختلاط الناطقين بالضاد ومن يعاملونه أو يعاملهم من الأعاجم وأدعياء العربية ، وإن المعجمات السلفية لتنفعنا اليوم كما تنفعنا المعجمات التي نجمعها ونتوخى فيها أساليبها أو نبتدع لها ما يوافقنا من شتى الأساليب .

وفي وسعنا أن نضيف المفردات إلى معجماتنا كما أضافها اللغويون من أمثال الجوهري وتلاميذه الثقاة ، فلا حرج على اللغة من إثبات المولد والدخيل والمعرب في مواضعها من المعجمات الحديثة ، لأنها إذا جرت في اشتقاقها أو النطق بها مجرى الفصيح زادت ثروة اللغة ولم تنتقص منها ، ودلت على مرونة في العربية تجاري بها الزمن ، وتلبي بها مطالب الحضارة ومطالب العلوم المتجددة على الزمن ، وربما كان مصاب اللغة بالتحجر وفقدان المرونة أشدّ عليها من فقدان القواعد النحوية والصرفية ، لأن كثيراً من اللغات ماتت ومعها قواعد صرفها ونحوها ، ولم تمت لغة كان لها من المرونة ما يلبي مطالب الجماعات الإنسانية في كل بيئة وكل مقام .

ولقد قيل كثيراً : إن اللغة العربيـة بقيت لأنها لغة القرآن الـكريم ، وهو قول صحيح لا ريب فيه ، ولـكن القرآن الـكريم إنما أبقى اللغة لأن الإسلام دين الإنسانية قاطبة وليس بالدين المقصور على شعب أو قبيل ، وقد ماتت العبرية وهي لغة دينيـة أو لغة كتاب يدين به قومه ويحسبون أنهم وحدهم المخصوصون بالخطاب من عند الله ، ولم تمت العبرية إلا لأنها فقدت المرونة التي تجعلها لغة إنسانية ، وتخرجها من حظيرة العصبية الضيقة بحيث وضعها أبناؤها منذ قرون .

إن هذه الفضيلة الإنسانية التي لا تفرق بين العربي والأعجمي ؛ ولا بين القرشي والحبشي لهي التي أنهضت لخدمة اللغة أناسا من الأعاجم غاروا عليها من حيف الأعجمية ، أي أنهم غاروا عليها من لغة أمهاتهم وآبائهم ، لأنها لغتهم على المساواة بينهم وبين جميع المؤمنين بالقرآن الـكريم كتاب الإسلام ، ولو كان هذا الـكتاب « عصبيا » لا يشرك في تراث الدين أحدا غير أبناء لغة من اللغات لما جاءت الغيرة عليه من الأعاجم كما جاءت من أبناء قحطان وعدنان .

ونحن معاشر المتـكلمين بالعربيـة في عصرنا نسير على نهج الأقدمين في خدمتها كلما حرصنا على قواعدها وحرصنا إلى جانب القواعد على مرونتها وعلى مزيتها الـكبرى من قبول التجديد والموافقة لمطالب بني الإنسان في جميع العهود ، وستبقى اللغة ما دام لها أنصار يريدون لها البقاء ، ولم ينقطع أنصارها في عصرنا الحاضر ، بل نراهم بحمد الله يزدادون ويتعاونون ، ويتلاقى أبناء البلاد المختلفة على خدمتها ودعمها ، لأنهم مختلفون بمواقع البلاد متفقون بمقاصد الضمائر والألسنة والأفـكار .

وإن ابتعاث صحاح الجوهري الذي بين أيدينا من زوايا الترك والإهمال لهو آية من آيات هذه القوة الحيوية التي تمتاز بها اللغة العربية ، وتدعونا إلى الطمأنينة على حاضرها ومستقبلها ، وإلى الثقة بأننا مسلموها بعدنا إلى المتممين المجددين ، ولسنا مسلميها يوماً إلى المفرطين المضيعين .

ولا حاجة بالمرء إلى بصر كبير بوسائل الإحياء والنشر في أمثال هذا المعجم ليعلم الجهد الجهيد الذي اضطلع به من أشرف على تحقيقه أو قام بالإنفاق على نقله وطبعه ونشره وإعداده للتداول بين أيدي قراء العربية في جميع الأقطار .

ذلك جهد مشكور مأثور للأستاذ الباحث « أحمد عبد الغفور عطار » يجزيه عليه بالثناء الجميل كل مستفيد بالصحاح فى هذه الطبعة المهذبة الميسرة للمراجعة والاطلاع .

القاهرة { ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٧٥ هـ
٦ فبراير ١٩٥٦ م }

عباس محمود العقاد

اللّغـة العـَربيّة

اللغة العربية إحدى اللغات الحية التى قامت على وجه الأرض ، وأدت رسالتها فى الحياة كخير ما تؤدّى الرسالات ، وعبّرت فى عصورها الأولى عن حاجات المجتمعات التى كانت تتخذها لغـة يعبر بها عن مطالبها وحاجاتها وآلامها وآمالها وآدابها وعلومها وفنونها ؛ ولم تجمد فى ماضيها أو تقفْ عن السير مع الزمن والحياة ، بل مشت مع كل مجتمع عربى ، تسمو بسموّه ، وتتأخر بتأخره ، وهو نفسه يسمو بسموها ويتأخر بتأخرها .

وما زالت العربية حتى الآن متسعة للتعبير عن الحياة وما جدَّ فيها ، ومستعدة أن تتسع وتتسع أكثر من ذى قبل لـكل جديد مبتكر ومُخْتَرَع حديث ، حتى تكون مثل لغات العصر الحيـــة التى استوعبت الحياة وكل ما جدَّ فيهـا .

اللغة : مجتمع وحياة

واللغة — كل لغة — ظاهرة اجتماعية ، بل أكبر الظواهر الاجتماعية ، وثمرة من ثمرات المجتمع التىتتخذها وسيلة للإفصاح والإبانة والفهم والتعبير ، وهى التى تدّخر فى كلماتها أخلاق أهلها وعاداتِهم ونشاطَهم الأدبى والفكرى « وآثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل ، وآثار الذين استنشقوا الهواء ،

وكل كلمة من كلمات اللغـة يقابلها فـكر من الأفـكار ، كان فـكرَ طائفة من البشر لا يُعلَم عددهم ، وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصونْ ، إن كل كلمة من هذه الـكلمات المجموعة إنما هى لحم الوطن والبشر ودمهما وروحهما[1] » ، وكل ما يتصل بهما بسبب أو بأ كثر من سبب ، وهى بعد ذلك تؤثر فى السلوك الإنسانى للمجتمع ، سواء أكان سلوك جماعات أم سلوك أفراد ، وتؤثر فى الذهن والعقل والشعور .

والعربية كانت قائمة خير قيام بحاجات أهلها ، وكلما تقدم بهم الزمن وتقَدَّمت بهم الحياة تقدمت معهم لغتهم التى فتحت أبوابها لاستقبال الجديد بعـد أن يصهروا ما يمكن صهره من الألفاظ فى « بواتقهم » وإبقاء ما لاسبيل لهم إلى تغييره ، والإفادة منه فى الإفصاح والتعبير ، واستخدامها عند الضرورة والحاجة ، وتوسعة اللغة لا بالمترادفات بل بالمفردات التى تعطى كل كلمة منها معنى خاصاً أو صورة خاصة أو تشير إلى مسمّى خاص .

وكانت العربية سهلة مرنة متسامحة عند من أخذنا عنهم هذه اللغة ، إلا أنها جمدت منذ قرون ، ووقف نشاطها فلم تطق أن تسير ؛ لأن الأغلال والقيود عثَّرت خطاها ومنعتها من السير الحثيث ؛ و « جمدناها » وصرنا أسرى اللغة بعد أن كانت هى نفسها فى خدمتنا .

العربيـة الأولى

وكانت العربية الأولى لغة القبائل التى سكنت شبه الجزيرة ، من اليمن إلى الشام إلى العراق وتخوم فلسطين وسيناء ، وقد عرفت باللغة السريانية

---

(١) ما بين القوسين لأناتول فرانس . (المناهج الأدبية ٢٠٢) .

خطأً نَجَمَ من إطلاق اليونان هـذا الاسم عليها ، وسبب ذلك أنهم كانوا يسمّون الشام الشمالية أشورية أو سورية ، فشاعت تسمية العربية بالسريانية[١] .

والعربية إحدى اللغات الساميّة . « واللغات السامية المشهورة فى القدم : الأكادية — الأشورية البابلية — والساميّة الشرقية ، والساميّة الغربية ، وتنقسم هذه إلى العربية الشمالية والعربية الجنوبية ، أى المعينية والسبئية والأثيوبية ؛ ومعها لهجات شتى : بعضها قديم ، وبعضها حديث ، وكل تقسيم من هذه التقسيمات فإنما هو مسألة اصطلاح ، والتفرقة فيه أقل من التفرقة بين اللغات الهندية الجرمانيّة التى درسها الباحثون خلال القرن أو القرن والنصف الأخير ؛ إذ أن اللغات الساميّة القديمة — عدا الأكادية — تتقارب فى الأجروميّة والنطق بحيث تشترك كل لهجة وما جاورها ، ولا يلحظ الانتقال من لهجة إلى لهجة إلا كما يلحظ مثل هذا الانتقال اليوم بين اللهجات الفرنسية والجرمانية ، ولما بدأ عصر الآباء العبريين عند مطلع الألف الثانية قبل الميلاد لم يكن الفرق بين اللغات يزيد على الفرق بين اللهجات العربية الأصلية فى هذه الأيام[١] » .

وإذا كانت العربية تعود مع اللغات السامية الأخرى إلى أصل واحد ، فإن من الطبيعىّ أن تتقارب وتأتلف فى بعض الأصول والقواعد ، ويأخذ بعضها من بعض كلما أعوز الأمر ؛ وقد نقل مرجليوث عن دسو **Dussaud** أن الأحافير النبطية التى ترجع إلى القرن الثالث قبل الهجرة تدل على تقارب شديد بين الآرامية والعربية الفصحى[١] .

---

(١) أبو الأنبياء ، للعقاد .

« وقد لوحظ التقارب بين اللغات أو اللهجات العربية ، فيما هو أقدم من ذلك كثيراً بحيث لا يحسب تاريخه بأقل من ألفى سنة قبل الميلاد ، فإن أداة التعريف وضمير المتكلم والغائب وكلمات النفى والنهى وتصريف الأفعال مشتركة بين العربية واللغة الأشورية التى تنسب إليها السريانية[١] » .

وهناك تشابه ظاهر بين العربية والبابلية فى كثير من أوجه الإعراب والحركات ، وكلُّ الأفعال فى البابلية قريبة فى صيغها من العربية ، وعلامة الجمع فى البابلية والعربية واحدة[٢] .

وكل هذا يثبت أن العربية لم تكن مقطوعة النسب مُنْبَتَّةً لا تتصل بأخوات ، بل لها أخوات ، ولهنّ جميعاً أصل واحد تفرَّعْن منه .

وكانت اللغة العربية الأولى لغـــة عاد وثمود وطسم وجديس وعمليق وجرهم من أولاد إرَم بن سام كما تذكر المصادر العربية[٣] ؛ وهــذه هى المعروفة فى تواريخ العرب بالقبائل البائدة .

وإن ما اتفق عليه مؤرخو العرب القدماء من أهل الحجاز والمؤرخون المحدثون أن اليمن كانت مصدر العربية الأولى ، لأن العاربة هم أهل اليمن ، ثم يليهم المستعربة .

إلا أن من الثابت تاريخياً أن العربية لم تبلغ حد النضج والصقل والسمو فى اليمن ، بل بلغت ذلك كله فى الحجاز عند ما استقرَّ بها المطاف فى رحابه

---

(١) أبو الأنبياء .
(٢) الكنز فى قواعد اللغة العبرية ص ١٩ .
(٣) تهذيب الألفاظ .

بعد انتقالها من اليمن إلى العراق فالحجاز ، حيث بلغت فى الحجاز الأوج ، وكتب لها أن تتهذب وتبلغ حد الكمال .

تنقيح العربية والاهتمام بها

وأول تنقيح للعربية كان على يد يعرب بن قحطان رأس العرب . ولكن مع هذا لم تكن العربيةُ اللغةَ الفصحى المعروفة فى الآثار والصور البيانية التى وصلتنا من الجاهلية وما بعدها .

ومن غير شك أن اللغة العربية بلغت أوج مجدها وارتفعت إلى أعلى الذرى فى عهد الإسلام الأول ، لأنها أصبحت جزءاً من الدين ، ولكن اهتمام أبنائها كان منذ العصر الجاهلى ، إلا أن هـذا الاهتمام ازداد بظهور الإسلام ، ففى عصر النبوة وصدر الإسلام أخذ الناس يهتمون بالعربية كثيراً ويحرصون عليها ؛ لأنها لغة القرآن والدين والرسول الصادق الأمين .

ثم انتقل الاهتمام عند ازدياد الفتح الإسلامى إلى ناحية أخرى ؛ ألا وهى حفظُ التراث اللغوى ، والدفاعُ عنه ، وردُّ عدوان الدخيل الذى قذفته البلدان المفتوحة والأمم المغلوبة .

ولكن من الشطط أن يظن الناس أن الدخيل كان متأخراً أى بعد عصور الاحتجاج ، بل كان الدخيل منـــذ عُرِفت العربية ، فما المعرّب فى حقيقته إن لم يكن دخيلا ؟ .

قصور العربى عن فهم كل كلمات اللغة

ومن الشطط أيضاً أن يظن الناس أن كل عربى فصيح يُحْتَجُّ بلغته ،

كان يعرف معنى كل كلمة تصافح سمعه ، ولقد ثبت أن الراسخين فى فهم اللغة العربية وفُصَحِها ونوادرها وحوشيّها كانوا يجهلون معانى كثير من الألفاظ .

روى سهل بن معاذ عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزال الأمة على شريعة ما لم يظهر فيها ثلاث : ما لم يقبض منهم العلم ، ويكثر فيهم الخبث ، وتظهر فيهم السَّقَّارة . قالوا : وما السَّقَّارة يا رسول الله ؟ قال بشر يكونون فى آخر الزمان تحيتهم بينهم إذا تلاقوا التلاعن » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم مجلسا منى يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وأبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة هم الثرثارون المتشدقون المتفيهقون ؟ قالوا : يا رسول الله ، قد عرفنا الثرثارين والمتشدقين ، فمن المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون » .

وسأل عمر رضى الله عنه أصحابه وهو على المنبر عن معنى التخوف فى قوله تعالى : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ فسكتوا ، فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا . التخوف : التنقص . قال عمر : فهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال : نعم . قال شاعرنا زهير :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكا قَرِدًا   كما تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[1]

وسمع على — كرم الله وجهه — رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب وفد بنى نهد فقال : يارسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم العرب بما لا نفهم أكثره . وكان رسول الله يوضح ما يسألونه عنه مما لا يعرفون معناه .

---

(١) تهذيب الألفاظ ص ٦ ديوان زهير

وسئل عمر بن الخطاب : ما الأبُّ ؟ فلم يعرف معناه .

ولم يعرف عبد الله بن عباس معنى « فاطر » .

وأمثال هذه الحوادث كثيرة ، وكلها تدل على أن العرب لم يكونوا يعرفون معنى كل ما يسمعون من ألفاظ الفصحى ، بل كانت تغيب عنهم معانى كثيرٍ ، ويجهلون معانىَ كثيرة .

من يحتج بهم يخطئون

كما أن من الخطأ أن يفهم أحدنا أن الجاهليين كانوا فى نجوة من الخطأ ، وفى عصمة من اللحن ، بل كان فيهم من يلحن ويخطئ ، وقد جاء فى الشعر الجاهلى أبيات لا تجيزها قواعد النحو والصرف ، وبعضها لا تجيزه القواعد إلا بعد تأويل مُسِفّ وعلل مصطنعة واعتذار مفتعل .

وهذا طبيعى فى اللغات ، وطبيعى فى اللغة العربية التى تتفق مع أخوات لها فى كثير من القواعد والصيغ والتراكيب ؛ ولا يسع أحداً أن يسلم لسانه من الخطأ فى كل ما ينطق إلا الرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ وإلا الأقحاح من العرب ذوو السلائق السليمة .

ونحن نشاهد أن اللغة العامية التى خرجت على القواعد وفتحت الباب للدخيل من كل لغة ؛ يغلط فيها الإنسان غلطا قد يكون سبق لسان فلا يصوبه ، فيسمعه مَن دونه ويظنه صوابا فيستعمله فيغلط وينتشر الغلط ، وذلك كثير مثل تذكير المؤنث وتأنيث المذكر .

ولعل الرواسب الأولى للغة العربية — قبل أن تنضج وتكمل وتستوى —

تطفو على الألسنة وتنزلق منها ، وذلك يبدو فى اللغـــات الشاذة و بعض التصحيف والتحريف وفى اللحن والاشتقاق الغالط وغيرها .

و إن لغة تتصل فى مصدرها الأول بلغات ساميّة كثيرة لا بد أن يدخل على ألسنة بعض الناطقين بها بعض الخطأ ، و إن لغـة يشارك غيرُ أهلِها أهلَها لا بد أن تتأثر ألسنة أصحابها بما تلتقط من الدخيل .

ولا شك عندى أن دخول أبناء إسماعيل الاثني عشر فى العرب جعل لبعض الـكلمات الدخيلة والألفاظ السوادية التى أصبحت عر بية فصيحة بعد أن عفَّى على أصولها وحقيقة مصادرها النسيان أو الجهل أن تدخل فى لسان العرب المبين .

و إذا عُرِفَ أن كثيراً من شُذَّاذ الآفاق والهار بين من الظلم فى مصر والشام والعراق وفارس والهنـــد تركوا أوطانهم إلى جز يرة العرب حتى يكونوا فى مأمن من الشر الذى ير يد أن يتخطَّفهم ، لأن الجزيرة صحراء تحول بينهم و بين حكوماتهم أو طالبيهم ويمنع الوصول إليهم ، عرفنا أنهم انتقلوا بلغاتهم ، والمجاورة أو الاختلاط يؤثر فى اللغة .

وفى القرن الخامس قبل الميلاد اكتسح الفرس بلاد الـكلدان وأرهق الغزاةُ سكانَها حتى اضطر عدد كبير منهم أن يهجروا وطنهم الأصلي إلى بلاد العرب حيث يجدون الأمن ، و يبتعدون عن الموت .

وهذه الموجات البشر ية التى انتقَلت إلى الجز يرة العر بية أثّرت فى اللغة العر بية ، وأمدتها بكلمات ، ونقلت معها عاداتٍ وأثارةً من علم وحضارة عبروا عنها بألفاظ لم تكن معروفة عند العرب .

وقد أشار القرآن الكريم إلى العامية أو غير الفصحى فى قوله تعالى : ﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ . واحترز القرآن عند ما وصف اللسان بأنه عربي فوصفه بأنه مبين ، والمبين : الفصيح الذى لا كدرة فيه من عجمة أو لحن أو عيب ، وهذه الآية ردٌّ على من زعم أن الرسول عليه الصلاة والسلام تعلم من غلام سوقي[1] .

وتثبت الآية — أيضاً — أن مكة كانت موطناً لغير العرب ، والتاريخ الصحيح يؤيد ذلك .

ونفهم من كل ما قدمنا أن العربية لم تقف فى وجه الموجات البشرية ولا فى وجه الكلمات الدخيلة ، بل استقبلت الآلاف ، وما عرفه العرب أو أخذوه من الدخيل لحاجتهم إليه طوّعوه للسانهم وعرّبوه ، وأعتقد أن كثيراً من الكلمات لم تكن عربية الأصل ، ولكن جهل العلماء والباحثين بأصولها الصحيحة حملهم على اعتبارها عربية أصيلة .

ونخلص من كل هذه التوطئة أن فى العربية ما ليس بعربي ، ولهذا نجد فى الشعر العربي وكلام العرب كثيراً من الآثار البيانية الخاطئة بالنسبة للقواعد الصحيحة التى لا تأويل فيها ولا تسويغ بالعلة المغنية والتقدير المفتعل .

ونجد هذا الخطأ النحوي أو اللغوي أو الصرفي فى الأعصر التى استقام فيها اللسان العربي و بلغ أوجَه فى السلامة والإعراب والصحة والقوة والسخاء . وغير بعيد — عندي — أن يكون هذا الخطأ أثراً من آثار رواسب اللغة

---

(١) روح المعاني ١٤ : ٣٢٤ ، وتفسير النسفي ٢ : ٣٣٢ .

العربية قبل كمالها وبلوغها مرتبة الصقل والتهذيب ؛ تظهر على الألسنة ولا يستطيع الناطق لها ردًّا .

وعلى سبيل المثال أذكر بعض هذه الرواسب التى أعتدّها من الخطأ الذى وقع من العرب ممن يحتج بلغتهم . هو خطأ عند من يبتغى السهولة واليسر والقاعدة الصحيحة التى لا تلف ولا تدور ، هو — عندى — خطأ وإن كان بعض اللغات يجيزه ، وأنا لا أجيز لأننى لا أريد القاعدة الصحيحة أن تعتل أو تتهدم أو يعتورها بعض الخلل ، بل لا أسيغ الشاذ أن يجد طريقاً ليضعف من القاعدة ، كما لا أحب العلة أو التقدير الذى يراد منه تسويغ الخطأ أو الشاذ .

وهذه أمثلة مما أعتدّه خطأ . قال أبو النجم العِجْلى :

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال آخر :

تزوّد منا بين أذناه ضربة دعته إلى هابى الترابِ عقيم

وقال راجز من ضبّة :

أعرف منها الجيد والعينانا ومنخرين أشبها ظبيانا

ولجرير :

عرفنا جعفراً وبنى أبيه وأنكرنا زعانف آخرينِ

وقال شاعر من خزاعة ، وقيل : من جُرْهُم :

ألم نسق الحجيج سلى معدّا سِنيناً ما نَعدّ لها حسابا

وقال آخر :

إنِّى أَبِىٌّ أَبِىٌّ ذو مُحافَظة وابنُ أَبِىٍ أَبِىّ من أَبِيّينِ

وقال آخر :

غدا مالك يرمى نسائى كأنما نسائى لسهمىْ مالك غرضانِ

فيارَبِّ فاترك لى جُهَيْمَةَ أعصُرًا فمالكُ موتٍ بالقضاء دهانى

يريد : ملك الموت .

ولقيس بن زهير ، صاحب داحس ؛ وهى فرسه :

ألم يأتيك والأنباء تُنْمى بما لاقت لبون بنى زيادِ

وقال آخر :

قفا عند مما تعرفان ربوعِ

وقال طرفة :

اضرِبَ[١] عنك الهمومَ طارقَها ضَرْبَكَ بالسيف قَوْنَس الفَرَسِ

وأنشد أبو زيد فى نوادره :

من أى يومىَّ من الموت أفر أيوم لم يُقْدَرَ أم يوم قُدِرْ

وقالت عائشة بنت الأعجم :

فى كل ما هَمَّ أمضى رأيه قُدُمًا ولم يشاوِرَ فى الأمر الذى فعلا

وقيل :

إذا اسود جنح الليل فلتأت ولتكن خُطاك خفافًا إن حُرَّاسَنا أُسْدا

وقال العَجَّاج :

يا ليت أيام الصبا رواجعا

ولذى الخِرَق الطُّهَوى :

يقول الخنا وأبغض العجم ناطقا إلى ربنا صوت الحمار اليُجدَّعُ

---

(١) الشاهد فى « اضرب » حيث اضطر إلى تحريك الباء بالفتح مع أنه فعل أمر وهو هنا مبنى على السكون ، وحركه ضرورة .

وقول الآخر :

فذو المال يؤتى ماله دون عرضه لما نابه والطارق الْيتَعَمَّلُ

وقيل :

ما أنت بالحكم التُرْضَى حكومتُه ولا الأصيل،ولا ذى الرأى والحسب

وقال آخر :

لا تبعثنَّ الحربَ إنِّى لك الـ ـيُنْذِرُ من نيرانها فاتَّقِ

وقيل :

أشاهرُنَّ بَعْدَنَا السيوفا

وقيل :

أقائلُنَّ أحضروا الشهودا

وقيل :

دامَنَّ سَعْدُك إن رحمتِ متيماً لولاكِ لم يكُ للصبابة جانحا

وقيل :

فما وجدتْ نساء بنى تميم حلائلَ أسودينَ وأحمرينَ

وقيل :

فلنْ يحلَ للعينين بعدكِ منظَرُ

وللعُمانى :

كأنَّ أذْنيْهِ إذا تَشَوَّفا قَادِمَةً أو قَلَمًا مُحَرَّفا

وقال شاعر :

أبيت أسْرِى وتبيتى تدلُكِى وجهَكِ بالعنبرِ والمسكِ الذكى(١)

---

(١) هذه الشواهد من كتاب البيان لكاتب هذه السطور

بل قرأ بعضهم القرآن الكريم بألسنة شاذة لا أسيغها ولا أقرأ بها ولا أجيز القراءة بها ، ومن ذلك قراءة أبى جعفر المنصور لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ قرأها أبو جعفر : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحَ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .

وخَرَّجَ هذه القراءة ابن عطية وجماعة على أن الأصل ألم نشرحَن ؛ بنون التوكيد الخفيفة فأبدل من النون ألفا ثم حَذفها تخفيفاً ، وفى البحر : إن لهذه القراءة تخريجاً أحسن مما ذُكِر ، وهو أن الفتح على لغة من ينصب بها ويجزم بلن عكس المعروف .

كل هذه الأمثلة والشواهد تدل على أن مخالفة القاعدة المثلى كانت معروفة فى العهود التى يحتج بلغة أهلها .

والشذوذ فى العربية كثير ، بل كان فى العربية مع الشذوذ خطأ وغلط ، نجدهما فى آثار من وصلتنا آثارهم ، وخاف العلماء على اللغة فوقفوا أمام هذه الغزوات يقظين ، ومنعوا أخذ اللغة من القبائل العربية واستثنوا بضع قبائل وثَّقوها وأخذوا عنها ووضعوا لتلقِّى اللغة قاعدة صعبة ، فمنعوا أخذها من حَضَرِىّ خشية أن يكون فى لغته ما ليس من العربية فيدخل فى صميمها .

وقد ثبت أن حاضرة الحجاز لم تكن خالية من رجال ونساء من أبناء الأمم الأخرى من يونان وفُرْس ، وكانت دُورُ اللذة مزدحمة بنساء الأعاجم ، بل كان كثير من سكان مكة من عِلْيَة القوم يرحلون إلى اليمن والشام وغيرهما بتجارات قبل الهجرة ، ولهذا لم يأخذ العلماء اللغة من حَضَرى مبالغة فى التحرّى والصون .

ومنعوا الأخذ من سكان البرارى ممن كانت مساكنهم مجاورة للأمم

غير العربية كلَخْم وجُذام جيران مصر والقبط ، وقضاعة وغسَّان وإياد جيران أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ، وتغلب اليمن الذين كانوا بالجزيرة لمجاورتهم اليونان [الروم] ، وبكر جيران النبط والفرس ، وعبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين وكانوا يختلطون بالهند والفرس ، وأهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة ، وبنى حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم التجار المقيمين بينهم ، ولم تؤخذ اللغة إلا من قريش وقيس وتميم وأسد وهُذيل وبعض كنانة وبعض طيء[١] .

كل هذا يدل على أن القبائل العربية فى العصر الجاهلى لم تكن لغتها العربية وقفا على الفصحى وحدها ، بل كان فيها كثير من الدخيل الذى قذفته الأمم المجاورة وأفراد الشعوب المختلطون بالعرب ؛ ويدل منع العلماء أخْذ اللغة من أولئك القبائل على أن بعض القبائل العربية لم تكن ذات ألسنة صافية خالصة ، وإلا لما منعوا الأخذ منها وتلقِّى اللغة عنها .

واشتراك العربية مع شقيقاتها فى النسب ، ثم مجاورة القبائل العربية لغير العرب جعلا الباب مفتوحا للدخيل ، فَبَهْرَاء كانت تكسر حرف المضارعة — كالعامية المعاصرة — وأعتقد أن مرد هذا إلى العبرية والسريانية اللتين كانتا تكسران حرف المضارعة[٢] .

وسرت عدوى كسر حرف المضارعة من العبرية والسريانية إلى بهراء ، ومن بهراء إلى العرب قاطبة — ماعدا الحجاز — إلا أن هذه عندما انتقلت

---

(١) البستان ١ : ٣٤

(٢) الكنز فى قواعد اللغة العبرية ص ١٧

إلى العرب لم تنتقل إليها بحذافيرها ، بل اقتصرت على ناحية واحدة ، وقد قال سيبويه فى الكتاب : « يتفق جميع العرب فى كسر حرف المضارعة إلا أهل الحجاز فى نحو فَعِل إذا كانت فاؤه أو لامه ياء أو واواً نحو وَجِلَ وخشِيَ فيقولون : نِيجَلُ ونِخْشَى ، بكسر نون المضارعة » . وهذا يسمى تلتلة بهراء .

وقل مثل ذلك فى طمطانية حمير ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وفخفخة هذيل ، ووكْم ربيعة ، ووهْم كلب ، وعجعجة قضاعة ، وشِنْشِنة اليمن ووتْمها ، وعجرفة ضبَّة ، وغير ذلك من العيوب اللغوية التى لا تتفق مع الفصحى العالية فى النطق ومخارج الحروف .

العربية غنية ومرنة

والعربية جد غنية بثروة لغوية لا قُدْرَةَ لأحد على أن يُحْصِيَهَا إحصاء ، لأن هذه الثروة من الضخامة والسعة بحيث لا تسلس قيادها لِمَنْ يريد حصرها ، أو إحصاءها ، وإن أكثر مواد اللغة العربية غير مستعملٍ ، وكثير منه غير معروف ، وقد قال الكسائى : « قد درس من كلام العرب كثير »[١] وحكى يونس بن حبيب البصرى عن أبى عمرو أنه قال : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ؛ ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير »[٢]. وإن المستعمل من العربية فى عصرنا الحاضر لا يكاد يزيد عن عشرة آلاف مادة ، مع أن الصحاح يضم أربعين ألف مادة ،

(١) اللسان ٣ : ٤٣١ .
(٢) نزهة الألباء ٣٣ .

والقاموس ستين ألف مادة ، والتكملة ستين ألفا ، واللسان ثمانين ألفا ، والتاج عشرين ومائة ألف مادة .

وإن العربية قد بلغت فى الغنى والسعة فى المفردات اللغوية الحد الذى لم تبلغه لغة على وجه الأرض حتى الآن .

ومع أن ما يستعمل من ألفاظ اللغة لم يتجاوز عشْرة الآلاف من المواد فإنها لم تَضِقْ عن كل حاجات الإنسان وتجاربه وخواطره وعلومه وفنونه وآدابه ، بل وَسِعَتْ روافد الحضارة والعلوم غير المعروفة عند العرب فى أزهى العصور الإسلامية ، غير أن المتأخرين وقفوا عند الحدود التى وقفت عندها العرب ، وجَمَّدُوا اللغة حتى اتُّهِمَتْ من المعاصرين بالضيق والعُقْمِ لأنها عجزت عن إيجاد كلمات لِمَا زخرت به حضارة القرن العشرين من مصطلحات ومخترعات .

وهذا الاهتمام ليس صحيحاً كله ، فالعربية مرنة تتسع لكل حاجات الإنسان مهما كثرت هذه الحاجات ، فخصائص هذه اللغة كالاشتقاق والنحت والتعريب وغير ذلك تُعِينُ على أن تفتح صدرها لاستقبال الجديد وضمه إليها .

إن فى وسعنا أن نُفِيدَ مِنْ هذه الكثرة الكاثرة ، والثروة الطائلة ، ونحرص على سلامة اللغة ، دون أن نُحَمِّل مَعنى الحرصِ الجمودَ أو التنكُّرَ للجديد ، فطبيعة العربية سهلة مرنة قادرة على أن تستوعب كل جديد دون أن تضيق به إذا لبسَ الجديدُ رداء العربية الجميل ، أو أحسن المُقَامَ فى جوارِها ، فهى فى جاهليتها لم تضق بالتعريب ، والقرآن الكريم — حجة الفصحى وحارسها ونموذجها الأعلى — حَوَى من الألفاظ المعربة كثيراً ، وصحب الإسلامَ

استعمالُ كلمات كثيرة فى غير ما وُضِعَتْ له مثل الصلاة والزكاة والصوم والمؤمن والمحسن والمسلم والـكافر والمنافق والفاسد .

إن العربية لم تضق وهى فى أوج مجدها بأبنائها ، ولم تبخل عليهم بالـكلمات التى يحتاجون إليها للتعبير عن كل ما يريدون ، بل وما يزال جزء يسير منها مُتَّسِعًا لـكل ما يحتاج إليه العالم المتمكن الراسخ فى الأدب والعلم والفن والفلسفة وغيرها ؛ اتسع هذا الجزء — وهو لا يعدو عشرة آلاف كلمة — لـكل حاجات عالم كبير وأديب مطبوع وعبقرى لا يفرى فريه .

وأذكر — على سبيل المثال — أن الأستاذ عباس محمود العقاد الذى أعْتَدُّهُ أخصب عقلية عربية معاصرة ، وأكبرها وأضخمها وأكثرها استيعابا للآداب والعلوم والفنون ، لم يستعمل من اللغة إلا عشرة آلاف كلمة .

واختصصت العقاد بالذكر ، وضربت به المثل دون غيره لأنه أكثر رجال العلم والأدب والفلسفة تأليفا ، ولأن ما كتبه بلغ من القوة والعمق والروعة ما لم يبلغه ما كتبه أى أديب أو عالم عربى ، ولأنه بلغ من الثقافة الرفيعة ما لم يبلغه عربى معاصر ، ولأنه كتب فى العلوم والآداب والفنون والفلسفات القديمة والحديثة ما لم يكتبه عربى ، ولأنه استعمل من المفردات اللغوية فى شعره ونثره كلمات كثيرة أخرجها من المعجم ونفخ فيها الروح وأكسبها الحياة والقوة والجمال .

هذا الـكاتب العظيم ذو الثقافه الواسعة الذى ألف أكثر من ستين كتابا من خير ما تحوى المـكتبة العربية لم يستعمل إلاعشرة آلاف من الـكلمات .

ونستدل من هذا على أن المحسن فى اللغة من يحسن التصرف والأداء والاستعمال .

وإذا اتسع جزء يسير من اللغة لكل هذا فإن فيما بقى منها مُتَّسَعًا لروافد حضارة القرن العشرين وعلومه وآدابه وفنونه ومخترعاته ، هذا إذا أَحْسَنَّا التصرف فيه ، وفتحنا أبواب الاشتقاق والتعريب ، وأخضعنا ما نريد تعريبه للقواعد العربية وموازينها .

ونحن فى هذه الأيام على أبواب نهضة لغوية جديدة يجب أن نُغذِّيها بالإحياء والبعث والتعريب والوضع ، حتى نجعل لغتنا مستوعبة كلَّ حاجات العصر الحاضر فتكون فى هذا السبيل غنية مثل غناها فى المفردات .

وما دام أسلافنا وضعوا لبعض المسميات مئات المفردات ، فليضع « المعاصرون » أسماء للمسميات الحديثة التى وقفنا أمامها لكثرتها دهشين ؛ عاجزين عن استحداث ألفاظ للمخترعات الحديثة .

وما دمنا قد تقدمنا فى مجال الاستعمال اللغوى والأسلوب الكتابى ، فلنتقدم بلغتنا التى جمدها المتأخرون منذ عصور فساد اللغة وانحطاط أساليب الكتابة ، وجعلوها مقدسة كالقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولتكون نهضتنا اللغوية صحيحة يجب أن نُصْحِبَها بنهضة أكبر من التأليف والطبع والنشر ، وذلك بأن نستقبل الجديد ونجد أسماء له عن طريق الوضع أو التعريب أو الاشتقاق مع المحافظة على أصول العربية وقواعدها وأبنيتها .

إننا — من غير شك — تقدمنا على الأسلاف فى مجال الاستعمال اللغوى والأساليب الكتابية والإنتاج العلمى والأدبى والفنى ، وآية ذلك أننا لو أفردنا كل عصر من العصور الماضية وعقدنا موازنة بينه و بين عصرنا هذا لوقفنا على ما يؤيد التقدم والرجحان ، إلا أن من الحق أن نقول : إن أسلافنا القدماء يرجحون علينا فى النطق بالفصحى ، وذلك لسلامة سلائقهم وألسنتهم ؛ أما نحن فنلحن ونخطىء إذ نطقنا بالفصحى ، ولا أستثنى أحداً من المعاصرين ، وفى هذا يرجح الأسلاف على المعاصرين ، وسبب ذلك فساد السلائق ، واعتياد اللسان اللحن والخطأ والبعد عن الإعراب ، وقوة العامية الغلابة التى هزمت الفصحى وزَوَتْهَا فى حدود جِدِّ ضيقة .

عناية العرب بلغتهم

واهتمام أبناء العربية بلغتهم قديم منذ العصر الجاهلى ، ولكن زاد هذا الاهتمام بمجىء الإسلام ، لأن العربية أصبحت لغة القرآن والدين الجديد والرسول الصادق الأمين .

وقد أشرنا فى هذه المقدمة إلى أن العرب لم يكونوا يعرفون معنى كل كلمة فى لغتهم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعمل كلمات كثيرة خفيت معانيها على الصحابة وكان فيهم راسخون فى فهم أسرار العربية كعمر ابن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عباس — رضى الله عنهم — حتى أن الإمام عليا قال للنبى : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم العرب بما لا نفهم أكثره .

وإذا كان العرب قبل عصر الخليل بن أحمد لا يعرفون المعجم كما نعرفه ،

فإن حاجتهم إليه لم تكن معدومة ، ولئن كانوا لا يعرفون المعجمات ولا وجود لها فإنهم كانوا يرجعون إلى أهل العلم ويسألونهم كما نسأل المعجم ، وكان أهل العلم باللغة يؤدون عمل المعجم .

وإن تفسير القرآن وشرح غريب الحديث فى عصر النبوة وعصر الراشدين يدلان على وجود معجم غير مُدَوَّن وغير مرتب ترتيب المعجمات الحديثة ، ونقول : « معجم » تجوزا ، لأننا نعرف ما يسمى المعجم .

قال ابن عباس رضى الله عنه : « الشعر ديوان العرب ، فإذا خَفِىَ علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله رجعنا إلى الشعر فالتمسنا معرفة ذلك منه » . وقال : « إذا تعاجم شىء من القرآن فانظروا فى الشعر فإن الشعر عربى[1] » .

وسأله نافع بن الأزرق وصاحبه نجدة بن عويمر مسائل كثيرة فى التفسير ، واشترطا عليه أن يؤيد كل كلمة بشاهد من كلام العرب ، فكان عند شرطهما[2] .

وصنيع ابن عباس رضى الله عنه ، صنيع معجمى ، فهو قد وقف على لغات العرب ونوادرها وفُصَحِها ودلالات مفرداتها ، وأعانه رسوخه فى اللغة وعلمه بها أن يفسر للناس معانى الألفاظ تفسيراً لغوياً .

وكان التفاخر بإجادة اللغة والحرص على لهجتها العالية سمة الفصحاء البلغاء ، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يفتخر بأنه أفصح العرب ؛ ولد فى قريش واسترضع فى بنى سعد .

---

(١) تفسير الطبرى ١٧ : ١٢٩ ومذاهب التفسير الإسلامى ٨٩ — ٩٠

(٢) الإتقان للسيوطى .

واشتد حرص العرب على لغتهم عند ما اختلط العرب بالعجم ، واختلف الأعاجم إلى بلاد العرب ، وفسدت العربية ، وزاد الفساد بازدياد اختلاط الأمم غير العربية بالعرب نتيجة الفتح الإسلامى حتى فسدت لغة المدن ، وسقط الأخذ عن أهلها والاحتجاج بكلامهم ، واضْطُرَّ المعنيون باللغة أن يضربوا إلى البادية لتلقى الفصحى من أبنائها الأصلاء الذين سلمت ألسنتهم من اللحن والعجمة ، ولهذا رأينا علماء اللغة والمشتغلين بها أمثال الخليل بن أحمد[١] ، وخلف الأحمر[٢] ، ويونس بن حبيب الضبى[٣] ، والكسائى[٤] ، والنضر بن شميل[٥] ، والأصمعى[٦] ، وأبى زيد الأنصارى[٧] ، وابن دريد[٨] ، والأزهرى[٩] والجوهرى[١٠] وغيرهم يختلفون إلى البادية طلبا للفصحى .

وكان هؤلاء الأعلام وغيرهم غُيُرًا على العربية يتلقونها من مصادرها الموثوق بها ، فكانوا يحتفلون بالأعراب ، ويَقْدُرون الفصحاء منهم حق القدر ، ويُسَرُّون أعظم السرور إذا وقفوا على نادرة أو نفيسة من العلم .

قال أعرابى لخلف الأحمر بمحضر من أبى زيد الأنصارى : ماخيرَ اللبنَ للمريض ! — بنصب خير واللبن — فقال خلف : ما أحسنها من كلمة لو لم تدنسها بإسماعها الناس .

---

(١) توفى سنة ١٧٠ أو ١٧٥ هـ .
(٢) توفى سنة ١٨٠ هـ .
(٣) توفى سنة ١٨٢ هـ .
(٤) توفى سنة ١٨٩ هـ .
(٥) توفى سنة ٢٠٤ هـ .
(٦) توفى سنة ٢١٥ هـ .
(٧) توفى سنة ٢١٥ هـ .
(٨) توفى سنة ٣٢١ هـ .
(٩) توفى سنة ٣٧٠ هـ .
(١٠) توفى سنة ٣٩٥ هـ .

قال شمر : وكان خلف ضنينا ، ونشرها أبو زيد فى الناس ، فلم يستطع خلف أن يحتفظ بها لنفسه ، ومعنى : ماخيرَ اللبنَ للمريض — بنصب الراء والنون — تعجب مثل : ما أحسنَ اللبنَ للمريض[1] .

وكان أولئك الأعلام يذهبون إلى مضارب الفصحاء ومنازلهم رغبة فى أخذ اللغة ممن لم تفسد ألسنتهم وسلائقهم ، ومن أعظم هؤلاء الفصحاء : الخثعمى ، وأبو خيرة العدوى ، وأبو الدُّقَيْش — وكان من أفصح العرب — وأبو مهدية الأعرابى ، وأبو المنتجع ، وأبو البيداء الرياحى ، وأبو طفيلة ، وأبو حياة بن لقيط ، والفقعسى محمد بن عبد الملك ، وعبدالله بن عمرو بن أبى صبح ، وأبو مالك عمرو بن كركرة الأعرابى اللغوى صاحب النوادر ، وأبو الجاموس ثور بن يزيد ، وأبو سَوَّارٍ الغنوى ، وأبو زياد الكلابى ، وأبو عرار العجلى ، وأبو ثوابة الأسدى ، وأبو ضمضم الكلابى ، وعمرو بن عامر البهدلى الذى أخذ عنه الأصمعى ، وأبو شبل العقيلى ، وأبو ثروان العكلى ، وأبو فقعس ، وأبو دثار ، وأبو الجراح — وهؤلاء الأربعة هم الذين حكموا بين سيبويه والكسائى — وأبو العميثل ، وعوسجة ، وأبو مُسْهِر الأعرابى ، وأبو المضرحى ، والحرمازى ، وأبو الهيثم ، وأبو المجيب الربعى ، وأبو صاعد الكلابى ، وأبو الصَّعِق العدوى ، والمفضَّل العنبرى ، ويزيد بن كَثْوة ، وناهض بن ثومة الكلابى ، وأبو السمح الطائى ، وغيرهم .

والذى حمل أئمة اللغة الأعلام على العناية بهؤلاء الأعراب والاحتفال بهم : حرصهم على اللغة ، وتلقِّيها من الفصحاء الألى سلمت ألسنتهم من

---

(١) تهذيب الصحاح (هامش) ١ : ٢٧٨ .

اللحن وصفت سلائقهم من الرنق واستقامت لهم الفصحى ؛ ودفعهم حرصهم عليها إلى أن يسألوهم عن كثير مما يعينهم على بناء القواعد أو تصحيح الكلمات الخاطئة الملحونة .

وكان اتصال العلماء المعنيين باللغة والغُيُر عليها بهؤلاء الأعراب الفصحاء خير وسيلة لتدوين اللغة وتأليف المعجمات ، وحفظ بناء العربية سليما قويا ، فهم قد رأوا اللحن الفاحش والخطأ المعيب يتدسَّسان إلى لغتهم الكريمة فانبروا إلى حمايتها والذود عنها ومحاربة اللحن وتلقِّي الصحيح من مصدره الأصيل وتدوينه ليرث مَن بعدهم التراث اللغوى كما خلَّفه أصحابه الأصلاء .

وكان من مظاهر غَيْرتهم وتشدُّدِهم : منعهم استعمال كلمات فصيحة ظنوها ملحونة أو غير فصيحة فأنكروها لأنهم لم يطلعوا على مصادقها من كلام العرب ، فالأصمعى — رحمه الله — خطَّأ من قال : شتان ما بينهما ، وذكر أن الصحيح : شتان ما هما .

قال أبو حاتم : أنشدت الأصمعى قول ربيعة الرَّقِّى :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى   يزيدِ سليم ، والأغرِّ ابن حاتمِ

فقال الأصمعى : ليس بفصيح[1] ، وقال الأزهرى فى التهذيب[2] والجوهرى فى الصحاح[3] : ليس قول ربيعة بحجة ، إنما هو مولد ، والحجة قول الأعشى :

شَتَّان ما يومى على كورها   ويوم حَيَّان أخى جابرِ

---

(١) تهذيب الصحاح ١ : ١١٢ .
(٢) تهذيب اللغة ، مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله بالمدينة المنورة .
(٣) الصحاح ، مادة (شتت) .

والصحيح أن ما منعه هؤلاء الأثبات الأعلام ورد فى الشعر الفصيح ، مما يدل على أنهم لم يطلعوا عليه ، ولكن إخلاصهم للغة وإسرافَهم فى هذا الإخلاص وغيرتَهم عليها دفعتْهم إلى هذا الإنكار ، ولو اطلعوا لما منعوا وأنكروا .

قال أبو الأسود الدؤلى :

فإنْ أعفُ يوما عن ذنوبٍ وتعتدى   فإن العصا كانت لغيرك تُقْرَعُ
وشتَّان ما بينى و بينك أننى   على كل حال أستقيم وتَظْلَعُ

وقال البعيث :

وشتان ما بينى و بين رُعاتها   إذا صَرصَرَ العصفور فى الرُّطَب الثَّعْدِ

وقال الأحوص :

شَتَّان حين يبثُّ الناس فِعْلَهُما   ما بين ذى الذَّم والمحمود إن حمدا

وخطَّأ الجوهرى وكثير من علماء اللغة من يقول : مستأهل ؛ بمعنى مستحق وأهل ، وتابعتْهم فى ذلك وحملتُ كثيراً من العلماء والكتاب أن يتركوه ويستبدلوا به كلمة « أهل » مع أن فصحاء العرب تكلموا به ، ولكنى لم أقف عليه إلا بأَخَرة ، فقد قرأت فى « تهذيب اللغة » للأزهرى[1] : أنه سمع من أعرابى فصيح من بنى أسد « استأهل » وحضر ذلك جماعة من الأعراب فما أنكروا قوله .

وهذه المبالغة فى المنع ؛ والتشدد فى الإنكار دليل على أن هؤلاء العلماء الأعلام كانوا غُيُراً على العربية ، وكانوا يقومون بحركة واسعة لتنقية الفصحى ،

---

(١) مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة .

وحملة على ما حسبوه غير فصيح حتى تبقى لغـة القرآن سليمة من اللحن والخطأ ، وكانوا يبالغون فى التحرج حتى منعوا كلمات فصيحة لم تصل إليهم مصادقها من الفصيح ، بل دفعتهم مبالغتهم فى تحرِّى الصواب والحق ألا يعتمدوا إلا ما صح عندهم ، أما إذا ارتابوا فى كلمة أو لم يطلعوا على ما يؤيدها من كلام العرب أشاروا إلى من تلقَّوها عنـــه أو رواها لهم أو وجدوها فى كتابه .

قال الأزهرى فى مقدمة كتابه تهذيب اللغة[1] : « ولو أنى أودعت كتابى هذا ما حوتْه دفاترى وقرأتُه من كتب غيرى ، ووجدتُها فى الصحف التى كتبها الورَّاقون وأفسدها المصحِّفون لطال كتابى ؛ ثم كنت أحد الجانين على لغة العرب ولسانها ، ولقليل لا يُخْزِى صاحبه خير من كثير يَفْضَحُه ، ولم أودع كتابى هذا إلا ما صحَّ لى سماعا منهم ، أو رواية عن ثقة ؛ أو حكاية عن خطِّ ذى معرفة ثاقبة اقترنت إليها معرفتى ، اللهم إلا حروفا وجدتها لابن دريد وابن المظفر فى كتابيهما ؛ فبيَّنْتُ شكى فيها وارتيابى بها » .

هكذا كان علماء اللغة الغُيُر المخلصون الذين أقاموا من أنفسهم حرَّاساً يقظين عليها ، يذودون عن حماها ، وينفون عنها الخبث ، ولا يفتُرون عن النقد والتمحيص وتنبيه الناس إلى الخطأ حتى يجتنبوه ، وردِّهم إلى الصواب كى يلتزموه . وأشاروا فى كتبهم إلى ذلك ، كما ألف بعضهم كتباً ورسالات فى « اللحن » أقدمها رسالة منسوبة إلى الكسائى[2] اسمها : « ما تلحن

---

(١) مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة .

(٢) توفى سنة ١٩٢ هـ .

فيه العامة » وممن ألفوا فى هـذا الجانب أبو عبيدة[١] وأبو عثمان بكر بن محمد المـازنى[٢] وأبو حاتم السجستانى[٣] وأبو حنيفة الدِّينَوَرِى[٤] وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الإشبيلى[٥] ، وكتُبُ هؤلاء جميعاً بعنوان واحد هو « لحن العامة » ولأبى هلال العسكرى[٦] « لحن الخاصة » وألف يحيى بن زياد الديلمى المعروف بالفراء[٧] كتابه « البهاء فيما تلحن فيه العـامة » وأبو الهيذام كلاب بن حمزة العقيلى الحرانى[٨] « ما تلحن فيه العامة » وغير هؤلاء كثير .

وكان هؤلاء وأولئك الأعلام يعدُّون هذا العمل أمراً دينياً ، ويذكرون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه عند ما لَحَنَ أحدهم بحضرته : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » .

وما زالت هـذه الحركة قائمة حتى الآن ، ولـكن لم نُوَفَّقْ للقضاء على اللحن وتنقية الفصحى ؛ لأن العامية صارت لغة التخاطب ، وشاركت الفصحى فى التعبير عن تجارب الشعور حديثاً وكتاباً ، وزَوَتْها فى حدود ضيقة ، ولأن السلائق فسدت فساداً تاماً ، ومع كل هذا فإنها لم تَفْقِدِ النفع ،

---

(١) توفى سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٤م) .
(٢) توفى سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٢م) .
(٣) توفى سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨م) .
(٤) توفى سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢م) .
(٥) توفى سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩م) .
(٦) توفى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤م) .
(٧) توفى سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢م) .
(٨) توفى سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢م) .

فقد كانت صُوًى تهدى إلى الطريق ، وليس من الحتم أن يبصر الناس جميعاً الصوى و يهتدوا إلى الطريق المستقيم .

* * *

هذه اللغة الكريمة التى حرص عليها أسلافنا الأقدمون حرصا بالغا لم تَعْهَدْه لغة غيرها فى روايتها ؛ وترتيب قواعدها ؛ واستقصاء أصولها ؛ و إحصاء مفرداتها ؛ واستيعاب الشواهد عليها ؛ وضبْط كلماتها وموازينها ؛ و بيان الفروق اللغوية بين مترادفاتها ؛ وتحقيق المعرَّب والدخيل ولغة السواد ، وتأدية الفصحى إلينا فى سياج منيع من الصون والعناية .

هذه اللغة الكريمة ظفرت بأبناء بَرَرَة من أئمتها الثقات الأثبات وقفوا جهودهم المثمرة الناضجة على العناية بها ، و بالغوا فى رعايتها وحفظها وتنقيتها ، وكان ذلك منذ عصر الجاهلية حيث كان الشعراء والخطباء يتفاخرون بالفصاحة والبيان ، إلا أن العناية ازدادت والرعاية عظمت بمجىء الإسلام ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام عند ما جاء بالإسلام كان دينه القِيَمُ الحق مؤيداً العربية ورافعاً مكانتها وشأنها إلى أعلى الذرى ، وصارت وسيلة من وسائل العبادة والتشريع ، وسبيلا يُفْضِى إلى العلم بالدين ، فالصلاة — وهى عماد الدين وعموده — لا تتم إلا بالقرآن الكريم ، ولا تصح إلا إذا تُليت السور بالعربية كما أنزلت من الله .

وكانت العناية الأولى باللغة استجابة إلى ما توجبه المحافظة على القرآن الكريم وتفهُّم معانيه من حفظ مادته اللغوية وما ترمى إليه من دقيق الدلالة والمغزى ، وصحيح المبنى والمعنى .

ثم نجد بعد هـذا أن العربية لم تكن سبيل العلم بالدين وحده ، بل نجدها سبيلا إلى المعارف الإنسانية كلها ، ومظهراً من مظاهر الحضارة والمدنية وترف العقل والإحساس ، وأداة للتعبير عن تجارب الشعور والخواطر والآراء .

حفظ اللغـة وتيسيرها

وأولئك الأبنـاء البررة من أئمة اللغة الأثبات الثقات وهبوا أنفسهم لخدمتها ويسّروا للناس طرق تعلمها ومدارستهـا ، وحفظوا موادّها وأصولها بقدر ما يتسع له الجهـد الإنسانى والطاقة البشرية ، وزوّدونا بثروة لغوية ضخمة ، تلك الثروة التى يرجع الفضل فى جمعها وحفظها وحراستها إلى أولئك الأئمة البررة الأجلاء الذين قدموا للناطقين بالضاد ما لم يقـدم أحد مثلهم فى لغة من اللغات ، وخدموا العربية خدمة غنية بالمراجع فى كل ما يتصل بها ، سواء أكان متصلا بالمعجمات التى حفلت بعشرات الألوف من المواد ، أم متصلا بالكلمات فى سمط التعبير حتى يُظْهِر السياق معناها ، ويحدد صورته فى الذهن ، ويُنْزِلَها من الاستعمال الصحيح حق منزل ، أم كان متصلا بإحصاء المفردات ، أم ترتيب القواعـد ، واستقصاء الشواهد والنصوص ، أم ضبط النطق ، أم الفروق ، أم اللغات ، أم المعرب ، أم الدخيل .

ومن حسن حظ العربية أن ينظر إليها أبناؤها العلماء الأعلام من مختلف الزوايا ، ويتناولوها من جميع الوجوه التى تُتناوَل منها لغة حيّة ذات مقـام كريم فى الحياة ، ولهـذا رأينا من يؤلف فى بيان مفردات منها لا تجمعها وشيجة ، ولا تلمُّها أرومة ، إنْ هى إلا تفسيرات من وحى الساعة وعفو الخاطر ، وشروح لألفاظ تتقارب معانيها تارة وتتباعد أخرى ، ورأينا من

يؤلف حسب المعانى التى تؤديها ألفاظ اللغة ، أو يؤلف فى النوادر ، أو الغريب ، أو اللغات ، أو المعرب ، أو اللحن ، أو الصفات ، أو فى الإنسان والحيوان والنبات ، أو المُدَاخَل ، أو البلدان ، أو الطبقات ، ورأينا من وضعوا المعجمات اللغوية ، وهؤلاء أعلى من ألف فى اللغة مقاما ، وأعظمهم اضطلاعا ، وأكثرهم استيعاباً لكلام العرب وفهماً لمعانيه ، ووقوفاً على أسراره ونوادره وغريبه وفُصَحه ، وتُعَدُّ مؤلفاتهم « دائرة معارف عامة » للحياة العربية من جميع النواحى : العقلية والاجتماعية والخُلقية والفنية والنفسية وغيرها ، ويختلف بعض هذه « الدوائر » عن بعض فى السعة والحفول .

وسبب علو مقام مؤلفى المعجمات أن مؤلفاتهم استوعبت ما تفرق فى الكتب اللغوية ذات الموضوعات الخاصة التى تجمعها المعجمات ، ففيها البلدان والأعلام والمواضع ، وكلُّ ما يتصل بالحياة والنبات والجماد ، والزمان والمكان ، وحالات النفس وما يجول فيها من خواطر ومعان .

ومن هنا كان « المعجم » أعظم خطوة فى التأليف اللغوى ، وقد تنبثق من المعجم أضواء شموع جديدة ، ولكنها لا تزيد عن أنها فروع تسترفد من أمِّها الأول الحياةَ والقوة والنماء .

* * *

المعَاجِمُ

ما المعجم ؟ ومتى عُرِفَ معناه الاصطلاحى ؟

المعجم : كتاب يضم أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها وتفسير معانيها ، على أن تكون المواد مرتبة ترتيباً خاصاً ، إما على حروف الهجاء أو الموضوع ، والمعجم الكامل هو الذى يضم كل كلمة فى اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها وشواهد تُبَيِّنُ مواضع استعمالها .

ولا يطلق المعجم على غير هذا ، فإذا جمعنا كل ألفاظ اللغة فى كتاب ولم نُصْحِبْها فإنه لا يُسَمَّى معجما ، وكذلك لا يُسَمَّى معجما إذا وضعنا فيه كلمات معدودة مشروحة ، بل لا بد أن يكون المعجم كما عرّفناه ووصفناه .

متى عرفت كلمة المعجم

ولا نعلم بالدقة متى أطلق المعجم على هذا الاستعمال ، ولكن الذى نعلمه أن أول من استعمل الكلمة رجال الحديث ، وأول ماعرف كان فى القرن الثالث ، فقد جاء فى صحيح الإمام البخارى[1] عنوان من تعبيره وقوله ؛ وهو : « باب تسمية من سُمِّيَ من أهل بدر فى الجامع الذى وضعه أبو عبد الله على حروف المعجم » والجامع أحد كتب البخارى ، ويريد بأبى عبد الله نفسه ، وللبخارى « التاريخ الكبير[2] » رتب فيه أسماء الرجال على حروف المعجم مبتدئاً بالمحمدين ، وأول كتاب أطلق عليه اسم المعجم هو « معجم الصحابة » لأبى يعلى أحمد بن على بن المثنى بن يحيى بن عيسى

---

(١) أسماء المؤلفين ١ : ٥٧ .

(٢) أسماء المؤلفين ١ : ٤٤٤ .

ابن هلال التميمى الموصلى الحافظ محدث الجزيرة ، وقد ولد سنة ٢١٠ ﻫ وتوفى سنة ٣٠٧ ﻫ . وقد ارتدفه أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى المحدث المعروف بابن بنت منيع المولود سنة ٢١٤ ﻫ والمتوفى سنة ٣١٥ ﻫ . وسمى كتابيه الذين ألفهما فى أسماء الصحابة : المعجم الكبير، والمعجم الصغير . ثم كثر إطلاقه واستعماله بين من ألفوا فى الحديث ، وعنهم أخذه اللغويون .

وجاء فى أثر منسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم استعمال كلمة المعجم ، ونورده هنا رجاء أن يلقى من يحققه ؛ فيبنى عليه — إذا صح أنه حديث — حقائق علمية قد تفتح أبواباً جديدة لبحث لغوى خطير ، وأنا بحثت عن هذا الحديث فلم أجده بين مرويات أبى ذر .

جاء فى مقدمة كشف الظنون[1] « فى حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : يارسول الله ، أى كتاب أنزله الله على آدم عليه السلام ؟ قال : كتاب المعجم . قلت : أى كتاب المعجم ؟ قال : أ ب ت ث ج . قلت : يارسول الله ، كم حرفا ؟ قال تسعة وعشرون حرفا » .

ولعل إطلاق المعجم على الفهرس الذى يضم كلمات اللغة المشروحة المبوبة المرتبة ترتيباً خاصاً كان لأسباب أقربها أن الإعجام يزيل اللبس ويوضح المبهم ، وأن الكلمات تتألف من حروف المعجم .

أى الأمم سبقت إلى المعجم ؟

وننتقل بعد هذا إلى سؤال آخر : هل عرف العرب المعجم قبل غيرهم من الأمم أم كانوا مسبوقين إليه ؟

(١) مقدمة كشف الظنون ص ٢٥ .

لا شك أن العرب لم يكونوا أول من ابتكر تأليف المعجم بل سبقتهم أمم بقرون مثل الأشوريين والصينيين واليونان .

فالأشوريون اهتموا باللغة ومفرداتها وقواعدها ، وعرفوا المعاجم قبل العرب بأكثر من ألف سنة ، فقد ابتكروا معاجم خاصة بلغتهم ذات ترتيب يغاير ما عرف العرب من ترتيب ، فالأشوريون خافوا على لغتهم أن تضيع ، فصنّفوا معاجم دعتهم إليها الضرورة عندما تركوا نظام الكتابة الرمزية القديمة واستبدلوا به نظام الإشارات المقطعية أو الألفبائية ذات القيم الصوتية ، ولكن مرور الزمن أبهم عليهم معرفة النظام الجديد ، فجمعوا مسارد (قوائم) وعرّفوها بطريقتهم القديمة ، وأعانهم على ذلك أن لغتهم السومرية القديمة لم تكن قد امحت بعدُ لأن الكهنة كانوا يستعملونها فى شعائرهم الدينية ، وجمعوا ألفاظها فى مسارد محفورة على قوالب الطين ، وأودعوها مكتبة أشور بانيبال الكبيرة التى كانت بقصر قويونجيك فى نينوى (٦٦٨ — ٦٢٥ قبل الميلاد) وقد وصل إليها الكشف العلمى فصارت مصدراً صحيحاً لتاريخ الأشوريين[١] .

وعلى بعض الأقوال التى أيدتها الكشوف العلمية الأخيرة أن الأشوريين هم العرب القدماء ، فإذا صح هذا فإن أسلاف العرب الأقدمين هم من أوائل من ابتكروا المعجم أو كانوا أول المبتكرين فى هذا السبيل .

وعرف الصينيون المعاجم قبل العرب ، ولديهم منها طائفة صالحة أقدمها معجم اسمه « يوپيان » Yu pien وألفه كو يى وانج Ku Ye Wang وطبع

---

(١) حضارة بابل وأشور ٤١ — ٤٧ .

سنة ٥٣٠ بعد الميلاد ، ثم معجم آخر اسمــه شوفان Shwo wan تأليف هوشن Hü-Shin وطبع سنة ١٥٠ قبل الميلاد ، وهما أساس معاجم الصين واليابان .

وعرف اليونان المعاجم قبل العرب أيضاً ، وذكر أتنيوس Athenaeus خمسة وثلاثين مؤلفا زعموا أنها قد تكون معجمات ، وقيل : « زعموا » لأن هذه الـكتب جميعها مفقودة ، ومن الصعب البت فى أنها معجمات ، ولـكن الثابت مما وصل إلى الخلَف من المخطوطات التى قام علماء أوروبا بطبع أكثرها أن اليونان وضعوا معاجم ؛ بعضها على الحروف الأبجدية ، وأكثر من وضعوا هـذه المعجمات من علماء جامعة الاسكندرية فى عهد البطالسة وبعدهم ، وكان بعض هذه المعاجم خاصا مقصورا على مفردات بعض الخطباء أو المفردات الواردة فى كتب أفلاطون الفلسفية أو الخطباء الأتيكيين العشرة ، أو كتب أبقراط الطبية ، وبعضها لغوى .

وأقدم المعـاجم أو الـكتب اللغوية فى اليونانية — واللاتينية أيضاً — كانت مجموعة من الغريب فى الألفاظ والعبـارات ، وكانت مقصورة على مؤلّف أو كتاب .

وأقدم المعجمات اليونانية القديمة معجم يوليوس بولـكس Yulius Pollux وهو كالمخصص لابن سيده ، مرتب على المعانى والموضوعات ، ومعجم هلاديوس Helladius السكندرى ، وكان فى القرن الرابع الميلادى .

وأقرب هذه المعاجم شبها بالمعجم العصرى : معجم فاليريوس فيلـكس Valerius Flaccus وكان فى عهد الإمبراطور أغسطس — وفى أيامه ولد سيدنا المسيح عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم — وعنوانه « فى معانى الألفاظ » وما يزال موجزه باقياً حتى الآن .

وألف هزيشيوس السكندرى Hesyehius فى القرن الرابع الميلادى معجم « اللهجات والحليات » ومعجم « ما اتفق لفظه واختلف معناه » لأمونيوس السكندرى Ammonius ووضع أريون الطِّيبى Arion of Thebes — وهو من أهل طيبة فى مصر وعاش بين ٣٩٠ و ٤٦٠ بعد الميلاد — معجما فى الاشتقاق ؛ وقد طبعه أحد العلماء فى ليبزج سنة ١٨٢٠ م[1] .

هذا بعض ما عُرِف من تاريخ تأليف المعجمات فى الأمم غير العربية .

أما العرب فلم يعرفوا المعاجم لأنهم كانوا أمة أمِّيَّة ، ولم تكن حاجتهم داعية إلى تأليف معجم حتى جاء الإسلام فدعت الحاجة إلى أن يسألوا عن معانى الكلمات ذات الاصطلاح الجديد ، كما كانوا يسألون عن بعض الكلمات التى استغلق عليهم فهم معناها .

أسباب تأليف المعجمات

كان القصد من تأليف المعاجم وكتب اللغة حراسة القرآن من أن يقتحمه خطأ فى النطق أو الفهم ، وحراسة العربية من أن يتقَحَّم حرمها دخيل لا ترضى عنه العربية ، وصيانة هذه الثروة من الضياع بموت العلماء ومن يحتج بلغتهم ، فكما أن كتابة المصحف كانت بسبب استحرار القتل فى الصحابة حَفَظَةِ القرآن ، والخشية من أن يضيع شىء منه ، فكذلك دوِّنت اللغة بوساطة المعجمات والكتب اللغوية خشية من أن يضيع بعض موادها ؛ أو يتدسس إليها غريب تنبو عنه أصولها وقواعدها .

(١) دائرة المعارف البريطانية : الطبعة التاسعة بنيويورك ٧ : ١٧٩ — ١٩٣ ، ودائرة المعارف البريطانية الطبعة الحادية عشرة طبعة نيويورك ٨ : ١٨٦ — ٢٠٠ ، ودائرة معارف هرنس ويرث Horns Worth's Universal Encyclopedia مادة Dictionary .
وقد ترجمت لنا السيدة فتية أمين كل ما اعتمدناه من « دوائر المعارف » هذه ونقلناه عنها وعن المصادر الإفرنجية الأخرى .

والسبب الأول الذى دعا العلماء إلى العناية باللغة فهم القرآن الكريم ، وفهم القرآن الكريم لا يتأتى إلا إذا عرفنا تفسير كلماته . وقد تضمن القرآن كثيراً من الغريب والنوادر ، وكثيراً من الألفاظ التى استغلقت معانيها على الفصحاء من العرب كعمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس ، حيث لم يقع لعمر معنى الأبِّ فى قول الله تعالى : ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ ، ولا بن عباس معنى كلمة « فاطر » .

وكانوا يستعينون بالشعر وكلام العرب لبيان معانى القرآن ، وكانوا يحرصون على أن يستوعبوا من كلام العرب كثيراً حتى يستطيعوا بهذه المصادق أن يفسروا ألفاظ القرآن ، ومن ثَم يفهمون معانى آيات الله البينات . وكان أول اتجاه للعناية اللغوية هو رغبة دينية محض . ولهذا نُسِبَ إلى ابن عباس كتاب غريب القرآن[١] .

ولعل هذا السبب نفسه هو الذى حمل النحويين على أن يُعْنَوا بالنحو ليبعدوا عن اللسان الخطأ فى تلاوة القرآن الكريم ، فحرسوه بالقواعد النحوية ، ولهذا رأينا علماء النحو يضعون القواعد على أساس الشعر وكلام العرب لا على أساس القرآن .

ولقد أنكر علماء النحو بعض القراءات لأن مصادقها من كلام العرب لم تصل إليهم ، حتى أن بعضهم أخذ على « نافع » — وهو أحد القراء السبعة المشهورين — بعض ما ظنوه خطأ منه وأنكروا عليه .

(١) توجد منه نسخة فى برلين كما ذكر بروكلمان .

جاء فى البحر[1] :

« والمعايش : جمع معيشة . ويحتمل أن يكون وزنها مفعِلة ومفعُلة بكسر العين وضمها ؛ قالهما سيبويه . وقال الفراء : معيشة بفتح عين الكلمة .

والمعيشة : ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها مما يتوصل به إلى ذلك ، وهى فى الأصل مصدر تنزل منزلة الآلات . وقيل : على حذف مضاف ، التقدير أسباب معايش كالزرع والحصد والتجارة وما يجرى مجرى ذلك . وسماها معايش لأنها وصلة إلى ما يعاش به . وقيل : المعائش وجوه المنافع ، وهى ما يحدثه الله ابتداء كالثمار ، أو ما يحدثه بطريق اكتساب من العبد ، وكلاهما يوجب الشكر .

وقرأ الجمهور معايش بالياء وهو القياس لأن الياء فى المفرد هى أصل لا زائدة فتهمز ، وإنما تهمز الزائدة نحو صحائف فى صحيفة .

وقرأ الأعرج وزيد بن على والأعمش وخارجة عن نافع وابن عامر فى رواية « معايش » بالهمز ، وليس بالقياس ، لكنهم رووه وهم ثقاتٌ ، فوجب قبوله . وشذ هـذا الهمز كما شذ فى منابر جمع منارة وأصلها منورة ، وفى مصائب جمع مصيبة وأصلها مصوبة ، وكان القياس مناور ومصاوب . وقد قالوا مصاوب على الأصل ، كما قالوا فى جمع مقامة مقاوم ومعونة معاون .

وقال الزجاج : جميع نحاة البصرة تزعم أن همزها خطأ ولا أعلم لها وجهاً إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ، ولا ينبغى التعويل على هذه القراءة .

وقال المازنى : أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ، ولم يكن يدرى ما العربية . وكلام العرب التصحيحُ فى نحو هذا .

---

(١) البحر المحيط ٤ : ٢٧١ .

ولسنا متعبدين بأقوال نحاة البصرة . وقال الفراء : ربما همزت العرب هذا وشبهه يتوهمون أنها فعيلة ، فيشبهون مفعلة بفعيلة .

فهذا نقل من الفراء عن العرب أنهم ربما يهمزون هذا وشبهه . وجاء به نقل القراء الثقات : ابن عامر وهو من كبار قراء التابعين . وزيد بن على وهو من الفصاحة والعلم بمكان . ونافع وهو قد قرأ على سبعين من التابعين ، وهم من الفصاحة والضبط والثقة بالمحل الذى لا يجهل ، فوجب قبول ما نقلوه إلينا . ولا مبالاة بمخالفة نحاة البصرة فى مثل هذا .

وأما قول المازنى أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ، فليس بصحيح ، لأنها نقلت عن ابن عامر ، وعن الأعرج ، وزيد بن على ، والأعمش .

وأما قوله : إن نافعاً لم يكن يدرى ما العربية ؛ فشهادة على النفى ، ولو فرضنا أنه لا يدرى ما العربية وهى هذه الصناعة التى يتوصل بها التكلم بلسان العرب فهو لا يلزمه ذلك ، إذ هو فصيح متكلم بالعربية ، ناقل للقراءة عن العرب الفصحاء ، وكثير من هؤلاء النحاة يسيئون الظن بالقُرّاء ولا يجوز لهم ذلك » .

وفى تهذيب التهذيب(١) فى ترجمة حمزة :

أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات القارئ الكوفى التيمى مولاهم . روى عن أبى إسحاق السبيعى وأبى إسحاق الشيبانى والأعمش وعدى بن ثابت وغيرهم ، وعنه ابن المبارك وعبد الله بن صالح العجلى وسليم بن عيسى .

---

(١) تهذيب التهذيب ٣ : ٢٧ — ٢٨ .

«كان يزيد بن هارون يكره قراءة حمزة كراهية شديدة .

« وكان ابن مهدى يقول : لو كان لى سلطان على من يقرأ قراءة حمزة ، لأوجعت ظهره وبطنه . وكان أخى يكره أن يصلى خلف من يقرأ بقراءة حمزة . وقال أبو بكر ابن عباس : قراءة حمزة عندنا بدعة .

ويكفى حمزة شهادة الثورى له ، فإنه قال : ما قرأ حمزة حرفاً إلا بأثر » .

ولعل هذا هو أول عناية باللغة العربية دفعتهم إليها العناية بالقرآن ولو طبع كل ما كتب عن القرآن من مؤلفات لكانت لدينا مكتبة ضخمة تعد بالآلاف .

بل السُّنة نفسها فرع من القرآن ، جاءت له شارحاً ومفسراً ومفصلا ، فإذا أضيف ماألف فيها وضم إلى مكتبة القرآن كانت لدينا مكتبة من أعظم المكتبات .

ولم تعن حكومة إسلامية منذ عرفت المكتبات حتى الآن بفكرة كهذه مما يدل على الإهمال ، فهل الحكومات الحاضرة تعنى بمكتبة القرآن والسنة فى هذه الأيام التى سهل فيها إنشاء المكتبات وطبع الكتب ؟

وعنى أئمة اللغة باللغة ، لا من حيث أنها لغة ، بل عنوا بها ليجعلوها وسيلة لفهم القرآن .

ومن الأسباب التى دعت إلى تأليف كتب اللغة والمعجمات كثرة الأمم ذات الألسنة غير العربية التى دخلت فى الإسلام واتخذت العربية لغتها

وخشى العلماء أن يدخل فى لغة القرآن ما ليس من كلام العرب ، فأقاموا من أنفسهم حُرَّاساً على العربية يحفظونها و يبعدون عنها الدخيل .

هذه من الأسباب التى حملت العلماء على العناية باللغة ، وعندما اتجهوا إلى التأليف اللغوى قصدوا إلى أخذ الصحيح وتحرِّيه و بالغوا فى الحيطة والحذر ، وقصدوا — أيضاً — إلى حشد كل ما وصل إلى علمهم من مفردات اللغة مما كان صحيحاً لا غبار عليه ، مع تسهيل الطريق لمن يحب أن يهتدى إلى الكلمة التى يريدها .

طليعة المعجم العربى

وطليعة المعجم العربى جاءت مع الإسلام ، وأول من حمل رايتها عبد الله بن عباس ، فقد كان يؤدى ما تؤديه المعجمات للسائلين .

سأله نافع بن الأزرق ونجدة بن عويمر مسائل كثيرة فى التفسير ، واشترطا عليه أن يؤيد كل كلمة بشاهد من كلام العرب ، فكان ابن عباس عند شرطهما[1] .

وصنيع ابن عباس صنيع معجمى ، فهو قد وقف على لغات العرب وأسرارها ودلالات مفرداتها ومعرفة غريبها ونوادرها ، وعلى أشْعَار العرب وخطبهم وأمثالهم ، وأعانه علمه الواسع بالعربية أن يفسر لسائليه كلمات اللغة تفسيراً لغوياً دقيقاً .

وكان بعض الصحابة يصنعون صنيع ابن عباس فى حدود ضيقة .

---

(١) الإتقان للسيوطى .

وينسب إلى ابن عباس كتاب « غريب القرآن » ومنه نسخة ببرلين قبل الحرب الثانية[١] ، وأظن أن الكتاب ليس لابن عباس ، فكتّاب ترجمته لم يشيروا إلى أن له كتاباً فى غريب القرآن ، إلا أن من الثابت أن ابن عباس كان أحد الراسخين فى العلم وكان مفسراً لغوياً عليما بأسرار اللغة واقفاً على مفرداتها ومعانى هذه المفردات ، فلعل هذا الكتاب مروى عنه من طريق من أخذوا العلم منه ، ودوّنه أحدهم ، ونُسِب إلى ابن عباس .

وفى التفسير الأكبر المنسوب لابن عباس — رواية ابن أبى طلحة وابن الكلبى — شرح لمفردات القرآن مع تفسير آياته البينات ، منه نسخة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله الحسينى بالمدينة المنورة ، وقد اطلعت عليها فألفيت صنيع ابن عباس فيه صنيعاً معجمياً .

ومما لا شك فيه أن ابن عباس وضع نواة « المعجم العربى » سواء أصح أن غريب القرآن والتفسير الأكبر من تأليفه أم من تأليف من رووا عنه أو أخذوا منه .

وهناك آخر يعد ممن اختطوا طريق التأليف اللغوى وكان من طلائع وضَعة المعجم العربى ، ولعله سار على نهج ابن عباس ، أو سار على نهجه حقاً ، ذلك هو أبان بن تغلب بن رباح الجريرى ؛ أبو سعيد البكرى ؛ مولى بنى جرير بن عباد ، وكنيته أبو أميمة ، وتوفى سنة ١٤١ هـ ، وكان قارئاً فقيهاً لغوياً إماماً ثقة عظيم المنزلة ، روى عن على بن على بن الحسين وأبى جعفر وأبى عبد الله عليهم السلام ، وسمع من العرب ، وألف « غريب القرآن » وذكر شواهده من الشعر[٢] .

---

(١) بروكلمان ١ : ٧٣١ .

(٢) ياقوت ١ : ١٠٨ ، البغية ١٧٦ — ١٧٧ ، كشف الظنون ٢ : ١٠٧ ، فهرس كتب الشيعة للطوسى ٦ : ٤ .

وإذا كان ابن عباس ثم أبان بن تغلب وضعا « نواة » المعجم العربى والتأليف اللغوى وكانا من الفاتحين الرواد ، فإنّ الخليل بن أحمد الفراهيدى يعد بحق أول من صنف « معجما » جديراً بهذا الاسم ، لأنه جمع ألفاظ اللغة وشرح معانيها ورتبها ترتيباً علمياً .

وإذا كان الخليل مسبوقاً من بعض الأمم فى هذا السبيل فإن من الحق أن نذكر أنه لم يكن مقلداً أحداً أو ناهجاً على طريق سابق ، بل كان مبتكراً ومخترعاً فى الفكرة والمنهج والترتيب ، ومعجمه معجم حق ، أما المعاجم التى عرفت فى اليونان والصين وعند الأشوريين فتعد معاجم خاصة لا عامة ، وما كان شبه عام لا يصل إلى مرتبة كتاب الخليل ، وفوق هذا لم يقصد أحد من مؤلفى تلك المعجمات — باستثناء الصين — إلى حصر اللغة وشرح كل ما استطاع من مفرداتها كما صنع الخليل .

العرب سبقوا إلى وضع المعاجم الكاملة

ولئن كان العرب مسبوقين فى هذا السبيل فإن من المقطوع به أنهم أول من وضعوا معجمات كاملة دقيقة مستوعِبة ، وأول من وضعوا معجمات من أصحاب اللغات الحية ، وأول من اشتغلوا باللغة وعلومها وفنونها واستوعبوا كل ذلك أجمل استيعاب ، فألفوا معاجم أسماء الرجال والنساء وسموها كتب الطبقات ، وأفردوا لكل طائفة طبقة ، فهناك طبقة النحاة ، واللغويين ، وطبقة القراء ، وطبقة المحدثين ، وطبقة الأدباء ، والشعراء ، والكتّاب ، والعلماء ، والصوفية ، والخطاطين ، والحفاظ ، والبيانيين ، والصحابة ، والتابعين ، والمفسرين ، والفرَضيين ، والأطباء ، والحكماء ، والأصوليين ، والفقهاء ، والأولياء ، والرواة ، والخواص ، والمتكلمين ، والمحدثين ، والنساك ،

والنسابين ، والفرسان ، والحنفية ، والشافعية ، والحنابلة ، والمالـكية ، وغير ذلك مما يتصل بهذا اللون من المعاجم كالتى ألفت فى الـكنى والألقاب ، كما ألفوا معاجم فى أسماء البلدان[1] ، والغريب فى القرآن والحديث ، والنوادر ، والفقه ، والحديث ، واللغات ، والمعرب ، والدخيل ، والهمز ، ولغات القبائل ، والحيوان ، والنبات ، والإنسان ، ولحن العامة ولحن الخاصة ، والاشتقاق ، وطبقات الخيل ، والفحول ، والمُداخَل ، والـكتب ، ومعاجم اللغة .

واتسع نطاق التأليف اللغوى وتعددت أنواع المعجمات على مر الزمن ، وأصبح لـكل فن معجم ، بل صار للفن الواحد معجمات ، وحمل الترف العلمى بعض العلماء إلى أن يبتكروا سبلا جديدة فألّفوا فى المُداخَل ، ومعجم بقية الأشياء ، والأضداد .

ولم تُجمَع اللغة العربية دفعة واحدة ، بل مرت بمراحل ، ولم يعرف العصر الجاهلى سبيل الجمع ، ولم يُعْنَ أحد من أهله بذلك ، بل كان جمع اللغة أو العناية بها وبمفرداتها بعد الإسلام ، ولم يكن المعجم أولَ ماعُرِف من التأليف اللغوى ، بل سبقته محاولات كانت طبيعية لم تدع الحاجة إلى غيرها ، ومن هذه المراحل : ما صنعه كتاب الصحابة عند ما كانوا يتلقون من رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسير ما استغلق عليهم معناه من

---

(١) أول من ألف فيها خلف الأحمر (مات فى حدود سنة ١٨٠ هـ) واسم كتابه « جبال العرب وما قيل فيها من الشعر » ثم عمر بن مطرف من بنى عبد القيس (توفى نحو نحو سنة ١٨٦ هـ) واسم كتابه « منازل العرب وحدودها وأين كانت محلة كل قوم وإلى أين انتقلوا منها » ولابن الـكلبى (٢٠٤ هـ) بضعة كتب منها : الأنهار ، والأقاليم ، والبلدان الـكبيرة ، وأنساب البلدان .

الـكلمات الواردة فى القرآن أو فى أحاديثه ، مثل : المتفيهقين ، والسَّقَّارة ، والرويبضة ، وغيرهن من مئات الـكلمات ، وكان الصحابة يحفظونها ، وبعضهم يكتبها ؛ ويرويها .

هذه هى المرحلة الأولى فى تدوين اللغة ، وهو لم يعدُ تفسير بعض ألفاظ القرآن والحديث مما لم يفهم الصحابة ، أو تفسير بعض كلام العرب .

ثم تأتى المرحلة الثانية ـ وهى فرع من المرحلة الأولى ـ ويمثلها عبد الله بن عباس أحسن تمثيل ، فقد كان يفسر للناس غريب القرآن والحديث ؛ ويشرح معانى المفردات مصحوبة بمصادقها من كلام العرب .

ثم توسع الناس فى جمع مفردات اللغة دون ترتيب ، بل يجمعونها كما يتفق لهم ويصادفهم .

ثم تقدم العلماء فى جمع الـكلمات وتدوينها ، فـكانوا يجمعون المفردات بحسب المعانى والموضوعات ، أو ينظرون إلى الألفاظ التى تتفق فى أكثر الحروف التى تتألف منها وتتقارب فى المعنى مثل : قط وقطع . أو مثل : قدَّ وقطَّ ، وقضم وخضم ، وينظرون إلى الـكلمة التى تصلح لمعانى كثيرة مثل كلمة العين[1] .

ويدخل فى هذا الباب الـكتب التى ألفت فى موضوع واحد مثل : كتاب النبات ، وكتاب الحشرات ، وكتاب الإبل ، وكتاب اللبن ، وكتاب النخيل ، وخلق الإنسان ، وأول من ألف فى الحشرات أبو خيرة الأعرابى الذى روى عنه أبو عمرو بن العلاء[2] ، وأول من ألف فى الخيل

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين .
(٢) توفى سنة ١٥٧ هـ .

وخلق الإنسان أبو مالك عمرو بن كركرة الأعرابى صاحب النوادر وأحد شيوخ الخليل بن أحمد[١] ، ولـكل من أبى عمرو الشيبانى[٢] والأصمعى[٣] كتاب النحل والعسل ، ولابن الأعرابى[٤] كتاب الذباب ، ولأبى نصر أحمد بن حاتم[٥] كتاب الجراد ، وللنضر بن شميل[٦] كتاب خلق الفرس ، وما أكثر ما ألف فى هذا الباب .

كما يدخل فيه ما أُلِّف فى النوادر ، وأول ما أُلِّف فيها كتاب منسوب إلى أبى عمرو بن العلاء (١٥٧ هـ) ورواه أحد تلاميذه ، ومن أوائل من ألفوا فى النوادر : القاسم بن معن الـكوفى (١٧٥ هـ) ويونس بن حبيب الضبى (١٨٣ هـ) وعمرو بن كركرة ، وأبو شبل العقيلى ، وأبو زيد الأنصارى (٢١٥ هـ) .

ثم بلغ التأليف اللغوى القمة عندما صنف العلماء المعجمات التى تشمل أكبر عدد من مفردات اللغة على ترتيب خاص مصحوبة بشرح المعنى ، يرجع إليها من أراد البحث عن معنى كلمة أو حقيقتها وأصلها .

ثم فتح باب التأليف اللغوى والمعجمى أمام العلماء وتطور مع الزمن وبلغ حد الإتقان .

---

(١) توفى سنة ١٠٥ هـ .
(٢) « « ٢٠٦ هـ .
(٣) « « ٢١٥ هـ .
(٤) هو أبو عبد الله بن زياد الـكوفى توفى سنة ٢٣١ هـ .
(٥) توفى سنة ٢٣١ هـ .
(٦) « « ٢٠٤ هـ .

وسبق كل هؤلاء فيما يشبه التأليف المعجمى الرواة والنسابون ، ومن غير شك أن مَنْ وضعوا معاجم الطبقات هم خلفاء النسابين العرب الذين كانوا يحفظون طبقات الأنساب ولا يقتصرون بحفظهم على أنساب القبائل والرجال والنساء . بل يشمل طبقات الخيل والفحول والتمييز بين أقسامها ومزاياها ، وليس هذا إلا نوعا من المعجمات الشفوية سبق عليه العرب ولحق بهم أصحاب المعجمات الحديثة بنسبة ذلك الزمن .

وكان القرن الأول للهجرة بداءة التأليف اللغوى ، وفى القرن الثانى بدئ بتأليف المعجمات .

المعجم الكامل

والمعجمات العربية ـ وغير العربية ـ الخاصة بمتن اللغة ، والتى تسمى معجمات حقا ؛ يجب أن تستوعب كل كلمات اللغة التى يستطاع إلى جمعها واستيعابها سبيل ، بل يجب أن يضم المعجم كل كلمة من الكلمات البذيئة والسوادية والعامية حتى يكون معجما جامعا ؛ مع الإشارة إلى غير الفصيح ، وكان أسلافنا أكثر أمانة وفهما للمعجم إذ دوّنوا فيه ما نتحاشى نحن عن تدوينه ، فمعجم كتكملة الصغانى الذى استدرك فيه على الجوهرى ما أهمله ، استوعب فيه آلاف الكلمات المجفُوّة النابية ، ومن جملة ما استدرك ألفاظ بذيئة وأسماء أعضاء التناسل والعملية الجنسية وشواهد من الشعر على ذلك .

وكان أسلافنا ممن ألفوا المعجمات أو كتب اللغة أكثر أمانة منا للعلم ، فالمعجمات الحديثة تبتعد عن ذكر ما تظنه خدشا للحياء وباعثا على الخجل

إلا قليلا ، وهذا نقص فى معاجمنا الحديثة يجب أن نتداركه عندما نفكر فى تأليف معجم كبير[1] .

رائد المعجمات العربية

ورائد المعجمات الأولُ فى العربية : الخليل بن أحمد الفراهيدى الذى ابتكر التأليف المعجمى ، واخترع المنهج الذى اتبعه ، واخترع فى ترتيب مواده سبيلا بكرا هداه إليه اشتغاله بالموسيقى ، فكان السابقَ فى هذا المضمار دون منازع ، فهو أول من جمع اللغة فى معجم جدير بهذا الاسم .

وكان الخليل عبقريا بعيد الأفق ، عليما واسع العلم والثقافة ، وهو مبتكر علم العروض ، ومخترع علم النحو المعروف حتى اليوم ، ومخترع علم الموسيقى العربية . وجمع فيه أصناف النغم ، وهو أول من جمع اللغة ؛ وأولُ من ابتكر المعجم العربى ، وبعض العلوم الرياضية ، وما عُرِف فى عصره أذكى منه وأعلم وأعف وأزهد .

وأعانه فهمه للإيقاع والنغم على ابتكار طريقة جديدة فى « العين » ، وعلمُه بالموسيقى حمله على أن يختطَّ طريقه فى معجمه ناظرا إلى الأصوات اللغوية ومخارج الحروف ، فبدأ بحروف الحلق لأن الحلق أبعد مخارج الحروف ، وهكذا صنع سُلَّمَهُ اللغوى صاعدا فيه من أقصى الحلق حتى ينتهى إلى الشفة ، وجعل ترتيب معجمه على الحروف بحسب المخارج ، وقد كان موفقا فى منهجه ، فتمييز الحرف بالصوت أوضح من الكتابة .

---

(١) لعل المجمع اللغوى المصرى لا يغفل ذلك عندما يؤلف معجمه الكبير

كتاب العين :

منهج الخليل فى العين منهج هداه إليه اشتغاله بالموسيقى والأنغام ، وساعده كثيراً ذهنه الرياضى وعقله الكبير وعبقريته التى لم تشهد العربية لها مثيلا إلا ناردا ، ويكفى للدلالة على مواهبه الفذة أنه ابتكر قواعد علم لم يدعْ لمن بعده فيه مجالا ، بل ابتكره كاملا ؛ وذلك علم العروض ، واخترع علم النحو ، واخترع علم الموسيقى العربية ، فلا غرابة على هذا الذهن الجبار أن يكون أول مبتكر للمعجم العربى .

وهذا المنهج قائم على الصوت ، لأنه أوضح فى التمييز والدلالة على مخرج الحرف من الكتابة ، فإذا كتبنا هذه الكلمة (ىهر) دون نقط تعذر على القارئ أن يقرأه كما أراد الكاتب ، أما النطق فلا يخطئه ، وفى العربية خمسة حروف ذات صورة وَاحِدة إذا لم ننقطها ، فالباء والتاء والثاء والنون والياء فى أول الكلمة ووسطها ذات صورة واحدة .

ولعل إيثار الخليل هذا المنهج يعود إلى رغبته فى تمييز الحرف بالصوت لأنه أقوى دلالة وأكثر وضوحا وتمييزا من الكتابة ، وهذا تفسير قريب من قريب ، فالموسيقى صوت ، والخليل مبتكر هذا العلم فى تاريخ العرب ، فإذا بنى معجمه عليه فلا غرابة ولا اتهام أنه اقتبس طريقة سُبِقَ إليها .

وصنع سلمه اللغوى ، واختار أن يصعد فيه من أسفله لا أن يهبط من أعلاه ، ورتب معجمه على الحروف بحسب مخارجها ، فبدأ بحروف الحلق ، لأنه أبعد مخارجها ، ويبدأ بالصعود تدريجا حتى تنتهى إلى الشفة وجعل ترتيب الحروف هكذا : ع ، ح ، ه ، غ ، خ ، ق ، ك ، ج ، ش ،

ض ، ص ، س ، ز ، ط ، ت ، د ، ظ ، ذ ، ث ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، و ، ى ، ا .

وسمى كل حرف كتابا ، وافتتح معجمه بحرف « العين » وسماه كتاب العين ، فكتاب الحاء ، فكتاب الهاء ، فكتاب الغين ، فكتاب الخاء وهكذا ؛ وأطلق اسم كتابه الأول وهو « كتاب العين » على المعجم كله لاستهلاله به .

وتتبع الخليل أبنية كلام العرب تتبعاً علمياً دقيقاً ، وحصرها بين الثنائى والخماسى ، وفصل الألفاظ المعتلة جاعلا الهمزة من حروف العلة ، مُفرداً لها باباً بعد أبواب الثلاثى ؛ ذكر فيه الثنائى المضاعف المعتل والثلاثى المعتل بحرف ، والثلاثى اللفيف ، وفرّق الأبنية على كل باب ، مبتدئاً بالثنائى المضاعف ، فالمضاعف الثلاثى الصحيح ، فالمضاعف الثلاثى اللفيف ، فالرباعى والخماسى ، وجعل الأخيرين فى باب واحد لقلة الألفاظ التى وردت منهما ، وأشار للمستعمل والمهمل فى أبنية الثنائى والثلاثى ، أما الرباعى والخماسى فأغفل الإشارة إلى المهمل منهما ؛ لأنه فوق الحصر .

وابتكر بعد هذا كله نظاما آخر اتبعه بعض العلماء ممن جاء بعده وألفوا معجمات لغوية ، وهذا النظام يقوم على ذكر الكلمة وقلبها إلى كل وجه بحيث يتألف من مقلوباتها كلمات ، ويذكرها جميعاً فى موضع واحد ، فكلمة « الضرم » ذكرها فى حرف الضاد ، وقلبها حتى تولدت منها هذه الكلمات : ضمر ، مرض ، مضر ، رضم ، رمض ، فإذا لم يستعمل العرب شيئاً من هذه الاستعمالات أشار إليه ، وإذا جاء إلى كتاب الراء والميم أغفل ذكر الرضم والرمض والمضر والمرض لأنه ذكرها فى كتاب الضاد .

وزاد على هذا أنه يذكر كل نوع من الصحيح والمضاعف والمهموز والمعتل على حدة لِيمِيزَ كل نوع من غيره[١] .

ولمنهج الخليل موقع عند من يرى أن الكلمات المشتركة في الحروف — وإن اختلفت في الترتيب — تشترك في المعنى أو المصدر الذي تتفرع منه ، وهذا يدل على أن الخليل عُنِيَ بالتفسير الاشتقاقي للمواد التي يتناولها ، ولم يقف عند شرح المادة ومقلوباتها وفروعها على طريق الاشتقاق الأكبر ، بل كان يذكر في كل أصل ما تفرع عنه على طريق الاشتقاق الكبير[١] ، ويعد الخليل أسبق من ابن فارس وابن جني إلى فهم الاشتقاق الكبير ، وهو دلالة الحروف في كلمة من الكلمات — على اختلاف ترتيبها وتركيبها — على أصل معنوي واحد[٢] .

ومنهج الخليل ليس سهلا ميسور الاتباع ، بل فيه عيوب ؛ وصواه لا تهدى ، بل لا صوى تأخذ بيد الباحث ، وتوصله لمقصده ، لصعوبة ترتيبه ، وخلطه بين الثلاثي المضاعف والرباعي المضاعف ، واختلاط الأصل بغيره ، لذكره الكلمة وما ينشأ عنها بالقلب ، مثل : حرب ، وحبر ، وبحر ، وبرح ، ورحب ، وربح ، ومن الصعب أن يعرف أيها الأصل وأيها المطلوب[٣] .

وليس هذا كل ما في منهج الخليل من هنات ؛ بل ثَمَّ هنات أخذها عليه العلماء ، لا تتصل بالمنهج وأصوله وقواعده ، بل تتصل ببعض المواد

(١) خطبة الكافي ٢٥ .
(٢) فقه اللغة لوافي ٢٧٨ .
(٣) ضحى الإسلام ، لأحمد أمين .

التى جاءت فى كتابه ، مثل : تفرده بذكر كلمات كثيرة لم يُسْمَع ببعضها .

وفى « العين » هنات أخرى ؛ منها : إهماله أبنية مستعملة ، وعدم استيفائه الصيغ الواردة فى كلام العرب ، ووجود أخطاء صرفية ، وتصحيف ، وتحريف .

وقد أشار ابن منظور فى مقدمة اللسان إلى ما يشبه طريقة الخليل فى معرض النقد فقال : « كأنَّ واضعه شرع للناس مورداً عذباً وحلأهم عنه ، وارتاد لهم مرتعاً مريعاً ومنعهم منه ، قد أخّر وقدّم ، وقصد أن يعرب فأعجم ، فرق الذهن بين الثنائى المضاعف والمقلوب وبدّد الفكرة باللفيف والمعتل ، والرباعىّ والخماسىّ ، فضاع المطلوب[١] » .

وعزا ابن منظور انصراف الناس عن التهذيب والمحكم وإهمالهم أمرهما وعدم الإقبال عليهما ، حتى كادت البلاد تخلو منهما ، إلى سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب .

الخليل مبتكر لا مقلد

زعم بعض النـاس أن الخليل كان يعرف غير العربية ، كان يعرف اليونانية ، ولعلهم أرادوا من هذا الزعم أن يشيروا إلى أن معرفته باليونانية هدته إلى ابتكار منهجه فى العين ، واستدلوا بصلة حنين بن إسحاق المشهور فى الطب بالخليل ، فقد جاء فى عيون الأنباء[٢] ترجمة حنين : « وكان شيخه فى العربية الخليل بن أحمد ، ، ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد » وفيه أيضاً[٣]:

---

(١) مقدمة لسان العرب .

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١ : ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) » » » » » ١ : ١٨٩ .

« أن حنين بن إسحاق كان يشتغل فى العربية مع سيبويه وغيره ممن كانوا يشتغلون على الخليل » وهذا يدل على أن حنيناً لزم الخليل وأخذ عنه العربية حتى برع فيها ، وأدخل كتاب العين بغداد ، وحنين كان يعرف اليونانية ، وترجم منها كتباً ورسائل كثيرة لجالينوس وأبقراط ، وترجم بعض قصص اليونان ، والخليل معروف بالذكاء العبقرى النادر ، ولا بد أن تثمر هذه الصلة بينهما أن يعرف الخليل اليونانية[1] .

إلا أن هذا القول وهم ، فالخليل توفى سنة ١٧٥ هـ وولد حنين سنة ١٩٤ هـ أى بعد الخليل بأكثر من خمس عشرة سنة ، هذا على قول من قال : إن الخليل توفى سنة ١٧٥ هـ مع أن هناك من يقول : إنه توفى سنة ١٧٠ هـ .

وهذا لا يدع مجالا للشك فى أن الخليل لم يتصل بحنين ، وبانتفاء هذه الصلة ينتفى أخذ الخليل اليونانية منه .

ولم يرد هذا الزعم إلا عن ابن أبى أصيبعة عن سليمان بن حسّان .

وإذا افترضنا أن الخليل كان يعرف اليونانية فلا مجال لأن يزعم زاعم أن طريقته فى العين تشبه طريقة مؤلفى المعاجم اليونانية ، فلم يؤثر عن اليونان أن مؤلفاً صنف معجما جعل ترتيبه على الحروف بحسب مخارجها مبتدئاً من أقصى الحلق منتهياً بأحرف الشفة .

ونخلص من هذا إلى أن الخليل لم يقتبس منهجه من اليونان .

وهناك قول آخر : أن الخليـل اتبع فى ترتيب معجمه طريقة الهند

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ١ : ١٩٨ .

فى ترتيب حروف هجائها[1] ، فاللغة السنسكريتية ترتب حروف هجائها على حسب مخارجها مبتدئة بأبعد الحروف مخرجاً ومنتهية بأحرف الشفة ، وهى آخر درجة فى السلم الصوتى للحروف .

وكانت الصلة بين الهند وجزيرة العرب قديمة ، وقويت بعد الإسلام كثيراً ؛ وكان فى الخليج الفارسى عدد كبير منهم ، وكان « المحاسبون » لتجار العراق فى البصرة وبغداد من السند ، وفيهم علماء ومثقفون ، وكانوا على صلة بأهل العلم من العرب .

ولعل هذا الرأى أقرب إلى التصديق من سابقه ، ولكننا لا نميل إليه ، فوجود طريقة لمؤلف فى لغة من اللغات لا يمنع أن يصل مؤلف آخر إليها باجتهاده وجهده ، ولا يكفى أن نقول : إن الخليل اتبع طريقة الهند فى الترتيب لمجرد وجود هذا الترتيب فى لغة لم يذكر أحد أن الخليل كان يعرفها ، وليس من السهل نقل ترتيب بحذافيره من لغة إلى لغة ، لاختلاف النطق بالحروف بين الأمم واللغات والأجناس ، بل إن ترتيب حروف الهجاء فى السنسكريتية ليس — هو — ترتيب الخليل عينه .

وفوق هذا لم يكن للهند فى ذلك الزمن معجم معروف[2] .

وطريقة الخليل تتفق مع علمه الواسع الدقيق بالموسيقى ، فهى تقوم على أساس الصوت ، وعلى ما يشبه السلم الموسيقى ، فهو اعتمد على مخارج الحروف عند ما يُنطَق بها ، ونظر إلى الأوتار الصوتية والأصوات اللغوية ،

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة خليل .

(٢) Al khalil & the Evalution of Arabic Lexicography تأليف الدكتور عبد الله درويش .

فصنع سلمه صاعداً عليه من أسفل حتى ينتهى إلى أعلاه ، مبتدئاً بأقصى الحلق ، متدرجاً فى الصعود حتى يصل إلى الشفة .

وإذا صح قول من قالوا : إن الخليل اتبع طريقة الهند فى ترتيب معجمه فإنهم ينسون أن الخليل كان مختاراً فيما يؤثره من الطرق المختلفة لترتيب الحروف الأبجدية ، فاختار ما وافق علمه الموسيقى ، ولم يجبره على ذلك سلطان نافذ حتى يبطل فضله فى الموازنة بين الطرق وإيثار ما هو أوفق منها لرأيه وأسبابه العلمية ، ويجب — بعد هذا — ألا ننسى الفارق الكبير بين القول بترتيب الحروف الأبجدية على طريقة الهند — إن صح — والقول باقتباس المعجمات منهم .

وفى وسعنا أن نقول : إن الخليل مبتكر فى معجمه المنهج والطريقة والترتيب حتى يثبت ثبوتاً علمياً أنه مقلد لا مبتكر ؛ ومتبع لا مخترع .

نسبة كتاب العين

اختلف العلماء فى حقيقة كتاب العين ، أهو للخليل أم لغيره ؟ وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، فمنهم من أنكر النسبة ومنهم من أيدها ، ومنهم من وقف موقفاً وسطا . والذين أنكروا النسبة كثير ؛ منهم : النضر ابن شميل ، وأبو حاتم ، والأزهرى ، وابن فارس ، وابن جنى ، والقالى ، وابن النديم ، وأبو الطيب اللغوى ، والفخر الرازى ، والنووى ، وأقوالهم متقاربة ذات دلالة واحدة لا تشير إلى غير الإنكار ، فابن النديم يقول : « لم يرو هذا الكتاب عن الخليل أحد ، ولا روى فى شىء من الأخبار أنه عمل هذا البتة[1] » .

---

(١) الفهرست ٤٦ طبعة مصر .

وقال أبو عبد الله فخر الدين الرازى محمد بن عمر بن الحسين بن على التيمى المعروف بابن الخطيب الرازى : « أصل الكتب المصنفة فى اللغة كتاب العين وقد أطبق الجمهور من رجال اللغة على الطعن فيه[1] » .

وقال أبو على القالى[2] : « لما ورد كتاب العين من بلد خراسان فى زمن أبى حاتم ؛ أنكره أبو حاتم وأصحابه أشد الإنكار ، ودفعه بأبلغ الدفع ، وقد غبر أصحاب الخليل بعد مدة طويلة لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون به ، منهم : النضر بن شميل ، ومؤرج ، ونصر بن على ، وأبو الحسن الأخفش وأمثالهم . ولو أن الخليل ألف الكتاب لحمله هؤلاء عنه ، وكانوا أولى بذلك من مجهول الحال غير مشهور فى العلم تفرد به وتوحد بالنقل له ، ثم درج أصحاب الخليل فتوفى النضر بن شميل سنة ثلاث ومائتين ، والأخفش سنة خمس عشرة ومائتين ، ومؤرج سنة خمس وتسعين ومائة ، ومضت — بعدُ — مدةٌ طويلة ثم ظهر الكتاب بأَخَرَة فى زمان أبى حاتم وفى حال رياسته ، وذلك فيما قارب الخمسين والمائتين ، لأن أبا حاتم توفى سنة خمس وخمسين ومائتين ، فلم يلتفت أحد من العلماء إليه يومئذ ، ولا استجازوا رواية حرف منه ، ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الأصمعى واليزيدى وابن الأعرابى وأشباههم إلى تزيين كتبهم ، وتحلية علمهم بالحكاية عن الخليل والنقل لعامه ، وكذلك من بعدهم كأبى حاتم وأبى عبيد ويعقوب وغيرهم من المصنفين ،

---

(١) المحصول فى علم الأصول ؛ مخطوطة الدار فى مجلدين مخطوطين رقم ١٣٠ .

(٢) نفى الدكتور عبد الله درويش فى كتابه (الخليل والمعاجم العربية) نسبة هذا الرأى إلى القالى ، لأن القالى نقل فى كتابه (البارع) عن كتاب العين للخليل صراحة ، ولأن القالى عند ما ذهب إلى الأندلس وألف كتابه (البارع) أخبر الخليفة حينذاك أن كتابه البارع يزيد على كتاب العين بخمسة آلاف كلمة .

فما علمنا أحداً منهم نقل فى كتابه عن الخليل من اللغة حرفا » .

والمعتدلون من المنكرين كالأزهرى وأبى الطيب اللغوى — الذى اختصر العين — وثعلب وإسحاق بن راهويه طعنوا فى العين تنزيهاً للخليل ورَبَأً به من خطإ لا يجوز على تلامذته .

فالأزهرى يقول فى مقدمة التهذيب عن أقوام يصفهم بقوله : « تسموا بسمة المعرفة وعلم اللغة وألفوا كتباً أودعوها الصحيح والسقيم ، وحشوها بالمزال المفسد ، والمصحَّف المغير الذى لا يتميز ما يصح منه مما لا يصح ، إلا عند الثقات » وذكر من هؤلاء : « الليث بن المظفر الذى نحل الخليل ابن أحمد تأليف كتاب العين جملة لينفِّقه باسمه ، ويرغِّب فيه من حوله[(١)] » .

وعن ابن راهويه : « كان الليث صاحب الخليل بن أحمد رجلا صالحاً وكان الخليل عمل من كتاب العين باب العين وحده ، وأحبَّ الليث أن ينفِّق سوق الخليل فصنَّف باقى الكتاب وسمى نفسه الخليل ، وقال لى مرة أخرى : فسمى لسانه الخليل من حبه للخليل بن أحمد ، فهو إذا قال فى الكتاب : قال الخليل بن أحمد ، فهو الخليل ، وإذا قال : وقال الخليل مطلقاً فهو يحكى عن نفسه ، فكل ما فى الكتاب من خلل فإنه منه لا من الخليل[(٢)] » .

وقال السيرافى : « عمل أول كتاب العين المعروف المشهور الذى به يتهيأ ضبط اللغة[(٣)] » .

---

(١) مقدمة تهذيب اللغة للأزهرى مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة .
(٢) المزهر ١ : ٧٨ .
(٣) المزهر ١ : ٧٦ .

وقال ابن المعتز : « كان الخليل منقطعاً إلى الليث ، فلما صنف كتابه العين خصَّه به ، وحظى عنده جداً ، ووقع منه موقعاً عظيما ، ووهب له مائة ألف درهم ، وأقبل على حفظه وملازمته ، فحفظ منه النصف ، وكانت تحته ابنة عمه ، واتفق أنه اشترى جارية نفيسة فغارت ابنة عمه فأحرقت الكتاب ، فلما علم اشتد أسفه ، ولم تكن عنده نسخة منه ، وكان الخليل قد مات فأملى النصف من حفظه ، وجمع علماء عصره وأمرهم أن يكملوه على نمطه ، وقال لهم : مثِّلوا عليه واجتهدوا ، فعملوا هذا التصنيف الذى بأيدى الناس[1] » .

وقال ثعلب : « إنما وقع الغلط فى كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه ، ولو كان هو حشاه ما بقى فيه شىء ، لأن الخليل رجل لم يُر مثله ، وقد حشا الكتاب أيضاً قوم علماء إلا أنه لم يؤخذ منهم رواية ، وإنما وجد بنقل الوراقين ، فاختلّ الكتاب[2] » .

وقال أبو بكر محمد بن حسن الزبيدى اللغوى مؤلف مختصر العين فى أول كتابه : « ونحن نربأ بالخليل عن نسبة هذا الخلل إليه ، أو التعرض المقاومة له والرد عليه ، بل نقول : إن الكتاب لا يصح له ، ولا يثبت عنه فقد كان جِلّة البصريين الذين أخذوا عن أصحابه وحملوا علمه من رواته ينكرون هذا الكتاب ويدفعونه ، إذ لم يرد إلا عن رجل واحد غير مغدود فى أصحابه ، وأكبر الظن فيه أن الخليل سبَّب أصله ، ورام تثقيف كلام

---

(١) معجم الأدباء ١٧ : ٤٦ .

(٢) المزهر ١ : ٧٨ .

العرب ، ثم هلك قبل كماله ، فتعاطى إتمامه من لا يقوم فى ذلك مقامه ، فكان ذلك الخلل الواقع به ، والخطأ الموجود فيه[1] » .

« ومن الدليل على ما ذكره أبو العباس[2] من زيادات الناس فيه اختلاف نسخه ، واضطراب رواياته ، إلى ما وقع فيه من الحكايات عن المتأخرين ، والاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين ؛ فهذا كتاب منذر ابن سعيد القاضى الذى كتبه بالقيروان ، وقابله بمصر بكتاب ابن ولاد ، وكتاب ابن ثابت المنتسخ بمكة قد طالعناها ، فألفينا فى كثير من أبوابهما : أخبرنا المسعرى عن أبى عبيد ، وفى بعضها : قال ابن الأعرابى ، وقال الأصمعى ، هل يجوز أن يكون الخليل يروى عن الأصمعى وابن الأعرابى وأبى عبيد فضلا عن المسعرى » .

« وكيف يروى الخليل عن أبى عبيد وقد توفى الخليل سنة سبعين ومائة ؛ وفى بعض الروايات سنة خمس وسبعين ومائة ، وأبو عبيد يومئذ ابن ست عشرة سنة ، وعلى الرواية الأخرى : ابن إحْدى وعشرين سنة ، لأن مولد أبى عبيد سنة أربع وخمسين ومائة ، ووفاته سنة أربع وعشرين ومائتين ، ولا يجوز أن يُسْمَع عن المسعرى علمُ أبى عبيد إلا بعد موته ، وكذلك كان سماع الخشنى منه سنة سبع وأربعين ومائتين ، فكيف يسمع الموتى حال موتهم ؛ أو ينقلون عمَّنْ ولد بعدهم[3] » .

ويقول الزبيدى أيضاً : « ومن الدليل على صحة ما ذكرناه أن جميع

---

(١) خطبة المختصر مخطوطة الدار رقم ٣٨٦ لغة .
(٢) يقصد ثعلباً فى قوله الذى مر الاستشهاد به .
(٣) المزهر ١ : ٨٣ — ٨٤ .

ما وقع فيه من معانى النحو إنما هو على مذهب الـكوفيين ، وبخلاف مذهب البصريين ، فمن ذلك ما بدئ الـكتاب به ، وبُنى عليه من ذكر مخارج الحروف فى تقديمها وتأخيرها ، وهو على خلاف ما ذكره سيبويه عن الخليل فى كتابه ، وسيبويه حامل علم الخليل ، وأوثق الناس فى الحـكاية عنه ، ولم يكن ليختلف قوله ، ولا ليتناقض مذهبه ، ولسنا نريد تقديم حرف — خاصة — للوجه الذى اعتل به ، ولـكن تقديم غير ذلك من الحروف وتأخيرها ، وكذلك ما مضى عليه الـكتاب كله من إدخال الرباعى المضاعف فى باب الثلاثى المضاعف — وهو مذهب الـكوفيين خاصة — وعلى ذلك استمر الـكتاب من أوله إلى آخره .

ولو أن الـكتاب للخليل لما أعجزه ولا أشكل عليه تثقيف الثنائى الخفيف من الصحيح والمعتل ، والثنائى المضاعف من المعتل ، والثلاثى المعتل بعلتين ، ولما جعل ذلك كله فى باب سماه اللفيف ، فأدخل بعضه فى بعض ، وخلط فيه خلطا لا ينفصل منه شىء عما هو بخلافه ، ولوَضع الثلاثى المعتل على أقسامه الثلاثة ليستبين معتل الياء من معتل الواو والهمزة ، ولما خلط الرباعى والخماسى من أولهما إلى آخرهما .

ونحن على قدرنا قد هذبنا جميع ذلك فى كتابنا المختصر منه ، وجعلنا لـكل شىء منه باباً يحصره ، وعدداً يجمعه ، وكان الخليل أولى بذلك وأجدر ، ولم نحك فيـه عن الخليل حرفاً ، ولا نسبنا ما وقع فى الـكتاب عنه توخياً للحق ؛ وقصداً إلى الصدق ، وأنا ذاكر الآن من الخطإ الواقع فى كتاب العين ما لا يذهب على من شدا شيئاً من النحو ، أو طالع باباً من الاشتقاق والتصريف ، ليقوم لنا العُذْر فيما نزّهنا الخليل عنه » .

لقد أطلنا فى ذكر الشواهد ، ووقفنا طويلا عند أقوال الزبيدى لنخلص من كل ذلك إلى إعطاء صورة دقيقة صادقة لأدلة المنكرين الغلاة والمنكرين المعتدلين .

فابن النديم يذكر بوضوح أن العين ليس للخليل ، والقالى يذكر أن أبا حاتم وأصحابه أنكروا العين ولا يعرفونه ولم يسمعوا به .

فأول الأدلة على إنكار نسبة العين إلى الخليل : القول جملة بالإنكار ، إلا أن الزبيدى أضاف — كما ذكر غيره — أدلة جديدة ذات قيمة فى نظر النقد والعلم ، فالخليل بصرى ، وسيبويه — حامل علم — الخليل شيخ نحاة البصرة وإمام مدرسة البصريين ، وما فى العين مما يتصل بالنحو على مذهب الكوفيين ؛ فكيف يتفق للخليل — وهو شيخ إمام مدرسة البصرة — أن يترك مذهبه إلى مذهب آخر يختلف عنه .

إن هذا الدليل من أقوى الأدلة ، فإذا اعتمدنا عليه فى نفى نسبة العين إلى الخليل كان هو نفسه قائما فى نفى نسبة العين إلى الليث بن المظفر ، لأنه ظل للخليل وتابع له فى آرائه ومذهبه .

ثم من الأدلة : أن فى العين أوهاماً وسقطات شنيعة وغلطات معيبة لا تصدر من طلبة الخليل ، وهذا ما حمل العلماء على الشك فى نسبته إليه ، ومن الأدلة القوية : أن فى العين روايات عن متأخرين ولدوا بعد الخليل بكثير .

ثم من الأدلة : أن العين لم يظهر إلا بعد موت الخليل بحوالى ستين سنة ، فلو كان له لكان فى أيدى الناس ، ولعلم به العلماء ، ولَلَهج به

تلامذة الخليل ، ولروى عنه الأصمعى وابن السكيت وغيرهما ، أما وأن هذا لم يحدث ، فالعين ليس للخليل .

هذه أدلة المنكرين ، أما المعتدلون من المنكرين ، فيرون أن الخليل عمل من معجمه كتاب العين وسار على نهجه تلميذه الليث بن المظفر وأكمله ، ويرى بعضهم أن الخليل عمل نصف الكتاب فأكمل الليث نصفه الباقى ، وبعضهم يرى أن الخليل عمله كله ، وحفظ الليث نصفه ، فلما أحرِقَت النسخة أملى الليث نصفه المحفوظ ، وطلب إلى العلماء أن يكملوا النصف غير المحفوظ .

ونحن نسأل : إذا كان الليث صنف العين ، فلماذا لم ينسبه إلى نفسه رغبة فى الفخار والسمعة ؟ لماذا ينزل عنه للخليل ؟ ويجعل غيره مبتكر علم ومخترع فن ؛ ويرضى أن يكون تابعاً وتلميذا ؟

أما أن الكتاب لم يعلم عنه تلاميذ الخليل فينقضه أن للنضر بن شميل[١] كتاباً اسمه « المدخل إلى كتاب العين[٢] » والنضر من أخلص طلبة الخليل ؛ فإذا صح أنه منكر العين ، فكيف يؤلف كتاباً حوله ، وللمفضل بن سلمة ردود على العين واستدراك ، وتوفى المفضل سنة ٢٥٠ هـ ، وكان المبرد يرفع من قدر كتاب العين ، ورواه ابن درستويه ، وألف كتاباً فى الرد على المفضل بن سلمة مؤلف كتاب « استدراك على العين » ولا توجد لأبى إسحاق

---

(١) توفى سنة ٢٠٣ هـ

(٢) البغية ٤٠٥ .

الزجاجى حكاية فى اللغة إلا منـه ، وأبو على القالى البغدادى أتى فى كتابه « البارع » بما فى العين وزاد عليه .

وإنـكار نسبة العين إلى الخليل ليس صحيحاً ، فهو له حقاً ، وإن كان الإجماع لم ينعقد على أنه له ، أما أدلة المنـكرين القائمة على أن فى العين من الخطأ والتصحيف ما لا يتفق مع علم الخليل ، وعلى أن فى كتابه روايات عن متأخرين عنه ، وعلى أن مذهب العين يخالف مذهب الخليل ، لأن ما يتصل بالنـحو على مذهب الـكوفيين ، والخليـل بصرى ورائد مدرسة البصرة فى النـحو ، وأن الـكتاب لم يظهر إلا فى سـنة ٢٥٠ أو حواليها ، فإن بعض هذه الأدلة منقوض ، فالخطأ والتصحيف والرواية عن المتأخرين من النسَّاخ ، والذى يدل على أن الـكتاب ظهر قبل سنة ٢٥٠ هـ أن النضر بن شميل تلميذ الخليل ألف كتاباً سماه « المدخل إلى كتاب العين » .

ومن ناحية التعليقات لا أستبعد أنها دخلت فى صلب العين جهلا من الناسخين فحسبت منه وهى خارجة عنه ، وكذلك القول فى الرواية عن المتـأخرين .

ولعل اختلاف النسخ بعضها عن بعض يقيم الدليل على هذا .

أما ما روى من مسائل النحو على مذهب الـكوفيين فلعله راجع إلى ما كان من خصومة بين الـكوفيين والبصريين مما حمل بعض الـكوفيين على التغيير فى العين ليـكون حجة لهم على البصريين عندما يستدلون على تأييد آرائهم بقول رائد مدرسة البصرة الأول الخليل بن أحمد .

كل هذا جائز .

وموجز القول : أن العين للخليل ، وأنا مطمئن إلى ذلك كل الاطمئنان ، ويجوز أنه ألفه ولم يستطع إتمامه : فأتمه غيره ، ويجوز أن يكون أتمه كله فأضاف إليه الناسخون ما وجدوا من تعليقات وروايات عن متأخرين أدخلوها على متن الكتاب جهلا منهم ، وقد أثبت الدكتور عبد الله درويش — فى رسالته التى ألفها عن كتاب العين والتى قدمها لجامعة لندن ونال بها إجازة الدكتوراه — أن العين للخليل .

رُوّاد المعجمات العربيّة

ما كاد الخليل ينتهى من تأليف العين حتى انبرى أئمة اللغة والمشتغلون بها من العلماء يؤلفون المعجمات الخاصة والعامة ؛ والمطولة والمختصرة ، ورأينا منذ عصر الخليل حتى أواخر المائة الرابعة للهجرة نشاطا فى ميدان التأليف اللغوى والتأليف المعجمى وضع قواعد المعجم العربى ومناهجه .

وبعض مؤلفى المعاجم سبقوا الجوهرى وبعضهم عاصره ، ولكن الصحاح تفرد بخصائص وسمات سنذكرها فى موضعها من هذه المقدمة ، كما أن لكل معجم خصائص وميزات تظهر شخصيته وشخصية مؤلِّفه ، وقد أشرنا إلى ذلك فى إيجاز عندما عقدنا موازنة بين الصحاح والمعجمات الأخرى التى سبقته وعاصرته .

وهؤلاء الأئمة الذين ألفوا معجمات — ويُعَدّون روّاد التأليف المعجمى — قليل عددهم ، وليس لكل منهم منهج خاص فى التصنيف والترتيب والنظام ، فبعضهم يصدر من نبع ، ويسير مع غيره فى طريق واحد كالأزهرى الذى نهج منهج الخليل واختار منهج كتاب العين .

وهؤلاء هم الروّاد ؛ ومنهم من صار إمام مدرسة ومنهم من كان تابعا ومريدا ، وفى الفصول الآتية ترجمة موجزة للروّاد جميعا .

١ — أبو عمرو الشيبانى

أبو عمرو ، واسمه إسحاق بن مِرار الشيبانى (٩٤ — ٢٠٦ هـ) وليس هو بشيبانى ؛ بل أدَّب أولاداً من بنى شيبان فنسب إليهم ، وهو

كوفى نزل بغداد ، وكان من أعظم الناس علما باللغة والشعر حتى عُرِف بين العلماء بصاحب ديوان اللغة والشعر ، وكان صدوقا فاضلا ، وروى عنه الإمام أحمد بن حنبل وأبو عبيد القاسم بن سلام وغيرهما ، وله مؤلفات ؛ منها : « غريب الحديث » وكتاب « النوادر الكبير » و « النحلة » و « الإبل » و « خلق الإنسان » وكتاب « الجيم[١] » .

ولد أبو عمرو سنة ٩٤ هـ ، والخليل سنة ١٠٠ هـ وتوفى الخليل سنة ١٧٠ هـ أو نحو سنة ١٧٥ هـ وعُمِّر أبو عمرو طويلا فقيل : عاش مائة سنة وثمانى عشرة سنة ، وقيل غير ذلك .

وكتاب الجيم معجم لغوى مختصر ، جمع من اللغة كثيراً من مفرداتها ، فمن السابق ؟ أالخليل أم أبو عمرو ؟ .

إن هذين الإمامين كانا متعاصرين ، وأبو عمرو أكبر من الخليل سنا ، وشهرته فى اللغة واسعة ، وكان معروفا بأنه صاحب ديوان اللغة ، وقد أجمع العلماء على توثيقه ، وثبت أنه ألف كتاب الجيم ، وهو معجم عظيم ، فليس غريباً أن يجد الباحث مجالا للسؤال : من السابق منهما إلى ابتكار المعجم العربى ؟ .

إن من حق الباحث أن يُلقِى هذا السؤال .

أما أنا فأرى رأى الإجماع أن الخليل أسبق العلماء طرا إلى فكرة المعجم ، وأعتقد أنه أسبقهم إلى التأليف والتدوين ، ويحملنى على هذا الرأى أن الخليل

---

(١) يقوم المجمع اللغوى المصرى بنشر كتاب الجيم بتحقيق المستشرق الفرنسى كونز .

صاحب عبقرية ملهمة ناضجة ، وذهن منبثق بالنور لم ينطفىء إلا بانطفاء شمعة حياته ، وقريحة فياضة ، وعقل جبار مبتكر ، وفكر رياضى مبتدع ، يبتدع علم « العروض » ابتداعاً كاملا لم يجعل لغيره فيه مجالا ، حتى قال حمزة الأصفهانى : « إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التى لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل ، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذى لا عن حكيم أخذه ، ولا على مثال تقدمه احتذاه ، وإنما اخترعه[١] » . وهو مخترع علم الموسيقى العربية ، وكان فى اللغة مبتكراً ، ابتكر علم النحو المعروف حتى اليوم ، وهو فى اللغة ومتونها إمام متفرد ، وهو فى الطبقة الأولى من من أئمة اللغة[٢] ، فلا غرابة أن يبتكر — والابتكار من صفاته — لا غرابة أن يبتكر التأليف المعجمى ويسبق غيره كما سبق إلى العروض والنحو والموسيقى .

وأبو عمرو لم يكن مبتكرا ؛ وليس له ذهن رياضى مبتدع ، ومع تبَحُّره فى اللغة والشعر لم يؤثر عنه اختراع فى علم أو فن .

وفى وسعنا أن نقول : إن المعجمين ألفا فى وقت واحد أو قريب ، فكما تعاصر الرجلان تعاصر المعجمان ، إلا أن أبا عمرو بخل بكتاب الجيم على الناس فلم يقرأه أحد عليه[٣] ، وما نشك أن الخليل هو السابق حتى يأتى من يثبت لنا إثباتاً علمياً قاطعاً أن أبا عمرو أو غيره سبق الخليل إلى تأليف معجم .

---

(١) هامش إنباه الرواة ١ : ٣٤٢ .
(٢) مقدمة تهذيب اللغة للامام الأزهرى .
(٣) البغية ١٩٢ .

ولكتاب الجيم اسمان آخران ؛ هما : كتاب الحروف ، وكتاب اللغات[1] ، وأصل اسم كتاب الجيم : كتاب الحروف ، ولكنه لقبه بالجيم فعرف به واشتهر .

وليس كتاب الجيم ضخماً كبيراً ، بل هو أصغر من معجمات الفارابىّ والجوهرىّ والأزهرىّ وابن عباد وابن فارس ؛ أصغر منهن بكثير ، فهو لا يزيد على ٢٨٧ ورقة من حجم الوسط ، وهذا حال نسخة الأسكوريال .

وقسم أبو عمرو كتابه إلى عشرة أجزاء ، فرّق عليها المواد مرتبة على حروف الهجاء بالترتيب الحديث المعروف وهو : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن و هـ ى . وحوى بعض الأجزاء بضعة حروف ، وبعضها حرفاً واحداً ، وذلك لغير سبب معروف .

فالجزء الأول يحوى : الألف والباء والتاء والثاء والجيم .

والثانى : يحوى حرف الحاء وحده .

والثالث : الخاء والدال والذال .

والرابع : الراء .

والخامس: الزاى والسين والشين .

والسادس: الصاد والضاد والطاء والظاء والعين .

والسابع : بقية العين وحرف الغين .

والثامن : الفاء والقاف .

والتاسع : الكاف واللام .

والعاشر : الميم والنون والواو والهاء والياء .

---

(١) إنباه الرواة ١ : ٢٢٤ و ٢٢٧ .

وسمى كل حرف باباً ، فقال : باب الألف وباب الباء وباب التاء وأخيراً باب الياء .

وافتتح كتابه بباب الألف ذاكرا فيه كل كلمة مبدوءة بالألف دون مراعاة الحرف الثانى والثالث ، بل يحشد فى باب الألف كل كلمة تبتدىء بها . وافتتح كتابه بكلمة الأوق ثم الألب ثم المأفول ثم الأفيق ثم الأَزُوح ثم المأموم — وهو البعير إذا عمِد وأكل الدبر سنامه — وأنهى باب الألف بكلمة « الإدة » .

ثم ينتقل إلى باب الباء ، ويذكر كل كلمة مبدوءة بالباء كما يتفق له دون أن يرتب المواد ترتيباً معجميا يراعى فيه الحرف الثانى والحرف الثالث ، ويفتتح باب الباء بكلمة : البُهْرة ثم البَرْكة ثم البسيل ثم البَدِغُ .

ثم ينتقل إلى باب التاء فالثاء حتى الياء ، حيث يختم به كتابه ، ويفتتح باب الياء بقوله : يَقَنَةُ ؛ فكلمة يَبَس ، ونص عبارته فيهما : « رجل يَقَنَة : لا يكذب بشىء ، وامرأة يَبَسٌ : التى لا تنيل أحدا » وختم باب الياء بقوله : اليمامة : القصد ، وهى آخر كلمة فى كتابه .

وطريقة تفسيره الكلمات هكذا :

المأموم : البعير إذا عَمِد وأكل الدبر سنامه .

والإدَة : زماع أمر القوم واجتماعه . قال :

وباتوا جميعا سالمين وأمرهم إلى[1] إدَة حتى إذا الناس أصبحوا

واليمامة : القصد . قال المرار :

إذا جفَّ ماء المزنِ عنها تيَمَّمَتْ يمامتَها أىَّ العِداد تروم

---

[1] فى لسان العرب : على .

وأوجز أبو عمرو فى ذكر الشواهد ، كما أوجز فى ذكر المواد .

ويُعَدُّ أبو عمرو أول من رتب المعجم حسب أوائل الحروف ، ولكنه لم يلتزم الثانى والثالث .

ويُعِد المجمع اللغوى المصرى العدة لنشر كتاب الجيم بتحقيق المستشرق الفرنسى شارل كونس Charl Kuentz وإشراف الأستاذ إبراهيم مصطفى ، معتمدا على نسخة الأسكوريال ، ونسخة خطية حديثة منقولة من نسخة الأسكوريال لا يعرف كاتبها ، وكانت فى خزانة كتب فيشر .

٢ — القاسم بن سلام

أبو عبيد القاسم بن سلام ، كان أبوه عبداً روميا لرجل من هراة ، وكان أبو عبيد صالحا زاهدا كريما محسنا عفا ، يقضى ثلث ليله فى الصلاة ، وثلثا فى النوم ، وثلثا فى الكتابة ، وروى الناس من كتبه المصنفة نيفا وعشرين كتابا فى القرآن والفقه واللغة ، وقيل : لولا أن الله منَّ على الأمة بأبى عبيد فَفَسَّر غريبَ القرآن لاقتحم الناس فى الخطأ ، ولد سنة سبع وخمسين ومائة ، وخرج أبو عبيد إلى مكة سنة تسع عشرة ومائتين ، ومات بها سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وقيل : سنة أربع وعشرين ، وبلغ من العمر سبعا وستين سنة[١] ، وألف كتبا كثيرة ؛ منها : « غريب الحديث » و « أدب القاضى » و « المذكر والمؤنث » و « المقصور والممدود » و « الأموال » و « النسب » و « الأحداث » و « الغريب المصنف[٢] » .

---

(١) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ١٨٨ — ١٩٨ ، والأعلام ٢ : ٧٨٣ .

(٢) يقوم المستشرق الألمانى شبتلر Spitaler فى هذه الأيام بنشر الغريب المصنف .

والغريب المصنف من معاجم اللغة ، وقد قسمه على المعانى والموضوعات ، ويشتمل على أكثر من ثلاثين كتابا فى موضوعات مختلفة ، مثل : خلق الإنسان ، والنساء ، واللباس ، والطعام والشراب ، والسماء والأرض ، والرحل والخيل ، والسلاح ، وغيرها .

ويضم الغريب المصنف أكثر من سبعة عشر ألف مادة ، ولكنه ليس معجما كبيرا ، بل يعد مختصرا ، وقد اطلعت على مصوَّرة منه بالمجمع اللغوى المصرى أخذتْ من نسخة دار الكتب المصرية ، وهذه تحت رقم **١٢١** لغة .

ومراجعه فى مؤلَّفه : الكتب التى ألفت حول الموضوعات التى احتواها معجمه ، واعتمد على كتب الأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة والكسائى وغيرهم . ومن مراجعه : علماء وأعراب وفصحاء ذكر أسماءهم ، واتبع ابنُ سيده طريقة أبى عبيد فى كتابه المشهور « المخصص » وكان ابن سيده يحفظ « الغريب المصنف » كله[١] ، كما أن سليمان بن مطروح الحجارى — بالراء المهملة — يكاد يمليه من حفظه[٢] ، واختصره محمد بن رضوان ابن أرقم النميرى[٣] ومحمد بن على بن أبى بكر اللخمى[٤] ، ورد عليه أبو سعيد أحمد بن خالد الضرير البغدادى[٥] وعلى بن حمزة البصرى[٦] ،

---

(١) البغية ٣٢٧ .
(٢) البغية ٢٦٣ .
(٣) البغية ٤٢ .
(٤) البغية ٤٢ .
(٥) البغية ١٣٢ .
(٦) البغية ٣٢٧ .

وشرحه أحمد بن محمد بن أحمد المرسى[١] ، وشرح أبياته أبو محمد يوسف ابن الحسن بن السيرافى[٢] .

وقد سُبِقَ أبو عبيد إلى طريقته من غير العرب ، فقد سبقه يوليوس بولكس Julius Pollux وألف معجما رتبه على المعانى والموضوعات[٣].

٣ — ابن دريد

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى (٢٢٣ — ٣٢١ هـ) ولد بالبصرة ونشأ بها ، وتعلم فيها ، وأخذ العلم واللغة عن أئمة أعلام : كأبى حاتم والرياشى والأشناندانى ، وهو من أكابر علماء العربية ، وكان مقدماً فى اللغة وأنساب العرب وأشعارهم ، وكان أديباً شاعراً ؛ وله مؤلفات كثيرة ؛ منها : « الاشتقاق » و « كتاب الخيل الكبير » و « كتاب الخيل الصغير » و « الأنواء » و « الملاحن » و « أدب الكتاب » و « الجمهرة » و « كتاب المجتنى » و « كتاب المقتنى[٤] » .

والجمهرة أحد المعاجم العربية الكبيرة ، نهج فيه منهج الخليل ، مع أنه أراد أن يتخلص منه ، ولكنه اتبعه فى كثير ؛ وشذّ عنه فى الترتيب ، إذ رتّب كتابه على حروف المعجم ، وعُنِيَ كثيراً بترتيب الحروف جاعلا أساسه الأبنية ، وسار على طريقة الخليل ؛ مدخلا فيه بعض الزيادات ، وبدأ بالثنائى ثم الثلاثى ثم الرباعى ، ثم ملحق الرباعى ، ثم الخماسى

---

(١) البغية ١٧٥ .
(٢) البغية ٢٤١ .
(٣) دائرة المعارف البريطانية مادة Dictionary .
(٤) مقدمة شرح المقصورة الدريدية لابن هشام اللخمى (مخطوطتنا) .

والسداسى وما يلحق بهما ، وأفرد للنوادر باباً خاصاً بخلاف الخليل الذى وضعها مع المواد كلا فى بابه .

واتبع ابن دريد الخليل فى نظام قلب الكلمة ؛ وابتدع نظاماً فى ذكر المواد ، وهو أن يبدأ كل باب بالكلمة المبدوءة بالحرف الذى وقف عليه الباب آخذاً بالحرف الذى يليه تاركا ما سبقه ، فإذا كان فى باب الدال — مثلا — ترك ما قبلها من الحروف وهى : الدال مع الهمزة ، والدال مع الباء ، والدال مع التاء ، والدال مع الثاء ، والدال مع الجيم ، والدال مع الحاء ، والدال مع الخاء ، والدال مع الدال ، وبدأ بالحرف الذى يليه فيذكر الدال مع الذال ، فالدال مع الراء ، وهكذا حتى ينتهى ، ولا يذكر بعد ذلك الدال مع الحروف التى تسبقه فى الترتيب الهجائى لأنه ذكرها فيما سبق من المواد .

إن منهج ابن دريد منهج الخليل — كما ذكرنا — إلا فى بعض النقاط ، اتفق معه فى نظام الأبنية ، وما ينشأ عن الكلمة باتباع نظام القلب كما مثّلنا فيما كتبناه عن كتاب العين ، وخالفه فى البدء فى كل باب بالحرف الذى يعقده عليه تاركا ما قبله آخذاً بما بعده .

وبعض العلماء لا يوثّق ابن دريد كالإمام الأزهرى الذى يقول فى مقدمة تهذيبه : « وممن ألف فى عصرنا الكتب ووسم بافتعال العربية وتوليد الألفاظ التى ليس لها أصول ، وإدخال ما ليس فى كلام العرب فى كلامهم : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى صاحب كتاب الجمهرة[١] » .

---

(١) تهذيب اللغة للأزهرى مخطوطة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة .

ومع ما قيل فى ابن دريد فإنه أحد أئمة اللغة الذين خدموا العربية أجل الخدمات ، ومع ما قيل فى « الجمهرة » فإنه معجم عظيم ، ومن الإنصاف أن نبرىء ابن دريد مما اتهم به . فقد كان يتحرى فى الرواية ، ولا يذكر إلا ما يرضى عنه ، ولئن اشتمل كتابه بعد هذا على أوهام أو خلل أو خطأ فإن الكتب الكبيرة لا تخلو من المآخذ والعيوب ، وفى كلام الأزهرى تحامل على ابن دريد ، غفر الله لهما .

وقيل : إن ابن دريد أملى الجمهرة دون الاستعانة بالنظر فى شىء من الكتب إلا فى الهمزة واللفيف ، وإذا صح هذا فإن ابن دريد يتفرّد بين مؤلفى المعجمات بهذه الموهبة النادرة الفذة ، فإملاء عالم — مهما بلغ علمه — معجما من حفظه وعلمه وعقله دون الاستعانة بكتب حَدَث جدير بالإعجاب ؛ وعمل قمين بأن يُقْدَرَ صاحبه أعظم القدر ، وعمل كهذا معجز ؛ ولم نسمع عن مؤلف معجم صنع ما صنع ابن دريد .

وإذا جاء بعد هذا الجهد البالغ المثمر خطأ فى بعض صنيعه أو وهم أو خلل أو خلط فى ترتيب بعض الكلمات ووضعها فى غير تركيبها ، فإن إعجازه فيه خير شفيع له ، وأى معجم برئ من الخطأ والخلل ؟ .

٤ — الفارابى

أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابى (··· — ٣٥٠) خال الجوهرى ، من « فاراب » وانتقل إلى اليمن وأقام فى زبيد ، وفيها ألف كتابه « ديوان الأدب » وقد عرّفه بقوله : « ميزان اللغة ومعيار الكلام » .

وطريقة الفارابى فى معجمه أنه قسمه ستة أقسام سماها كتباً ؛ ورتبها هكذا : كتاب السالم ، وكتاب المضاعف ، وكتاب المثال ، وكتاب ذوات الثلاثة ، وكتاب ذوات الأربعة ، وكتاب الهمزة ، وجعل كل كتاب شطرين : الأول خاصاً بالأسماء ، والثانى بالأفعال ، وكل شطر منهما ينقسم إلى أبواب بحسب الأبنية ، وتنقسم الأبواب بحسب حروف الهجاء المعروفة ، ويسير على الترتيب المألوف ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز حتى الياء ، ولم يذكر الهمزة فى الترتيب لأنه أفرد لها باباً خاصاً بها . وكذلك أخرج أحرف العلة لأنه أفرد لهن باباً خاصاً فى كتاب المثال وكتاب ذوات الثلاثة وكتاب ذوات الأربعة .

ثم يسير فى ترتيب الأبواب والفصول على هذا النهج ، ففى باب الباء يذكر كل كلمة تنتهى بحرف الباء ، وفى باب الجيم تذكر كل كلمة تنتهى بحرف الجيم ، ويرتب الفصول على حروف الهجاء ، ويلتزم فى ترتيبه الكلمات — بعد ترتيبه فى الباب والفصل — الحرف الثانى والثالث والرابع من أحرف وسط الكلمة .

وهذه هى نقطة الالتقاء بين الفارابى والجوهرى ، وقد حمل ذلك باحثاً — هو الدكتور كرنكو — أنْ يدعى أن الجوهرى سرق فى صحاحه مواد كتاب الفارابى[١] .

ولقد أسرف الأستاذ كرنكو فى دعواه ، ولا سند له ، فديوان الأدب للفارابى وصحاح الجوهرى موجودان ، ومنهما نسخ كثيرة صحيحة ، والفارق

(١) كرنكو Krenkow الملحق المئوى لمجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩٢٤ وعنوان موضوعه : « بواكير المعاجم العربية حتى عصر الجوهرى » .

بين المعجمين كبير ، وبعد كل هذا نجد عمل الجوهرى أصح وأكمل وأعظم من عمل خاله الفارابى .

ونحن لا نشك أن الفارابى يعد واضع بعض أساس منهج الصحاح ؛ وفوق هـذا أربى الجوهرى على خاله وأتى بنظام دقيق بذَّه فيه ، وكان نظامه آية بينة .

ولعل مما أثار وهم كرنكو حتى زعم ما زعم أن ياقوت يقول : « رأيت نسخة من كتاب ديوان الأدب بخط الجوهرى ، وقد ذكر فيها أنه قرأها على أبى إبراهيم بفاراب[1] » ولا يبعد أن يكون الجوهرى اطلع على كتاب خاله ، ولكن عبارة ياقوت غير دقيقة ، وينفيها أن الفارابى ألف كتابه فى زبيد وتوفى بها ، وهذا يمنع الجوهرى من القراءة على خاله ، ولا تمنعه من الاطلاع عليه واستنساخه .

وإذا قلنا : إنه اطلع على « ديوان الأدب » وقرأه على مؤلفه ، فإن ذلك لا يوجب اتهام الجوهرى بسرقة كتاب خاله ، فالفارق بينهما كبير فى المنهج والترتيب والنظام وعدد المواد .

والتقاء الفارابى والجوهرى فى نقطة أو نقاط ليس دليلا على أن الثانى سطا على الأول ، وإلا لعُدَّ الإمام الأزهرى سارقا كتاب العين للخليل ، وعُدَّ كل تابع لمدرسة معجمية سارقا من الرائد ، ولكن أحداً لا يستطيع — فى مثل هذه الأحوال — أن يتهم عالما إماما بالسرقة إذا اتفق مع غيره فى المنهج وأكثر المواد .

---

(١) البغية ١٩١ .

وقد تناول أبو سعيد محمد بن جعفر بن محمد الغورى ، أحد أئمة اللغة ديوان الأدب للفارابى ، وزاد عليه فى أبوابه وجعله فى عشرة مجلدات ، وهذبه ووسع فيه وأضاف إليه كثيرا من المواد[1] . وهذبه الحسن بن المظفر النيسابورى وسماه : « تهذيب ديوان الأدب[2] » .

٥ — الأزهرى

أبو منصور محمد بن أحمد بن أزهر الهروى اللغوى الشهير (٢٨٢ — ٣٧٠ ﻫ) وليس الأزهرى نسبة إلى الجامع الأزهر بل نسبة إلى أزهر أحد أجداده ، والأزهرى إمام عظيم من أئمة اللغة المصطَفين ، وحجة من حججها ، ولم تكن اللغة كلَّ علمه ، بل اشتهر بها لأنها غلبت على علومه الأخرى كالفقه والحديث والتفسير .

ومعجمه « تهذيب اللغة » يمتاز بالدقة والتحرى فى الأخذ ، وفيه الصحيح من كلام العرب ، وبه غير الصحيح — وهو جد قليل — وقد أشار هو نفسه إلى ما شك فيه أو أخذه ممن لا يوثق به ، والتهذيب مرتب على مخارج الحروف مثل العين للخليل بن أحمد ، واتبع نظامه فى قلب الكلمة .

وجعل الأزهرى الهمزة حرف علة ، وكان حقها أن تذكر بعد العين ، وإن كان الصرفيون يحسبونها أول حروف الحلق ، وسمَّى كل حرف باباً ، وكل بناء كتاباً ، فهو يقول فى آخر المجلد الأول من معجمه : « كتاب

---

(١) البغية ٢٨ و ٢٩ .

(٢) البغية ٢٣٠ .

الثلاثى المضاعف من حروف العين » ثم عنوان صغير هو : « باب الغين والقاف » وجعل الأبنية ستة : كتاب الثنائى المضاعف ، وكتاب الثلاثى الصحيح ، وكتاب الثلاثى المهموز ، وكتاب الثلاثى المعتل ، وكتاب الرباعى ، وكتاب الخماسى .

وهو إذ يذكر الكلمة يردفها بما ينشأ عنها من أنواع القلب كما صنع الخليل ، وينبه إلى المهمل ، كما ينبه إلى الكلمات التى أهمل ذكرها بعض العلماء ، فهو يقول فى أبواب الهاء والشين : « هبش ؛ أهمله الليث ، وروى أبو العباس عن ابن الأعرابى أنه قال : الهبش : ضرب التلف . وقد هبشه ، إذا أوجعه ضرباً . وقال اللحيانى : هو يهبش لعياله ويهتبش ويحرف ويحترف ويخرش ويخترش ، معناها : يكسب ويطالب ويحتال . وقال الأصمعى : والهباشة والحباشة : الجماعة من الناس . وقال الرؤاسىّ : إن المجلس ليجمع هباشات وحباشات ، أى ناساً ليسوا من قبيلة واحدة ، وقد تهبشوا أو تحبشوا ؛ إذا اجتمعوا . ومنه قول رؤبة :

لولا هباشات من التهبيش   لصبية كأفرخ العُشوش[1] »

ومن هذا الشاهد نستدل على حرص الأزهرىّ على إسناد كل قول إلى من صدر عنه أو رواه .

ولقد أشار الأزهرىّ إلى طبيعة عمله وبعض منهجه فى مقدمة كتابه ، فقال ما نقتطف منه ما يختص بمنهجه ، قال : « سميت كتابى تهذيب اللغة ، لأنى قصدت بما جمعت فيه نفى ما أدخل فى لغة العرب من الألفاظ

---

(١) نسخة مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله بالمدينة المنورة .

التى أزالها الأغبياء عن صيغها ، وغيّرها الغُتْم عن سننها ، فهذبت ما جمعت فى كتابى من التصحيف والخطإ بقدر علمى ، ولم أحرص على تطويل الكتاب بالحشو الذى لم أعرف أصله ، والغريب الذى لم يسنده الثقات إلى العرب » .

وقال : « ولو أننى أودعت كتابى هذا ما حوتْه دفاترى ، وقرأته من كتب غيرى ، ووجدته فى الصحف التى كتبها الورّاقون ، وأفسدها المصحِّفون ؛ لطال كتابى ، ثم كنت أحد الجانين على لغة العرب ولسانها ، ولقليلٌ لا يُخْزِى صاحبه خير من كثير يفضحه ، ولم أودع كتابى هذا إلا ما صحّ لى سماعا منهم ، أو رواية عن ثقة ، أو حكاية عن خط ذى معرفة ثاقبة اقترنت إليها معرفتى » .

ويكرر ما يشبه هذا فى آخر كتابه بقوله : « وقد حرصت ألا أودعه من كلام العرب إلا ما صحّ لى سماعاً من أعرابى فصيح ، أو محفوظ لإمام ثقة ، حسن الضبط ، مأمون على ما أدّى ، أما ما يقع فى تضاعيف الكتاب لأبى بكر محمد بن دريد الشاعر ؛ والليث ؛ مما لم أحفظه لغيرهما فإنى قد ذكرت فى أول الكتاب أنى واقف على حروف كثيرة لهما ، وأنه يجب على الناظر فيها أن يفحص عنها ، فإن وجدها محفوظة لإمام من أئمة اللغة ، أو فى شعر جاهلى ؛ علم أنها صحيحة ، وإذا لم تصحّ له من هذه الجهة توقف عن تصحيحها » .

وعُنِىَ الأزهرى بالبلدان والمواضع والأمكنة والمياه عناية كبيرة جعلت كتابه من أصح المصادر فى هذا السبيل ، فقد وقف هو نفسه على كثير منها أو جلها ، ولو جُرِّدتْ فى كتاب على حدة لكان من خير كتب البلدان .

ومن أجمل ما فى التهذيب أن يقول الأزهرى : « سمعت العرب يقولون » .

ومن هذا الكتاب فى مكتبات العالم ثمانى عشرة نسخة ، كما وصل إلى علمى : نسخة بالمكتبة الأحمدية بحلب ، وثانية بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله الحسينى بالمدينة المنورة ، وثلاث بدار الكتب المصرية ، واثنتا عشرة نسخة بتركيا ، ونسخة بالمتحف البريطانى ؛ إلا أن نسخة المدينة تفضلها ، فهى أقدمها ، ولعلها خيرها فى جمال الخط والضبط والسلامة من التحريف والتصحيف والخرم ، ونسخ دار الكتب نواقص ، وكلهن لا يكملن نسخة واحدة ، ونسخة الأحمدية لا بأس بها ، وأربع نسخ من الاثنتى عشرة نسخة التى بتركيا يوثق بها ؛ وما عدا الأربعة سقيم . أما نسخة المدينة فممتازة وصحيحة وهى بخط ياقوت[1] كتبها سنة ٦١٦ ﻫ وما عداها كتب فى القرنين : الثانى عشر والثالث عشر للهجرة ؛ إلا نسخ دار الكتب ، فتاريخهن قبل ذلك ، ولكنهن نواقص .

٦ — ابن عباد

الصاحب إسماعيل بن عباد بن العباس أبو القاسم (٣٢٦ — ٣٨٥ ﻫ) وزير غلب عليه الأدب والعلم ، وكان كريماً سمحاً جيد الرأى ، محباً للعلم وأهله ، استوزره مؤيد الدولة بن بويه الديلمىّ ثم أخوه فخر الدولة ، ولقب بالصاحب

---

(١) أشك أن النسخة من خط ياقوت .

لصحبته مؤيد الدولة منذ صباه فسماه الصاحب فاستمر عليه واشتهر به ، وكانت خزانة كتبه حمل أربعمائة جمل . وتوفى بالرَّىِّ ونقل إلى أصبهان ، وألف كتباً جليلة ؛ منها : « الوزراء » و « الكشف عن مساوئ المتنبى » و « العَروض » و « الوقف والابتداء » و « جوهرة الجمهرة » و « المحيط » وهو معجم لغوىّ كبير ، ينهج فيه نهج الخليل فى العين والأزهرى فى التهذيب ، اتبع الخليل فى ترتيب الحروف بحسب المخارج ونظام القلب ، واتبع الأزهرىّ فى تقسيم الأبواب ، إلا أنه لم يتقيد بمنهجيهما كل التقييد ، بل كان ينطلق ويخالف متبوعيه مخالفة واضحة ، وأول أوجه المخالفة : أنه أُغفل الشواهد والمراجع ، وأهمل ذكر أسماء من نقل عنهم الغريب والنوادر واللغة ؛ سواء أكانوا آدميين أم كتباً إلا نادراً .

وتفرد الصاحب عن كل مؤلفى المعجمات التى سبقته أو عاصرته فى المجاز وفى إغفال الشواهد ، وامتاز محيطه بالسعة والحفول بالمواد ، فقد استبدل بما أغفل من شواهد ، موادَّ كثيرة فكان محيطه — من ناحية الكم — أوسع معجم معروف حتى عصره . ووصفه القِفطى بقوله : كثَّر فيه الألفاظ ، وقلل الشواهد ، فاشتمل من اللغة على جزء متوفر[1] » .

---

(١) إنباه الرواة ١ : ٢٠١ وبدأت وزارة الثقافة والفنون بالعراق في طبع « المحيط » وصدر منه جزآن بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين. (وكتبت هذه التعليقة عن « المحيط » بمكة المكرمة حرسها الله بعد صلاة الجمعة يوم الثامن من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٩ هـ ٤/ ٥/ ١٩٧٩ م).

٧ ــ ابن فارس

أبو الحسين أحمد بن زكريا بن فارس (٠٠٠ — ٣٩٥ هـ) من أعيان العلم وأفذاذ الدهر ، وكان أديبا شاعرا ، وأحد أئمة اللغة المبرِّزين ، والتزم الصحيح فى مقاييسه ومجمله ، واتبع فى تأليف « مقاييس اللغة » منهجا لم يسبق إليه ، كما يقول محقق[1] المقاييس : إذ يرد كل مادة من مواد اللغة إلى أصولها المعنوية المشتركة ، فلا يكاد يخطئه التوفيق ، وقد انفرد بين اللغويين بهذا التأليف ، لم يسبقه أحد ، ولم يخلفه أحد » .

ويقصد ابن فارس من « المقاييس » مايقصده اللغويون من « الاشتقاق الكبير » الذى يرجع مفردات كل مادة إلى معنى أو معان تشترك فيها هذه المفردات .

وسار ابن فارس فى مقاييسه على نهج خاص ، فهو لم يرتب مواده كالعين بحسب مخارج الحروف ، ونظام القلب ، ولم يتبع طريقة ابن دريد فى الجمهرة حيث التزم فى ترتيبه أوائل الحروف ، وذكر الكلمة وما ينشأ عنها من مفردات بعد قلب الكلمة التى تجىء فى الباب ، ولم ينهج منهج الصحاح بل سلك طريقا خاصا به ، فهو قد قسم مواد اللغة إلى كتب تبدأ بكتاب الهمزة ، وتنتهى بكتاب الياء ، وقسم كل كتاب إلى أبواب ثلاثة : باب الثنائى المضاعف والمطابق[2] ، وأبواب الثلاثى الأصول من المواد ، وباب ماجاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية ، والتزم فى كل قسم من القسمين الأولين

---

(١) هو العلامة الجليل الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، وقد طبع فى ستة أجزاء .
(٢) يريد بالمطابق : الرباعى المضاعف .

ترتيباً خاصا سبقه إليه ابن دريد ، وهو أن يبدأ كل باب بالكلمة المبدوءة بالحرف الذى يقف عليه الباب ، آخذاً بما يليه من الحروف حسب التهجى المعروف ، ويخالف ابنُ فارس ابنَ دريد فى أن الأول يؤجل ذكر الكلمات التى تبدأ بحرف الباب إذا سبقته ، حتى إذا انتهى من ذكرها ذكر ماأجَّل بخلاف ابن دريد الذى يغفل ذكرها لأنه ذكرها فى الموادالسابقة ، فلا ضرورة — عنده — لإعادتها .

ففى باب الثاء ؛ المثلثة — مثلا — يترك ابن فارس الابتداء بالثاء والهمزة ؛ فالثاء والباء ؛ فالثاء والتاء ؛ فالثاء والثاء ؛ ويبدأ بالجيم وما يَثْلِثها لأنه الحرف الذى يلى الثاء ، حتى إذا انتهى من الحروف كلها عاد إلى الأبواب المتروكة ، وهى أبواب الثاء مع الهمزة فالباء فالتاء فالثاء ، وذكرها ، أما طريقة ابن دريد فهى هذه ، إلا أنه لا يعود إلى المتروك ، لأنه مذكور فيما مضى من المواد .

٨ — البرمكى

أبو المعالى محمد بن تميم البرمكى اللغوىّ ، لم يؤلف معجما ، ولكننا عددناه ضمن الرُّوّاد ، لأنه ابتكر المنهج المعجمى الحديث ، ألا وهو الترتيب بأوائل الحروف حسب التهجى المعروف ، ابتكر منهجاً عُدَّ غريباً ، وطبقه على كتاب لمؤلِّف سواه ، فقد تناول الصحاح ورتبه على حروف الألفباء وزاد فيه أشياء قليلة .

ويُعَدُّ البرمكى أول من ابتدع هذا النظام ، وقد اتبعه فيه الزمخشرى فى أساس البلاغة ، فظنه العلماء مبتكر هذا الترتيب ، وقد سبقهما أبو عمرو

الشيبانى إلا أنه لم يلتزم غير الحرف الأول ، أما البرمكى فكان يلتزم الثانى والثالث والرابع[1] .

وقد رأيت جزءاً منه فى مائة ورقة بالمكتبة الخاصة بإبراهيم حمدى الخربوطلى أمين مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله بالمدينة المنورة — وقد توفى رحمه الله وغفر له — فألفيته مرتبا مثل ترتيب المعجمات الحديثة ، ومنه قطعة فى ست ورقات بمكتبة كوپريللى[2] رقم ٢/١٥٢١ .

٩ — أبو على القالى

إسماعيل بن القاسم بن هارون أبو على القالى البغدادى (٢٨٨ — ٣٥٦ هـ) ولد بمنازكرد[3] من إرمينية ودخل بغداد لطلب العلم سنة ٣٠٥ هـ وأقام فيها إلى سنة ٣٢٨ هـ ، ثم رحل عنها ودخل الأندلس سنة ثلاثين وثلثمائة ، وقيل له : القالى ، لأنه انحدر إلى بغداد مع رفقة من قاليقلا ، وتوفى بقرطبة ودفن بها سنة ٣٥٦ هـ

وأخذ القالى علومه من كثير من أئمة اللغة والنحو كابن دريد وابن القاسم الأنبارى ونفطويه والزجاج والأخفش وابن درستويه .

وله مؤلفات ؛ منها : الأمالى ، والمقصور والممدود ، وفعلت وأفعلت ، والبارع .

والبارع : معجم ابتدأ فيه منذ سنة ٣٣٩ هـ ، وعاونه فيه ورّاق اسمه محمد بن

---

(١) راجع فى المدارس المعجمية ما كتبناه عن البرمكى .

(٢) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٣٧٥ .

(٣) منازكرد فى معجم البلدان لياقوت ٨ : ١٦٤ « منازجرد » ، وأهله يقولون منازكرد : بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم . وخلاط : عاصمة إرمينية :

الحسين الفهدى من أهل قرطبة منذ عام ٣٥٠ هـ ، وأخذ يجمع مواده حتى عاجلته المنية سنة ٣٥٦ هـ ، فتولى تهذيبه ورّاقه مع محمد بن مَعْمر الجيانى ، وكان قد أتمه ولكن لم يستطع أن يكمل تبييضه ونقله ، بل نقل كتاب الهمزة وكتاب الهاء وكتاب العين .

وقد بنى القالى معجمه على حروف المعجم ، وجمع فيه كتب اللغة ، وعزا كل كلمة من الغريب إلى من نقلها عنه من العلماء ، واختصر الإسناد عنهم ، وهو يشتمل على ٥٠٠٠ ورقة .

واتبع طريقة الخليل ومنهجه ، فبنى معجمه على مخارج الحروف ، ولكنه لم يَسِرْ على ترتيب الخليل ، ويلتزمه بحذافيره ، فبدأ بالهمزة ثم الهاء ثم العين ، والخلاف يسيرٌ فى الترتيب ، وخالف الخليلَ فى الأبنية وترتيبها ، فهى عند القالى ستة : أبواب الثنائى المضاعف ، ويسميه : الثنائى فى الخط ، والثلاثى فى الحقيقة ، وأبواب الثلاثى الصحيح ، وأبواب الثلاثى المعتل ، وأبواب الحواشى ، وأبواب الرباعى ، وأبواب الخماسى .

واتبع القالى الخليلَ فى ذكر الكلمة ومقلوبها .

ولا يعد القالى مبتكراً بل سار على منهج الخليل ، ومنهج المشارقة فى التأليف المعجمى ، والبارع أول معجم يؤلف فى الأندلس .

ولم تظهر من البارع نسخة كاملة حتى الآن ، بل كل ما ظهر منها قطعتان : إحداهما فى المتحف البريطانى تحت رقم Or ٩٨١١ ، والثانية فى المكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٢٣٥ . وقد صورهما الدكتور فلتون أمين المكتبة الشرقية بالمتحف البريطانى وجعلهما فى كتاب .

المدارس المعجمية

إن مؤلفى المعجمات الاوَل هم رواد التأليف المعجمى فى العربية ، ومعاجمهم الطلائع الأولى ، وهى التى وضعت كل قواعد المعجم العربى ، ومعاجم هؤلاء الرواد لم تُبْق لمن بعدهم جديدا فى ترتيب المواد ، إلا فى حالات لا تعد جدتها ابتكارا ؛ وإن كان فيها تيسير على الشُّداة ، مثل معجم الشيخ محمد النجارى المصرى المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ ، الذى جمع فيه اللسان والقاموس ورتب موادها ترتيبا اتبع فيه طريقة البرمكىّ ، وهى ترتيب المواد على أوائل الحروف — كترتيب معاجمنا الحديثة — وخالفه أنه لم يراع الاشتقاق والتجريد ، فهو يذكر الكلمة فى بابها بالحرف الأول ، الذى يُنْطَق به ، غير ناظر إلى أصالة الحرف الذى تبدأ به الكلمة ، فهو يذكر كلمة كتب فى حرف الكاف ؛ ويذكر كلمة « مكتب » فى حرف الميم ، مع أن المعجميين يذكرون كلمة « مكتب » فى مادة كتب ، وهذه الطريقة سبق إليها فلوجل الألمانى .

وروّاد التأليف المعجمى فى العربية ، وضعوا كل قواعد المعجم ، ومن جاء بعدهم حتى هذا العصر لم يُضيفوا جديداً إلى نظام السلف ، ولم يبتكروا ترتيباً طريفاً ، بل سبقهم أولئك الرواد ومشى الخَلَف على نهجهم بعد أن اختاروا طريقة أحدهم ، وأغفلوا ما عداها ، لأنها أقرب تناولا ، وأكثر تيسيراً وأبعد ، عن المشقة ؛ وتركوا غيرها لوعورة الطريق إليها .

ويلتقى هؤلاء الرواد فى كثير من النقاطِ ، ويتفق بعضهم فى المنهج ، ولكنَّ لكل منهم سماتِه وخصائصَه ، وفى وسعنا أن نحصر معجمات هؤلاء

الرواد — من الخليل حتى البرمكى — فى أربع مدارس ، كلها وجدت خلال ثلاثة قرون ؛ ابتداء من أواخر القرن الثانى للهجرة ، حتى أواخر القرن الرابع للهجرة ، وعلى سبيل التقريب : بدأت قبل وفاة الخليل سنة ١٧٠ أو ١٧٥ ﻫ ، وانتهت سنة ٣٩٧ ﻫ .

وكما يلتقى الرواد فى بعض نقاط المناهج التى اتبعوها فإن المدارس المعجمية تلتقى فى بعض النقاط ، وتختلف فى بعضها ، ولكن لكل منها شخصيتها الخاصة التى تميزها عن سواها .

وعند ما يطلع القارىء على هذه المدارس ؛ ومنهج كل منها ، سيرى الفارق بينهن واضحاً جليا .

وهذه المدارس أربع فى رأينا ، إلا أن فى وسعنا أن نجعل مرد أصولها إلى نَبْعين مختلفين ، وهى أربع لمن أراد التفصيل ، واثنتان لمن أراد الإيجاز والإجمال .

وهاتان المدرستان هما : مدرسة المعانى ، ومدرسة الألفاظ ، أما مدرسة المعانى فهى التى اتخذت معاجم رتبتها حسب المعانى والموضوعات ، كالغريب المصنف لأبى عبيد ، أحد الرواد المتقدمين ، والمخصّص لابن سيده ، ويدخل فى فصول هذه المدارس كل الرسائل والكتب اللغوية التى اتخذت المعانىَ وسيلتها فى ذكر الكلمات .

أما مدرسة الألفاظ فهى التى بنت قواعدها على علم الأصوات اللغوية ، ورتبت المعجم حسب الحروف التى تبتدىء بها أوائل الكلمات على اختلاف

فى ترتيب الحروف ، كالاختلاف بين ترتيب الخليـــل وأبى عمرو والجوهرى والبرمكى والقالى .

فهؤلاء بنوا معجماتهم على علم الأصوات اللغوية ، ورتبوها على الحروف ، ولـكن كل واحد منهم اتخذ طريقاً خاصاً ، فالخليل رتب مواده على الحروف بحسب المخارج ، واتبعـه القالى على اختلاف يسير ، إذ خالف الخليلَ فى ترتيب حروف الحلق ، وخالفه فى ترتيب المجموعات إذ نقلها من مواضعها التى أنزلها فيها الخليلُ دون أن يغير فى ترتيب حروف كل مجموعة من المجموعات .

وأبو عمرو رتب مواده على ترتيب الحروف الهجائية المعروف وكذلك البرمكى ، أما الجوهرى فقد رتب على الحروف ولـكنه خالف من سـبقه أو لحقه ، ممن خالفوا طريقته ، خالفهم فى أنه لم ينظر إلى أول الـكلمة بل نظر إلى آخرها ، ثم رتب المواد على حروف الهجاء .

ولو قسمنا المدارس اللغوية إلى مجموعتين بهذا الاعتبار ، لـكان تقسيمنا صحيحاً ، إلا أننا آثرنا أن نفرد لـكل من ألف معجما بناه على الأصوات اللغوية مدرسة خاصة به ، نسبناها إلى رائدها أو إمامها ليكون عملنا أدق وأكثر تفصيلا .

وعلى هذا فإن المدارس اللغوية فى رأينا أربع ، لـكل منها نظام خاص ، ومنهج خاص ، وشخصية خاصة ، وسنشير إلى سِمات كل مدرسة وخصائصها فى إيجاز .

وهذه المدارس الأربع هى :

١ — مدرسة الخليل .

٢ — مدرسة أبى عبيد .

٣ — مدرسة الجوهرى .

٤ — مدرسة البرمكى .

مدرسة الخليل

مدرسة الخليل أول مدرسة عرفتها العربية فى تاريخ المعجم العربى ، والخليل إمام هذه المدرسة و إمام المعجميين العرب عامة ، فهو أول من شق أمامهم طريق التأليفِ المعجمى ودلهم عليه ، وفتح لهم بابه .

وقِوام مدرسته ترتيب المواد على الحروف حسب مخارجها ، وتقسيم المعجم إلى كتب ، وتفريع الكتب إلى أبواب بحسب الأبنية ، وحشْد الكلمات فى الأبواب ، وقَلْبُ الكلمة إلى مختلف الصيغ التى تأتى منها ، مثل قوله فى باب السين والميم مع الواو والألف والياء : سوم ، وسم ، سمو ، مسو ، موس[1] . و إهمال ما لم يُستعمل إذا لم يجئ ؛ فهو قد أهمل فى هذ الباب « ومس » لأن العرب لم تستعمله فى رأيه .

وقد سار بعض رواد التأليف المعجمى على نهج الخليل ، فالتزمه الأزهرى فى « التهذيب » وابن عباد فى « المحيط » ، والقالى فى « البارع » .

---

(١) كتاب العين ٢ : ٢٣٨ نسخة الدكتور عبد الله درويش ، وفى نسخته المنقولة بالآلة الكاتبة ص ١٣٦ .

ولم يكن هؤلاء الرواد مقلدين ، ولم يتبعوا الخليل فى كل دقيقة من دقائق منهجه ، بل خالفوه فى بعض منهجه ، وأضافوا إلى طريقة الخليل أشياء جديدة ، وهذا الجديد الذى أضافوه أو المقصد الذى أرادوه ، نتيجة تطور التأليف المعجمى الملحوظ بين البادئ المبتكر ، والتابع المتأخر ، ولكن هؤلاء التابعين المتأخرين لم يسعهم الابتكار مثل الخليل ، ولم يستطيعوا الخروج على قواعد مدرسته المتبوعة .

فالخليل أراد أن يحصر اللغة — كما حصر العروض — حصراً علمياً ، بوساطة الأرقام ، وذكر أن عدد أبنية كلام العرب — المستعمل والمهمل — على مراتبها الأربع ؛ من الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى اثنا عشر مليون كلمة .

وطريقة الخليل فى الإحصاء طريقة دقيقة مبنية على علم الحساب ، فهو رأى أن الحروف التى تتألف منها الكلمات ثمانية وعشرون ، والأبنية أربع .

ففى الثنائى — مثلا — ذكر أن عدد أبنيته ٧٥٦ وذلك ناتج من أن عدد الحروف الهجائية ٢٨ وتضرب فى ٢٧ وهى الكلمات التى تتركب مع الحرف الذى تبتدىء به الكلمة ، بعد أن يسقط هو نفسه فى التركيب مع جنسه ، فحرف الهمزة مع الباء فالتاء فالثاء حتى الياء يكوّن سبعاً وعشرين كلمة ، فبضرب هذا العدد فى عدد الحروف ينتج ٧٥٦ منها المهمل ، ومنها المستعمل .

وهكذا صنع فى أبنية الثلاثى فالرباعى فالخماسى .

وطريقة الخليل هى الفاذة فى إحصاء مواد اللغة ، ولكن الرقم الذى ذكره ليس هو المستعمل ، بل فيه المهمل وهو كثير ، ولعله أكثر من المستعمل .

أما أتباع مدرسة الخليل فقد قصدوا إلى جمع اللغة ، ولـكنهم أرادوا مع ذلك أن يَسِمُوا عملهم بجديد ، فوصف الأزهرى عمله فى كتابه أنه « تهذيب اللغة » ونفىُ الغلط عنها وتصويب ما لحق بعض ألفاظها من تصحيف وتحريف .

أما ابن دريد فسمى كتابه « جمهرة اللغة » واسمه يدل على مقصده من تأليف معجمه ، فهو عنى بتدوين جمهور العربية ، أما غيره فيذكره عرضاً ، ومقصد ابن عباد فى « المحيط » استيعاب المواد واستدراك ما أغفله غيره ممن سبقوه ، ومقصد القالى قريب من مقصد الأزهرى .

ولم يكن هؤلاء الأتباع صورة مكرورة للخليل ، بل بينه وبينهم نقاط يلتقون فيها ، وأوجه خلاف ، ونجد هذا الخلاف بين الأتباع أنفسهم .

إلا أن هذا الخلاف بين طريقة الرائد المتبوع والأتباع لا يعود إلى قصد المخالفة ، ولـكنه التطور الذى نشهده بين المبتـكر ومن يجىء بعده ، فيزيد الخلف على السلف زيادة لا تنقص من قدر الإمام الرائد ، ففضل الابتـكار منسوب إليه ، وذكره مرفوع به .

ومن أوجه الخلاف بين رائد هذه المدرسة وأتباعها أن الخليل جعل كل كتاب فى معجمه قائماً على حرف من حروف الهجاء ، ومقسوماً إلى أربعة أبواب : الثنائى المضاعف ، والثلاثى الصحيح ، واللفيف ، وجعل الباب الرابع للرباعى والخماسىّ .

وكذلك صنع القالى ، إلا أنه أفرد لـكل من الرباعى والخماسى باباً ، وعزل ما كان ثلاثياً معتلا بحرف عن اللفيف ، وسماه الثلاثى المعتل .

والأزهرى الذى اتبع الخليلَ وسار على طريقه خطوة خطوة ، خالفه فى المهموز وأحرف العلة ، فالخليل حشد ما كان معتلا بحرف أو حرفين مع المهموز دون تفرقة ، وجعلهما فى باب اللفيف ، وأراد الأزهرى إفراد المهموز ، وعزْله عن المعتل ، ولكنه لم يوفق كل التوفيق .

وصنَع الصاحب صُنْع الأزهرى فى باب اللفيف ، وافتتح الباب بالصحيح ، ثم ما كان مبدوءاً بالهمزة ، ثم ما كان أوله واواً ، ثم ما كان أوله ياء ، ولكن لم يتَّبِع الصاحبُ هذا النهج فى الثلاثى المعتل .

وأراد ابن فارس التخلص من مدرسة العين ، ولكنه لم يستطع أن يخرج عنها ، فقد تبع العينَ فى بعض الخطوط التى خطها الخليل ، منها : أن ابن فارس قسم معجمه بحسب الأبنية ، وهذا هو بعض قواعد كتاب العين .

واتبع أيضاً طريقة أبى عمرو الشيبانى بعد أن أدخل عليها كثيراً من الضبط والإحكام ، فهو سار فى ترتيب مواد معجميه المجمل والمقاييس على ترتيب حروف الهجاء ، وكان ابن فارس أكثر توفيقاً من أبى عمرو فى ترتيب الكلمات إذ راعى الحرف الثانى ، ولكن البرمكى كان أكثر منهما توفيقاً فى هذا السبيل .

ولعل أهم عيوب هذه المدرسة — باستثناء معجمى ابن فارس — وعورة الطريق لمن يريد أن ينتقل فى ربوعها ، وصدُّها الشادىَ عن منهلها كل الصدود ، وإجهادُها العالِمَ المتمكن الذى يقصدها مسترشداً مستفيداً ، وقد أشرنا فيما كتبناه عن كتاب العين إلى هذه العيوب ، فلا ضرورة إلى إعادتها فى هذه الكلمة .

مدرسة أبو عبيد

وهى التى تنتسب إلى أحد أئمة اللغة والأدب أبى عُبيد القاسم بن سلام ، وقواعدها بناء المعجم على المعانى والموضوعات ، وذلك بعقد أبواب وفصول للمسميات التى تتشابه فى المعنى أو تتقارب ، وكانت طريقة أبى عبيد من أولى المراحل التى بدأ فيها التأليف اللغوى ، ولكن بدأ كتباً صغيرة ، كل كتاب يؤلَّف فى موضوع ، مثل كتاب الخيل وكتاب اللبن ، وكتاب العسل ، وكتاب الذباب ، وكتاب الحشرات ، وكتاب النخيل ، وخلق الإنسان ، وخلق الفرس .

وفضل أبىْ عُبيد أنه جمع أشتات هذه الموضوعات والمعانى فى كتاب كبير ، يضم أكثر من ثلاثين كتاباً مثل : خلق الإنسان ، والنّساء ، واللباس ، والطعام والشراب ، والسماء والأرض ، والرحل والخيل ، والسلاح ومجموع ما تضم هذه الكتب الثلاثون سبعة عشر ألف حرف وأكثر .

وعرف العرب هذه الطريقة ابتكاراً ، كما عرفوا كل ضروب الترتيب المعجمى ، إلا أن غير العرب عرفوا هذا اللون من المعجمات قبل العرب بقرون كثيرة ، فقد عرفه اليونان ، وألف فيه يوليوس بولكس yulius pollux — وكان فى القرن الرابع الميلادى — معجما رتبه على المعانى والموضوعات .

ومما لا شك فيه أن أبا عبيد لم يقلد يوليوس بولكس ، بل ابتدعه ابتداعاً ، ونقول : ابتدعه ، لأنه جمع أشتات الكتب الصغيرة المؤلفة بحسب المعانى والموضوعات ، وجمعها فى غريبه ، وقسمها أبواباً سماها كتباً ، ثم أفرد

كل كتاب بموضوع حشد فيه من الـكلمات ما يتفق مع العنوان ، فمثلا حشد في كتاب النساء كل الـكلمات الخاصة بهذا الجنس .

وهداه إلى هذه الطريقة أنه وجد كتباً كثيرة ألفها أعلام اللغة وعلماء العربية الذين وقفوا كل كتاب منها على موضوع خاص ، وجاء أبو عبيد ولَمّ شمل هذه الـكتب وجمعها وأطلق عليها « الغريب المصنف » .

ولما ألف أبو عبيد غريبه فتح للناس باباً فى التأليف اللغوى والتأليف المعجمى لم يكن مطروقاً بجملته ، واتبع كثير من المؤلفين طريقته ، واتفق فى اتباعه القدماء والمحدثون المعاصرون على السواء ، اتبعه من القدماء أبو الحسن الهنائى الأزدى — المعروف بكراع النمل — فى كتابه « المنجد فيما اتفق لفظه واختلف معناه » . وقد روى فى كتابه عن يعقوب ابن إسحاق عن على بن عبد العزيز عن أبى عبيد القاسم بن سلّام .

واتبعه ابن سيده فى « المخصص » وتوسع فيه كثيراً ، ومن المعاصرين مؤلفا[1] كتاب « الإفصاح » .

ومن عيوب هذه المدرسة أن كثيراً من الألفاظ تأتى لمعان كثيرة ، والباحث لا يعرف فى أى الأبواب ذكر مطلبه ، وكثير من الصفات يشترك فيها الـكائن الحى سواء أكان إنسانا أم حيوانا أم نباتا ، بل هناك من الصفات ما يشترك فيه الـكائن الحى والجماد .

وهذا مما يصعّب على الباحث الحصول على مبتغاه .

---

(١) هما عبد الفتاح الصعيدى وحسين يوسف موسى .

مدرسة الجوهرى

هذه المدرسة تنتسب إلى الإمام المجدد الجوهرى الذى ابتكر فى التأليف المعجمى منهجا قرّب اللغة إلى الباحثين ، ويسّر لهم السبيل إلى الكلمة التى يقصدون ، وهى خير من مدرستى العين والغريب المصنف ، لأنهما أسهل ، وهذا ما كثّر أتباعها والمنتسبين إليها .

ومئات المعجمات والكتب اللغوية مرتبة ترتيب الجوهرى مما يدل على عِظَم مدرسته .

ونظام هذه المدرسة ترتيب المواد على حروف المعجم باعتبار آخر الكلمة بدلا من أولها ، ثم النظر إلى ترتيب حروف الهجاء عند ترتيب الفصول ، والأول سماه بابا ، والثانى فصلا ، فكلمة « بسط » يُبحث عنها فى باب الطاء لأنها آخر حرف فيها ، وتقع فى فصل الباء لأنها مبدوءة بها .

ولم يقف إمام هذه المدرسة عند الحرف الأخير بل نظر إلى الحرف الأول ، ثم تجاوز ذلك إلى الحرف الثانى فى الثلاثى ، والحرف الثالث فى الرباعى ، والحرف الرابع فى الخماسى ، حتى يكون الترتيب دقيقاً .

فإذا أراد باحث كلة حبب وحجب وحدب وحرب وحزب وحسب ، لزمه أن ينظر إلى آخر الكلمة أولا ؛ وهو الباء ، واسم ذلك البابُ ، ويحشد فيه كل كلة تنتهى بالباء ، فإذا وصل عند الباب نظر إلى أول الكلمة وهو الحاء ، واسم ذلك الفصلُ ، ويأتى بعد فصل الجيم الذى سبقته فصول الهمزة والباء والتاء والثاء ، ويجب أن يعرف نظام الجوهرى

ليسهل عليه الوصول إلى الـكلمة المقصودة ، وهذا النظام النظر إلى الحرف الثانى إذا كان اللفظ ثلاثيا ، فهو إذا أراد البحث عن كلمة « حنس » استخرج باب السين ثم فصل الحاء ، ثم نظر إلى الحرف الثانى وهو النون ، فإذا راعى ذلك تجاوز فى باب السين فصل الحاء وما وقع بينهما من حروف تسبق النون : تجاوز الهمزة والباء حتى الميم ، ليلتقى بالنون ، فيقف على الـكلمة المقصودة « حنس » .

وهكذا فى الرباعى والخماسى .

فنظام مراعاة الحرف الثانى والثالث فالرابع ما يزال متبوعاً حتى عصرنا هذا من مؤلفى المعجمات ، وسيتبعه كل من يؤلف معجما .

وقد فحص الجوهرى طريقة الخليل ومن اتبعه فوجدها مجهدة مُعْيِيَة تنبتُّ بالباحث أو تبهر أنفاسه حتى يصل إلى مقصده ، ولعـله اطلع على كتاب الجيم فلم تعجبه طريقته فى اتخاذ سبيل أوائل الـكلمات ، وإغفال النظر إلى الثانى ، لأن فاء الـكلمة يلحقها التغيير وتنتقل من مكانها وتتأخر إذا سبقها حرف مزيد ، مثل الـكاف فى كرم تصبح ثانيا إذا جاءت مزيدا ، فى مثل : أكرمَ ، وتـكرَّمَ أو مكرم . ويحار الشادى — إذا كان غير عارف بالمجرد والمزيد — أين يجد هـذه الـكلمات ، أيبحث عن أكرم فى باب الهمزة ، وعن تـكرم فى باب التاء ؛ وعن مكرم فى باب الميم .

إنه لم يتخذ طريق الخليل لوعورته وصعوبة السير فيه ، ولم يأخذ بنظام أبى عمرو لأن فاء الـكلمة غير ثابتة فى موضعها ، واتخذ له سبيلا جديداً غير معروف وغير متبوع ، هداه إليه علمه بالنحو والصرف ، ألا وهو أن لام

الـكلمة لا تتغير ، بل ثابتة ، وإذا ضعِّفت انتقلت من باب إلى باب ، مثل جلبب تنتقل من الثلاثى إلى الرباعى .

ولهذا بنى نظامه على آخر الـكلمة تاركا أولها آخذا به فى ترتيب الفصول ، فالبحث فى الصحاح فى كرم وأكرم وتـكرم ومكرم يقتضى أن يفتح باب الميم ، ثم يقصد فصل الـكاف ، وإذا كان الباحث يجهل المجرد والمزيد وسعه أن يبحث فى هذا الباب فى الحرف الذى تبدأ بها الـكلمة .

وفى هذا عناء له ، ولـكنه أقل من عناء الباحث فى كتاب العين وفى كتاب الجيم .

ومن أشهر أتباع هـذه المدرسة الإمام الصغانى فى معجماته المعلمات المشهورات : « التـكملة والذيل والصلة » و « مجمع البحرين » و « العباب » ، والفيروزبادى فى « القاموس » وابن منظور فى « اللسان » .

ومع أن الفيروزبادى أراد من تأليف القاموس منافسة الجوهرى وإظهار عجزه وقلة بضاعته فإنه لم يستطع أن يبتـكر سبيلا جديدة ، بل اتبع الجوهرىَّ فى النظام والترتيب والمنهج .

ولم ننسب هذه المدرسة إلى الفارابى مع تقدمه ومع أن الجوهرى يلتقى معه فى بعض النقاط ، لأن الفارابى ألمع إلمـاعا إلى بعض منهج الجوهرى ، ولـكن الجوهرى جاء بما وفّى على الغاية ووصل فيه إلى النهاية ، وأحكم النظام ، وضبط المنهج ، فانتسبت المدرسة إليه ، وهو بهذه النسبة جدير ، لأنه إمامها الفاذ ، وعلمها الذى لا تخطئه العين مهما ابتعدت عنه .

مدرسة البرمكى

هى المدرسة التى اتخذت ترتيب المعجم على الحروف الهجائية ، مبتدئة بالهمزة منتهية بالياء مع مراعاة الحرف الثانى والثالث والرابع .

ورائد هذه المدرسة إمام اللغة والعربية العظيم أبو عمرو الشيبانى ، ولكنه لم يراع فى الترتيب إلا الحرف الأول ، أما ما بعده فلم يُراعِه ، فهو يذكر فى باب الهمزة كل حرف مبدوء بها دون أن يراعى ما بعدها من الحروف فى ترتيب المواد ، فهو قد ذكر فى باب الهمزة هذه الألفاظ على هذا الترتيب :

الأوق

الألب

المأفول

الأفق

الأزوح

المأموم

وآخر كلمة ذكرها فى هذا الباب « الإدة » مع أن حقها أن تذكر قبل أول كلة ذكرها فى معجمه .

ولهذا لم ننسب المدرسة إليه لأنه لم يحكم النظام ، بل التزم أول الكلمة دون أن ينظر إلى ما بعدها ، أما البرمكى فقد نظر إلى الحرف الذى تبتدئ به الكلمة ، وراعى الحرف الثانى إذا كان اللفظ ثلاثياً ، والثالث إذا كان رباعياً ، والرابع إذا كان خماسياً .

وسهل له هذا أن الجوهرى راعى هذه القاعدة ، ومع هذا فإن البرمكى

أجهد نفسه فى ترتيب المواد ، لأنه أخذ الصحاح ورتبه ترتيباً جديداً حيث جعله على أوائل الحروف ، مما عده العلماء المتقدمون إغراباً فى الترتيب .

وطريقة البرمكى أنه أخذ من الصحاح من كل باب وفصل الحرف الذى يريده ، ففى باب الهمزة أخذ منه فصل الهمزة ، ومن باب الباء والتاء والثاء والجيم حتى الياء فصل الهمزة ورتبها على أوائل الحروف مراعياً الحرف الثانى والثالث ، ثم انتقل إلى باب الباء وصنع فيه ماصنع فى الهمزة حتى انتهى إلى آخر حرف فى حروف الهجاء .

وننقل للقارئ رءوس المواد من باب الهمزة ليرى القارىء طريقة البرمكى ، وهى الطريقة المتبعة فى التأليف المعجمى الحديث .

ا	ابل	اثث	احح	اذن
آ	ابن	اثر	احد	اذا
ابب	ابه	اثف	احن	ارب
ابت	ابو	اثل	اخذ	ارث
ابث	ابى	اثم	اخر	ارج
ابد	اتب	اثو	اخو	ارخ
ابر	اتت	اجأ	ادب	ارر
ابز	اتل	اجج	ادد	ارز
ابس	اتم	اجر	ادر	ارش
ابض	اتن	اجص	ادل	ارض
ابط	اته	اجل	ادم	ارط
ابغ	اتو	اجم	ادو	ارف
ابق	اتى	اجن	اذ	ارق

ارك
ارم
ارن
ارو
ازب
ازج
ازح
ازد
ازر
ازز
ازف
ازق
ازل
ازم
ازو
اسب
است
اسد
اسر
اسس
اسف

اسك
اسل
اسم
اسن
اسو
اشب
اشر
اشش
اشف
اصد
اصر
اصص
اصف
اصل
اصطبل
اصو
اضخ
اضض
اضم
اضو
اطر

اطط
اطل
اطم
افخ
افد
افر
افف
افق
افك
افل
افن
اقر
اقط
اقن
اقه
اكد
اكر
اكف
اكك
اكل
اكم

الب
الت
الخ
الس
الف
الق
الك
الل
الم
اله
الا
الى
ام
امت
امج
امد
امر
امس
امع
امل
امم

امن
امه
ان
انب
انت
انث
انع
انس
انض
انف
انق
انك
انن
انه
انا
انى
او
اوب
اود
اور
اوز

اوس	اون	اهل	ايض	اين
اوف	اوه	اهن	ايك	ايه
اوق	اوو	ايد	ايل	ايا
اول	اهب	اير	ايم	اياه
اوم	اهق	ايس	ايما	اى

ويدل هـذا الترتيب على أن البرمكى أول من رتب المواد ترتيباً محكما سبق به أصحاب المعجمات الحديثة كلها ، وسبق الزمخشرى الذى نسبت إليه هذه الطريقة وهما ، فالزمخشرى تأخر ميلاده عن البرمكى بأكثر من قرن ونصف قرن لأنه توفى سنة ٥٣٨ ﻫ ، والبرمكى كان حياً سـنة ٣٩٧ ﻫ وهى السنة التى انتهى فيها من تأليف معجمه ، وسبق كل من رتب المعجمات على أوائل الحروف ، ونقلنا رءوس المواد من باب الهمزة لنعطى الصورة الدقيقة لمنهجه الدقيق الذى لم يأت مَن بعده فيه بجديد يذكر ، بل كلهم سار على طريقه وتأسّى خطاه .

فهو صاحب هذه المدرسة وإمامها الذى لا ينافر ولا ينازع .

الصِّحَاح

الجوهرى

قال ياقوت : « كان الجوهرى من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة ، وأصله مِن بلاد الترك من فاراب ، وهو إمام فى علم اللغة والأدب ، وخطه يضرب به المثل فى الجودة ، ولا يكاد يفرق بينه وبين خط أبى عبد الله ابن مقلة ، وهو مع ذلك من فرسان الكلام والأصول ، وكان يؤثر السفر على الحضر ، ويطوف الآفاق ، واستوطن الغرْبة على ساق » .

ورحل الجوهرى إلى العراق — وهو يومئذ يزخر بأفذاذ العلماء فى كل فن — فتلقى علم العرب من شيخين عظيمين من شيوخ العربية هما : أبو على الفارسى (٢٨٨ — ٣٥٦ ﻫ) وأبو سعيد السيرافى (٢٨٤ — ٣٦٨ ﻫ) وأحبَّ أن يستزيد من العلم والمعرفة فسافر إلى الحجاز ، وشافه العرب العاربة فى ديارهم — كما ذكر ذلك فى مقدمة الصحاح — وطوَّف ببلاد ربيعة ومضر ، ثم عاد إلى خراسان وتطرّق الدامغان[1] ، فأنزله أبو على الحسن ابن على — وهو من أعيان الكتّاب — عنده وأكرمه ، وأخذ منه وسمع عنه ، ثم مضى إلى نيسابور وأقام بها على التدريس والتأليف وتعليم الخط وكتابة المصاحف والدفاتر حتى انتقل إلى ربه تاركا آثاراً جميلة رائعة تسلكه فى عداد عظماء من خدموا العربية وأفنوا أعمارهم فى سبيلها .

وألف الجوهرى صحاحه فى نيسابور ، وصنفه لأبى منصور عبد الرحيم

---

(١) الدامغان : بلد كبير بين الرى ونيسابور .

ابن محمد البيشكى[١] ، وكان البيشكى أديباً واعظاً أصولياً من أصحاب أبى عبد الله الحاكم بن عبد الله[٢] ، والبيشكى يعد من ذوى الأتباع ، وله تلاميذ ومدرسة وأصحاب ، وكان يدرّس ويناظر ، وينظم الشعر ويكتب النثر ، وتوفى فى جمادى الأولى سنة ٤٥٣ هـ[٣]

وفاة الجوهرى

اعترت الجوهرى — رحمه الله — وسوسة فمضى إلى الجامع القديم بنيسابور وصعد إلى سطحه محاولا الطيران ، ويروى أنه قال بعد أن صعد السطح[٤]: أيها الناس ، إنى عملت فى الدنيا شيئاً لم أسبق إليه[٥] ، فسأعمل للآخرة أمراً لم أسبق إليه ، وضم إلى جنبيه مصراعى باب وتأبطهما بحبل ، وزعم أنه يطير ، فألقى بنفسه من أعلى مكان فى الجامع فمات .

قال ياقوت : « بحثت عن مولده ووفاته بحثاً شافياً فلم أقف عليهما[٦] وقد رأيت نسخة من الصحاح عند الملك العظيم بخطه ، وقد كتبت سنة ست وتسعين وثلاثمائة » .

---

(١) بيشك : بكسر الباء : قصبة كورة رخ من نواحى نيسابور .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبى النيسابورى الشهير بالحاكم ، ويعرف بابن البيع أبو عبد الله (٣٢١ — ٤٠٥ هـ) من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه ، أخذ عن ألفى شيخ ، وولى قضاء نيسابور سنة ٣٥٩هـ ، وصنف كتباً كثيرة ، ويعد من أعلم الناس بصحيح الحديث وتمييزه عن سقيمه (طبقات السبكى) .

(٣) معجم الأدباء ٦ : ١٦٣ .

(٤) تاج العروس (المقدمة ص ٢٦) .

(٥) يريد كتاب الصحاح وما ابتدع من نظام غير مسبوق إليه فى تأليفه .

(٦) البلغة ١٩٥ .

وقال ابن فضل الله فى المسالك : « مات سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وقيل : فى حدود الأربعمائة[١] » .

وفى فقه اللغة : ولد الجوهرى سنة ٣٣٢ هـ وتوفى سنة ٣٩٣ هـ[٢] .

وفى دائرة المعارف البريطانية ومقدمة قاموس إدواردلين : توفى سنة ٣٩٨ هـ .

الصحاح

إذا كان الخليل أول من ألف معجما فى العربية ، ومهد السبيل لمن بعده ، فإن الشيخ أبا نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى صاحب « تاج اللغة وصحاح العربية » المعروف بالصحاح يليه فى الشهرة ، ويفضل الصحاحُ العينَ فى أمور كثيرة : بفضله فى الترتيب ، وسهولة الانتفاع به ، وحسن المأخذ ولين القياد ، ورقة الحاشية ، أما العين فلا يرود صعبه إلا لعالم متمكن ولا يفيد منه القارىء إلا إذا كان لديه مفتاح (فهرس) يهدى إلى الكلمة المقصودة ، والصحاح خير المعاجم التى سبقته أو عاصرته .

ويعد الجوهرى — دون منازع — أول من وجه تأليف المعجم العربى هذه الوجهة السهلة الحسنة ، وحمل مَن بعده على أن يسيروا على منهجه ، ويتركوا طريقة الخليل حتى ظهر من أئمة اللغة من اختطوا طريقة ترتيب المواد حسب التهجى الحديث . وفيما يأتى من الصفحات تفصيل مزايا الصحاح ومنهجه وطريقته وخصائصه .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) مقدمة فقه اللغة ، كتبها أحد الآباء اليسوعيين الذى نشر فقه اللغة للثعالبى ، وفقه اللغة للدكتور وافى ص ٢٧٩ .

ضبط اسم الصحاح

اختلف العلماء فى ضبط الصحاح ، أهو بكسر الصاد أم بالفتح ؟ ولم يرد عن المؤلف ضبطه ، وهو صالح أن ينطق بالكسر أو بالفتح ، ولا لوم على الناطق بأحدهما .

جاء فى المزهر عن أبى زكريا الخطيب التبريزى : يقال . بكسر الصاد ، وهو المشهور ، وهو جمع صحيح كظريف وظراف ، ويقال : بالفتح ، نعت مفرد مثل صحيح ، وقد جاء فعال ، بفتح الفاء لغة فى فعيل ، كصحيح وصحاح ، وشحيح وشحاح ، وبرىء وبراء .

وأنشد بعضهم بحضور الشيخ محمد بن أبى الحسن البكرى الصديقى المصرى قول الشاعر :

لله قاموس يطيب وروده ‏ ‏ ‏ أغنى الورى عن كل معنى أزهرى
نبذ الصحاح بلفظه والبحر من ‏ ‏ ‏ عاداته يلقى صحاح الجوهرى

فكسر الصاد من صحاح ، فقال الأستاذ : الصحاح لا تكسر ، فتعجب كل من كان بالمجلس من هذا الجواب مع سهولة اللفظ والتورية ، ويروى عن شيخ الإسلام الطبلاوى أنه قال : الصحاح ؛ بالفتح أفصح ، وأكثر استعمالا ، وقال البدر الدمامينى فى تحفة الغريب : هو بفتح الصاد ؛ اسم مفرد بمعنى الصحيح ، والجارى على ألسنة كثير كسرها على أنه جمع صحيح ، وبعضهم ينكره ، قال الإمام المحقق ابن الطيب ما معناه : حيث لم يرد عن المؤلف فى تخصيص أحدهما بالسند الصحيح ما يصار إليه ولا يعدل عنه ، فكلا الضبطين صحيح خلافاً لمن أنكر الفتح ولمن رجحه على الكسر . والمشهور الكسر . وندر أن ينطق أحد فى زماننا بالفتح .

آراء العلماء فى الصحاح

اتجه علماء اللغة من مؤلفى المعجات وغيرها إلى العناية بالصحاح ، والاعتماد عليه ، والإعجاب به ، والثناء الجم المستطاب عليه ، وعلى سبيل المثال — لا الحصر — نشير إلى بعض هذا القدر والإعجاب .

قال الثعالبى فى اليتيمة [١] : وله كتاب الصحاح فى اللغة ، وهو أحسن من « الجمهرة » وأوقع من « تهذيب اللغة » وأقرب متناولا من « مجمل اللغة » .

وفيه يقول أبو محمد إسماعيل بن محمد النيسابورى ، وعنده الكتاب بخط مؤلفه :

هذا كتاب الصحاح سيِّد ما صُنِّف قبل الصحاح فى الأدب
يشمل أنواعه ويجمع ما فُرِّق فى غيره من الكتب

وقال الباخَرْزى صاحب الدمية [٢] :

« وهذا الكتاب هو الذى بأيدى الناس اليوم ، وعليه اعتمادهم ، أحسن تصنيفه ، وجوَّد تأليفه ، وقرَّب متناوله ، وأَبَرَّ [٣] من ترتيبه على من تقدمه ، يدل وضعه على قريحة سالمة ، ونفس عالمة ، فهو أحسن من الجمهرة ، وأوقع من تهذيب اللغة ، وأقرب متناولا من مجمل اللغة ، هذا مع تصحيف

---

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٨٩ .
(٢) الدمية (ترجمة الجوهرى) . وانظر معجم الأدباء (٦ : ١٥٥) .
(٣) أبر : غلب وزاد . وفى الأصل آثر .

فيه فى مواضع عدة أخذها عليه المحققون ، وتتبعها العالمون ، ومَن ما ساء قط ، ومن له الحسنى فقط ؟ فإنه — رحمه الله — غلط وأصاب ، وأخطأ المرمى وأصاب ، كسائر العلماء الذين تقدموه ، أو تأخروا عنه ، فإنى لا أعلم كتاباً سُلِّمَ إلى مؤلفه فيه ، ولم يتبعه بالتتبع من يليه » .

ويقول القفطى[١] :

« وله كتاب الصحاح فى اللغة ، أكبر وأقرب متناولا من مجمل اللغة ، وهذا كتاب الصحاح قد سار فى الآفاق ، وبلغ مبلغ الرفاق ، ولما دخلت منه نسخة إلى مصر نظرها العلماء فاستجودوا مأخذها وقربه ، ولحوا فيها أوهاماً كثيرة انتدبوا لإصلاحها ، وزادوا فيها بعض ما لعله أخلَّ به من ألفاظ لغوية ؛ الحاجة داعية إليها ، فلا شبهة فى أنه نقلها من صُحُفٍ فصحَّف ، وانفرد فى تصريف الكلمة برأيه فحرَّف » .

ويقول التبريزى[٢] :

« وكتاب الصحاح هذا حسن الترتيب[٣] ، سهل المطالب لما يراد منه ، وقد أتى بأشياء حسنة ، وتفاسير مشكلات من اللغة ، إلا أنه مع ذلك فيه تصحيف لا يُشَكُّ فى أنه من المصنِّف لا من الناسخ ؛ لأن

---

(١) إنباه الرواة (١ : ١٩٥) .
(٢) كشف الظنون فى رسم الصحاح .
(٣) أشار بعضهم إلى طريقة البحث فى الصحاح نظما فقال :

إذا رمت كشفا فى الصحاح للفظة ... فآخرها للباب والبدء للفصل
ولا تعتمد فى بدئها وأخيرها ... مزيداً ولكن اعتمادك للأصل

وقال آخر :

إن شئت كشفا إلى تحقيق مسألة ... من الصحاح فلا يعوزك إسهاب
فالفصل خذه مضافا نحو أوله ... ونحو آخره فليعنك الباب

الكتاب مبنى على الحروف ، ولا تخلو هذه الكتب الكبار من سهو فيها أو غلط ، غير أن القليل منه إلى جنب الكثير الذى اجتهدوا فيه ، وأتعبوا أنفسهم فى تصحيحه معفوٌّ عنه » .

وقال ابن منظور مؤلف « لسان العرب » فى مقدمة معجمه الكبير :

« ولم أجد فى كتب اللغة أجمل من « تهذيب اللغة » لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى ، ولا أكمل من « المحكم » لأبى الحسن بن إسماعيل ابن سيده الأندلسى — رحمهما الله — وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق ، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيات الطريق ، غير أن كلا منهما مطلب عسر المهلك ، ومنهل وعر المسلك ، وكأنَّ واضعه شرع للناس مورداً عذباً وحلّأهم عنه ، وارتاد لهم مرعى مريعاً ومنعهم منه ، قد أخر وقدم ، وقصد أن يعرب فأعجم ، فرّق الذهن بين الثنائى المضاعف والمقلوب ، وبدّد الفكر باللفيف والمعتلِّ والرباعى والخماسى فضاع المطلوب ، فأهمل الناس أمرهما ، وانصرفوا عنهما ، وكادت البلاد — لعدم الإقبال عليهما — أن تخلو منهما ، وليس لذلك سبب إلا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب ، ورأيت أبا نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى ، قد أحسن ترتيب مختصره ، وشهره بسهولة وضعه ، فخفَّ على الناس أمره فتناولوه ، وقرُب عليهم مأخذه فتداولوه وتناقلوه » .

وقال السيوطى[1] ؛ بعد أن سرد طائفة من كتب اللغة المشهورة :

« وغالب هذه الكتب لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيح بل جمعوا فيها ما صح وغيره ، وينبهون على ما لم يثبت غالباً . وأول من التزم الصحيح

(١) المزهر ١ : ٩٧ .

مقتصرا عليه : الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى ، ولهـذا سَمَّى كتابه الصحاح » .

ثم قال : « وكان فى عصر صاحب الصحاح ابنُ فارس ، فالتزم أن يذكر فى مجمله الصحيح . قال فى أوله : قد ذكرنا الواضح من كلام العرب ، والصحيح منه دون الوحشىّ والمستنكر . وقال فى آخر المجمل : قد توخيت فيه الاختصار ، وآثرت الإيجاز ، واقتصرت على ما صح عندى سماعاً ، ومن كتاب صحيح النسب مشهور ، ولولا توخِّى ما لم أشكك فيه من كلام العرب لوجدت مقالا » .

وقال صاحب القاموس — وهو أحد منافسى الجوهرى وخصومه — فى خطبة كتابه :

« لما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهرى ، وهو جدير بذلك ؛ الخ » . إلى أن يقول : « واختصصت كتاب الجوهرى من بين الكتب اللغوية — مع ما فى غالبها من الأوهام الواضحة والأغلاط الفاضحة — لتداوله واشتهاره بخصُوصِه ، واعتماد المدرسين على نقوله ونصوصه » .

وقال الزبيدى شارح القاموس فى مقدمة التاج[١] :

« أول هذه المصنفات وأعلاها عند ذوى البراعة وأغلاها : كتاب الصحاح للإمام الحجة أبى نصر الجوهرى ، وهو عندى فى ثمان مجلدات بخط ياقوت الرومى ، وعلى هوامشه التقييدات النافعة لأبى محمد بن برى وأبى زكريا التبريزى ، ظفرت به فى خزانة الأمير أزبك » .

---

(١) التاج (المقدمة ٣ — ٤) .

وقال ابن الطيب الفاسى[١] محشى القاموس ؛ وقد انتصر للجوهرى :

« إن الجوهرى خطيب المنبر الصرفى ، وإمام المحراب اللغوى » .

وقال أيضاً : « إن الله قد رزق الجوهرى شهرة فاق بها كل من تقدمه ومن تأخر عنه ، ولم يصل شىء من المصنفات اللغوية فى كثرة التداول والاعتماد — على ما فيه — إلى ما وصل إليه كتاب الصحاح ، وإن فيه من الفوائد المهمة التى أهملها صاحب القاموس كثيراً من القواعد الصرفية ، والشواهد المحتاج إليها فى العلوم الشرعية والأدبية » .

وقال ابن برى : « إن الجوهرى أنحى اللغويين » .

وقال أديب الشام العلامة عبد الغنى بن إسماعيل الكنانى المقدسى :

من قال قد بطلت صحاح الجوهرى   لما أتى القاموس فهو المفترى

قلت : اسمه القاموس ، وهو البحر إن   يفخر فمعظم فخره بالجوهر

وذلك رد على من قال :

مُذْ مد مجد الدين فى أيامه   من بعض أبحر علمه القاموسا

ذهبت صحاح الجوهرىِّ كأنها   سحر المدائن حين ألقى موسى

وقال آخر :

مولاى إن وافيتُ بابك طالباً   منك الصحاح وليس ذاك بمنكر

البحر أنت ، وهل يلام فتى أتى   للبحر كى يلقى صحاح الجوهر

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن الطيب بن محمدّ الفاسى المولود بفاس سنة ١١١٠ هـ والمتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٧٠ هـ [مقدمة تاج العروس] .

وقال آخر :

نقل الأراكُ بأن ريقةَ ثغره   من خمْرة مزجت بماء الكوثر
قد صح ما نقل الأراكُ لأنه   يرويه حقاً عن صحاح الجوهر

وغير هذا كثير مفرق فى الكتب ، واكتفينا بنقل ما نقلناه لنشير إلى اهتمام العلماء البالغ بصحاح الجوهرى حتى يقف القارىء على ما لقى الصحاح وصاحبه من التجلة والتكريم اللذين صاحباهما حتى الآن .

وإن الدراسة التى قمنا بها للصحاح ، والفصل الذى عقدناه تحت عنوان « أثر الصحاح » يبينان بوضوح مدى مالقى الصحاح وصاحبه من قدْر العلماء وإكبارهم واهتمامهم ؛ من عرب وغير عرب ، مسلمين وغير مسلمين ، ومدى ما بعثه من ألوان النشاط العظيم فى محيط العربية وعلومها ، وما كان له من أثر بارز مشهود فى توجيه التأليف المعجمى ، ويدلان على أنه كان — وما يزال — مبعث نشاط كبير فى محيط اللغة وتصنيف المعجمات ، وحسبه أن المشتغلين بالتأليف اللغوى جعلوه معتمَدَهم ، بل جعله بعضهم كل همه ومرجعه .

الصحاح والمعاجم الأخرى

المعجمات التى ألفت قبل الصحاح لم تكن فى درجة الصحاح ، فالعين كان ناقصا — كما يزعمون — وأكمله بعض طلبة الخليل فغلطوا فيما أضافوه إليه كثيرا ، مما حمل العلماء إلى الشك فيه وإنكار نسبته إليه رَبَأً بالخليل أن يُنْسَبَ إليه خطأ لم يصدر منه . وكتاب الجيم لأبى عمرو

الشيبانى معجم مختصر ، ومعجم الغريب المصنف لأبى عبيد القاسم ابن سلام الذى فيه أكثر من سبعة عشر ألف حرف كـكتاب الجيم فى الاختصار وإغفال الاشتقاق ؛ أما الجمهرة لابن دريد فقد جاءت فيه موادُّ مفتعلة لا أصل لها فى العربية ، وترتيب مواده صعب لا يفيد الباحث ولا يعينه فى الوصول إلى ما يقصد إلا بعد جهد جهيد ؛ وديوان الأدب للفارابى — خال الجوهرى — معجم جيد ، ولكنه لا يرتفع إلى درجة الصحاح لما فيه من تعقيد وصعوبة ، ولإغفاله العناية بالاشتقاق — مثل أبى عمرو الشيبانى فى الجيم — وإهماله تحديد المواضع والأمكنة ، وتركه تفسير كثير من المفردات ، وتشتيت شمل المادة الواحدة باختلاف صيغها ، وإهماله الحروف والمبنى للمجهول ، وتهذيب اللغة للأزهرى كالجمهرة فى المآخذ ، إلا أن الأزهرى غير متهم بالافتعال . والبارع للقالى معجم ممتاز ولكنه غير مشهور ولا متداول ، وفيه مآخذ كثيرة أهمها : التكرار المعيب لما يفسره وللشواهد التى يحشدها ، بل أنه ينسى أحيانا فيعيدها هى نفسها ، وطريقة ترتيبه تشبه طريقة الخليل إلا بعض تغيير يسير ، وهى طريقة مجهدة متعبة مغلقة الأبواب أمام الباحث .

والمعجمات الأُخَر لم تخل من عيوب المعجمات التى ذكرناها .

منهج الصحاح

ومع أن الصحاح أُلِّف فى عصر عظمت فيه العناية باللغة ، وازدخر بأئمة العربية الذين حرصوا على جمع اللغة وضبْطها ، وشرح معانى مفرداتها ، فإن الجوهرى كان أبرز أولئك الأئمة ؛ ومردُّ ذلك أن صحاحه كان آية فى

فن التأليف المعجمى ، سبق غيره فى هذا السبيل بابتكاره منهجا جديدا لم يُسبَق إليه ، منهجا قرَّب اللغة إلى الباحثين ، ومهد الطريق للشُّداة .

وهذا النظام الجديد غير المعروف جعل للصحاح المنزلة الرفيعة التى تفرَّد بها بين المعجمات التى سبقته أو عاصرته ، وجعل الصحاحَ نفسه يمضى فى طريق الشهرة وسيرورة الذكر قُدُما ، ومهَّد له الطرق حتى كثر تداوله واعتماد الناس عليه .

ولم يكن النظام الجديد وحده الذى حمل الناس على إكبار الصحاح واتخاذه مرجع اللغة الأول ، بل أغراهم به أن المؤلف أخذ نفسه بما لم يأخذ غيره به نفسَه ، فالتزم إيراد ما صَحَّ عنده رواية ودراية وسماعا مشافهة من أصحاب اللغة الأصلاء .

قال السيوطى : « وغالب هذه الكتب لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيح ، بل جمعوا فيها ما صح وغيره ، وينبهون على ما لم يثبت غالبا ، وأول من التزم الصحيح مقتصرا عليه : الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى ، ولهذا سمى كتاب الصحاح[١] » .

أما النظام الجديد الذى ابتكره الجوهرى وأشار إليه فى مقدمته عندما ذكر أنه أودع كتابه ما صح عنده من هذه اللغة على ترتيب لم يسبق إليه ؛ وتهذيب لم يُغلَبْ عليه ، فهو أنه سار على نهج جديد يعد فتحاً فى تأليف المعجم العربى سحر الناس وبهرهم .

---

(١) المزهر ١ : ٧٩ .

ترك الجوهرى طريقة الخليل التى اتبعها فى العين عندما رتبه على مخارج الحروف ؛ وأغفل نظامه فى ذكر الكلمة وما ينشأ عنها بالقلب ، يذكر الكلمة ومقلوباتها فى موضع واحد ، كأن يذكر « الضرم » فى كتاب الضاد ، ويتبعها بذكر كل كلمة تتكون من «ض ر م» بقلبها إلى مختلف التراكيب ، فيذكر الضمر ثم الرضم ثم المضر ثم الرمض ثم المرض فى موضع واحد ، فإن أُهمِل شىء من أنواع القلب أشار إلى إهماله[١] ، وترك طريقة كتاب الجيم لأبى عمرو الشيبانى الذى رتب موادَّه على الحروف الهجائية دون مراعاة الحرف الثانى والثالث .

وترك تقسيم الكتاب إلى أبواب بحسب أبنية الألفاظ أسماء أو أفعالا ؛ كما ترك طريقة أبى عبيد فى « الغريب المصنف » وترك كل منهج من مناهج من تقدموه واتخذ منهجاً جديداً ابتكره .

ولئن اتهم بعض ذوى الرأى الخليل باقتباس طريقته فى ترتيب العين على مخارج الحروف من طريقة اللغة السنسكريتية فى ترتيب حروف هجائها على مخارج الحروف ، أو أن طريقة الخليل مسبوقة فإن الجوهرى سابق متفرد ؛ ولاشك فى سبقه وتفرده ، لأنه ابتدع نظاماً خاصاً بكرا سَبَقَ عليه غيرَه ولحق به من جاء بعده .

ونظام الجوهرى : ترتيبه الصحاح على حروف المعجم ، واعتبار آخر حرف فى الكلمة بدلا من الأول ، وجَعْلُه الباب للحرف الأخير ، والفصل للأول ، مثل : شرف ؛ يبحث عنها فى باب الفاء فصل الشين ، ويذكر

---

(١) شرح خطبة الكافى فى اللغة .

فى الباب كل كلمة فى اللغة وصلت إليه وصحت لديه عروبتها الصحيحة على أن تكون منتهية بحرفه، ويوزع الكلمات على الفصول؛ وهى ثمانية وعشرون فصلا بعدد حروف المعجم كالأبواب ، إلا أن بعض الأبواب تقل فصولها عن ثمانية وعشرين ، وهو الأكثر ، فباب الراء — مثلا — ينقص منه فَصل اللام لأنه ليس فى العربية كلمة أولها لام وآخرها راء، وأقل الأبواب فصولا باب الظاء ، فإن فصوله ستة عشر .

ويحشد فى الباب كل الكلمات التى تتفق فى الحرف الأخير ، فباب الألف المهموزة يذكر فيه الكلمات التى تنتهى بهمزة مثل : أجأ ، بأبأ ، تأتأ ، ثأثأ ، جأجأ ، وهكذا حتى ينتهى إلى يأيأ ، وبهذه المادة ينتهى الباب كله ، ويسمى المادة التى تبدأ فى الباب بالحروف التى تبتدىء بها فصلا ، فمادة « أجأ » فى فصل الألف المهموزة ، و « بأبأ » فى فصل الباء ، و « تأتأ » فى فصل التاء ، و « ثأثأ » فى فصل الثاء ، وهكذا يسير حسب ترتيب الحروف المعروف .

وقد ذكر بعض العلماء أن سبب اختيار الجوهرى — أو من تبعه — ترتيب معجمه على أواخر الكلمات : التيسير على الشعراء والكتّاب النظم والنثر ، فالكتاب كانوا يلتزمون السجع ، والشعراء القوافى ، فهم فى حاجة إلى الكلمات باعتبار أواخرها ، أو أن غلَبَة السجع أو نظم القوافى هدت مؤلفى المعجمات — وعلى رأسهم الجوهرى — إلى هذه الطريقة .

ونحن لا نقبل هذا الرأى ونراه غير علمى ، وإذا صح هذا السبب فما أهون شأن مؤلفى المعجمات ، وما أضأل القصد ! .

والذى نراه أن منهج الجوهرى فى ترتيب صحاحه باعتبار أواخر الكلمات غير مقصود منه تيسير الأمر على الشعراء والكتّاب ، حتى يجدوا السجع وكلمات القوافى دون عناء ، بل أراد الجوهرى أن يؤلف معجما للناس جميعا دون أن ينظر إلى طائفة واحدة يُؤْثِرُها بعمله العظيم .

أما المنهج الذى اتبعه فهو من ابتكاره ، وهداه إليه علمه الواسع بالصرف واشتغاله به ، فهو قد رأى أن ميزان الكلمة الفاء والعين واللام ، والتغيير يلحق ما قبل لام الكلمة ، وتنقلب « فعل » بين أحوال كثيرة ، وتأتى فى صور شتى ؛ وهى : أَفْعَلَ وَفَعَّلَ وفاعَلَ وانْفَعَلَ وافْتَعَلَ وافعَلَّ وتَفاعَلَ وتَفَعَّلَ واسْتَفْعَلَ وافعَوْعَلَ وافعَوَّل وافعَالَّ .

وهذه — هى — أوزان مزيد الفعل الثلاثى المجرد ، ويظهر منها أن التغيير تناول الفاء والعين ، فتارة ، يتقدم الفاء حرفٌ ، وتارة حرفان ، وتارة ثلاثة ، أما العين فقد تنفصل عن الفاء وقد تنفصل عن اللام ، وقد تضعَّف .

أما لام الكلمة فثابتة لا تتغير مهما اختلفت صورة الكلمة إلا فى حالات قليلة ، ومتى لحقها التغيير أو زيد بعدها حرف أو حرفان فإن الكلمة تنتقل إلى أوزان أخرى ، ولا تعتبر من الثلاثى ، بل تصير رباعية أو خماسية[١] .

رأى الجوهرى أن الفاء والعين لا تثبتان فى موضع ؛ ولا تبقيان على حال ، أما اللام فثابتة ، فَتَرَكَ ترتيب الكلمات على أوائل الحروف لأن فيه مَتْيَهة الباحث الذى لا يعرف التصريف والمجرد والمزيد ، فكلمة « أَكْرَمَ » واستَنْوقَ وتَرَهَّلَ ومحَجَّة ؛ تضلل الباحث الشادى ، بل رأيت بعض العلماء يضلون فى الكشف عن مواضعها من المعجم ، ولا يعرف فى أى حرف هى .

(١) ليس هذا تغييراً في لام الكلمة، فهي ثابتة لا تتغير، وإن زيد بعدها حرف فتعتبر من جنسها. وأما اتصال الضمائر بآخر الكلمة فلا يغير من الأمر شيئاً.

أما طريقة الجوهرى فمأمونة هادية ؛ فيجد الباحث « أكرم » وكل ما تفرَّعَ من مادة « كرم » فى باب الميم ، واستنوق فى باب القاف ، وترهل فى باب اللام ، ومحجة فى باب الجيم ، وإذا كان الباحث عارفاً بالمجرد والمزيد ؛ فإنه سيجد أكرم فى فصل الكاف،واستنوق فى فصل النون ، وترهل فى فصل الراء ، والمحجة فى فصل الحاء .

وأعتقد أن ما ذكرته هو الذى حمل الجوهرى على اتباع منهجه الذى ابتكره ابتكارا ، أما السبب الذى رآه بعض العلماء — وذكرناه — فهو رأى لا قيمة له علمياً .

وأعانه على هذا الإبداع فى نظامه علمه الواسع بالنحو والصرف حتى قيل فى وصفه : إنه « خطيب المنبر الصرفى وإمام المحراب اللغوى[1] » وإنه « أنحى اللغويين[2] » .

وأفرد لكل حرف من حروف الهجاء باباً خاصاً به إلا الواو والياء فجمعهما فى باب واحد ، ولهذا قدم الهاء على الواو ليسعه جمع الواو والياء فى باب ، وختم المعجم بالألف اللينة ، وهى غير المهموزة وغير المنقلبة عن واو أو ياء ، ويذكر فى الفصول الكلمات الثنائية أو الثلاثية أو الرباعية ، دون أن يرتب ذلك على نسق واحد دائما .

ونظر فى ترتيبه الموادَّ إلى المجرد مُغْفِلا أحرف الزيادة أو الحرف المبدل

---

(١) كلمة ابن الطيب الفاسى (مقدمة تهذيب الصحاح ٤٤) .

(٢) كلمة ابن برى (مقدمة تهذيب الصحاح ٤٥) .

من حرف آخر وفقاً لقواعد الصرف ، فإذا أردنا البحث عن « المحجة » و « الحاجة » جردنا الأول من المزيد وأعدنا الثانى إلى أصله ، فنبحث عن « المحجة » فى حجج ، وعن « الحاجة » فى حوج باب الجيم فصل الحاء .

وقد أشار بعضهم إلى طريقة البحث فى الصحاح نظما فقال :

إذا رمتَ كشفاً فى الصحاح لِلَفظةٍ فآخرُها للبابِ والبدْء للفصل
ولا تَعتَمدْ فى بَدْئها وأخيرِهَا مَزيداً ، ولكن اعتمادك للأصلِ

وأخذ الجوهرى بنظام آخر جديد فى محيط التأليف المعجمى بعد أن قيَّد نفسه بالباب والفصل ، ألا وهو أن ينظر إلى الحرف الثانى والثالث فى ترتيب الكلمات ، ويقدم ما كان حقه التقديم ، فيجعل — مثلا — أرب قبل أزب ، وأزب قبل أسب ، وأسب قبل أشب ، وهكذا ؛ ويجعل فروجة قبل فلوجة ، وعذلج قبل عرفج ، وعرفج قبل عسلج ، وعبقر قبل عبهر .

ولا يكتفى بهذا فى الثلاثى ، بل يتَّبِعه فيما زاد على الثلاثى كأن يكون رباعياً أو خماسياً ، فيلتزم فيه — بعد الباب والفصل — الحرف الثانى ثم الثالث ثم الرابع .

وهذا الالتزام جعل نظامه فى ترتيب معجمه بِدْعا جميلا رائعاً صان معجمه من الخلط والاضطراب ، ووسمه بطابع الدقة العلمية المنهجية فى التأليف المعجمى ، ووجَّهه وجهة حسنة ما زلنا حتى الآن نأخذ به فى تأليف المعجمات ، مع أننا استبدلنا بترتيب الجوهرى ترتيب الكلمات حسب أوائل الحروف فى المعجمات الحديثة .

وقد فخر الجوهرى بنظامه المبتكر فى مقدمته الموجزة عند ما قال :

« على ترتيب لم أسبق عليه » وحقَّ له أن يفخر ؛ وينافرَ مؤلفى المعجمات فينفِرَهم بما ابتدع وجدّد .

ولعل من الحق والإنصاف أن نذكر أن بين الفارابى والجوهرى نقطةَ التقاء ، وهى تقسيم الكتاب إلى أبواب وفصول ، والتزام الحرف الثانى والثالث والرابع من أحرف وسط الكلمة فى ترتيب الكلمات عند توزيعها على الأبواب والفصول .

والتزم — فوق هذا — طريقة للضبط بالحركات لم يتَّبعها أحد قبله ، فإذا أراد ضبط اسم قال : « الكُداد[١] ؛ بالضم » و « الكُرْد ؛ بالضم » و « الكِرْديدة ؛ بالكسر[٢] » فهو يريد أن يضبط الحرف الأول من الكلمات الثلاث ، وإذا قال : بالتحريك ؛ كقوله : « الثَّرَد ؛ بالتحريك[٣] » و « الجَحَد ؛ بالتحريك[٤] » فالضبط للحرفين الأولين من الثرد والجحد ، وإذا قال : بالتشديد فى مثل قوله . « حلَّاب ، بالتشديد[٥] » فالمعروف — ضرورة — أن اللام هى المشددة ، وإذا كان فى الكلمة لغات أشار ؛ كقوله : « حوب ؛ فيه ثلاث لغات[٦] » ويذكر اللغات ويكرر الكلمة بعدد اللغات التى وردت فيها .

---

(١) راجع من الصحاح مادة كدد .
(٢) » » » » كرد .
(٣) » » » » ثرد .
(٤) » » » » جحد .
(٥) » » » » حلب .
(٦) » » » » حوب .

وإذا أراد ضبط الفعل الماضى قال : « جُجِدَ الرجلُ ، بالكسر[١] » و « ذَؤُب الرجل[٢] ، بالضم » والقصد عين الفعل . وإذا قال فى مثل هذا التركيب : « جَدَّ فى الأمر يَجِدُّ ؛ بالكسر[٣] » و « حَسَبْته أحسُبُه ؛ بالضم[٤] » و « حَسِبْتُه صالحاً أَحْسَبُه ؛ بالفتح[٥] » فالقصد عين الفعل المضارع ، لأن الضبط جاء عُقْبان المضارع .

الأبواب والفصول

الباب فى الصحاح آخر الكلمة ، والفصل أولها ، فإذا أراد باحث كلمة « شرف » طرق باب الفاء ، ونظر فى فصل الشين ، ولابد للباحث أن يبحث عن المجرد ويترك ما زيد فى الكلمة من أحرف اتباعاً للميزان الصرفى ، فكلمة « استغفر » يبْحَثُ عنها فى مادة « غفر » لأن ما قبل الغين مزيد .

ورتب الأبواب على حروف المعجم ، وكذلك صنع فى الفصول ، وجعل الأبواب ثمانية وعشرين بعدد حروف المعجم وترتيبها ، وجعل كل باب ثمانية وعشرين فصلا ، إلا أن يُهْمَل من الأبواب جنس من الفصول .

والأبواب التى ذكرها سبعة وعشرون ، إلا أنه لما كانت الألف على قسمين : مهموزة ولينة ، جعل الأولى فى صدر الكتاب ، وفتح للأخيرة

---

(١) راجع من الصحاح مادة جحد .
(٢) » » » » ذأب .
(٣) » » » » جدد .
(٤) » » » » حسب .
(٥) » » » » حسب .

— غير المنقلبة عن واو أو ياء — باباً ختم به الكتاب ، وبذلك أصبحت عدّة الأبواب ثمانية وعشرين .

والأبواب ذوات الفصول سبعة وعشرون ، لأن باب الألف اللينة لا فصول فيه ، وكل باب ثمانية وعشرون فصلا ، ويكون مجموع الفصول ستة وخمسين وسبعمائة ، إلا أن أكثر الأبواب ناقصة الفصول ، والأبواب الكاملة خمسة وهي : الألف المهموزة ، واللام ، والميم ، والنون ؛ وباب المعتل ، والاثنان والعشرون باباً الباقية ناقصة الفصول ، وليست كل الأبواب متساوية فيما نقص منها من فصول ، فمن الأبواب ما نقص منه فصل ، ومنه ما نقص منه فصلان ، ومنه ما نقص منه ثلاثة ، ومنه خمسة وستة وسبعة وثمانية وتسعة وعشرة واثنا عشر .

فما نقص منه فصل واحد : باب الراء ، نقص منه فصل اللام .

وما نقص منه فصلان ؛ أربعة أبواب : الباء ، والتاء ، والدال ، والقاف ، نقص من باب الباء : فصل الفاء والميم ، ومن التاء : فصل الضاد والظاء ، ومن الدال : فصل الظاء والياء ، ومن القاف : فصل الظاء والكاف .

وما سقط منه ثلاثة فصول ؛ أربعة أبواب : الجيم والطاء والعين والفاء ، فسقط من الجيم : فصل الذال والظاء والياء ، ومن الطاء : التاء والدال والظاء ، ومن العين : الحاء والعين والغين ، ومن الفاء : الباء والميم والياء .

وما سقط منه خمسة فصول بابان هما : الخاء والسين ؛ سقط من الخاء :

فصل الحاء والظاء والعين والغين والياء ، ومن السين : فصل الثاء والذال والزاى والصاد والظاء .

وما نقص منه ستة فصول : باب الثاء وباب الزاى ، نقص من الثاء : فصل الذال والزاى والسين والصاد والظاء والياء ، ومن الزاى : فصل الثاء والذال والسين والضاد والظاء والياء .

وما نقص منه سبعة فصول : باب الحاء وباب الصاد ، نقص من الحاء : فصل الثاء والخاء والظاء والعين والغين والهاء والياء ، ومن باب الصاد : فصل الثاء والذال والزاى والسين والضاد والطاء والظاء .

وما نقص منه ثمانية فصول ؛ باب الذال المعجمة : نقص منه : فصل التاء والثاء والذال والسين والصّاد والضاد والظاء والياء .

وما نقص منه تسعة فصول ؛ ثلاثة أبواب : الغين والكاف والهاء ، نقص من الغين : فصل الجيم والذال والطاء والظاء والعين والغين والقاف والكاف والياء ، ومن باب الكاف : فصل الثاء والجيم والخاء والذال والطاء والظاء والعين والقاف والياء ، ومن باب الهاء نقص : فصل الثاء والحاء والخاء والذال والزاى والضاد والطاء والظاء والغين .

وما نقص منه عشرة فصول ؛ باب الشين وباب الضاد : نقص من باب الشين : فصل التاء والثاء والذال والزاى والشين والصاد والضاد والظاء واللام والياء ، ومن باب الضاد : فصل التاء والثاء والذال والزاى والسين والصاد والضاد والطاء والظاء والياء .

وما سقط منه اثنا عشر فصلا : باب الظاء ، نقص منه : فصل الألف والتاء والثاء والخاء والذال والزاى والسين والصاد والضاد والطاء والظاء والهاء .

ونخلص من هذا إلى أن الفصول الناقصة أربعة وعشرون ومائة ، ومجموع ما يضم الصحاح من الفصول اثنان وثلاثون وستمائة فصل .

مزايا الصحاح

الصحاح خير المعجمات التى سبقته أو عاصرته قاطبة ، لأن له مزايا وخصائص يفضل بها غيرها ، ومن هذه المزايا : التماسه الصحيح الذى لا خلاف فيه ، وسهولة تناوله ومأخذه ، ويُسْر البحث فيه والوصول إلى الكلمة المقصودة دون جهد أو عناء ، واختصاره فى الشرح والتفسير ، وتركه الفضول الذى لا غناء فيه ، وجمال أسلوبه فى الشرح ، وذكره شواهد من الشعر الرفيع وكلام العرب غير المصنوع ، وتجاوزه ذكر أسماء من ينقل عنهم غالباً رغبة فى الإيجاز ، وعنايته بمسائل النحو والصرف ، وإشارته إلى الضعيف والمنكر والمتروك والردىء المذموم من اللغات ، وإلى العامى والمولد والمعرَّب ؛ والإتباع والازدواج والمشترك والمفاريد والنوادر ، والألفاظ التى لم تأت فى الشعر الجاهلى وذكرها الإسلام ، وإلى الأضداد .

وسمة الصحاح — بعد كل هذا — أنه يجمع الصحيح مع الترتيب المحكم ، والتنسيق المنظم ، والاختيار الموفق .

ولا يسعنا أن نمثل لكل هذه المزايا ، فالكتاب بين يدى القارىء ، والصُّوى التى أقامها الجوهرى تدل عليها إلا أن هناك بعض المزايا جديرة بالإشارة .

ومن هــذه المزايا : إشارته إلى الضعيف والمنكر والمتروك والردىء والمذموم من اللغـات ، مثال ذلك قوله : جَرَعْتُ المـاء بالفتح ، لغة أنكرها الأصمعى[١] ، وجَفَأْتُ القدرَ : كفأتها وصببت ما فيها ، ولا تقل : أجفأتها ، وأما الحديث الذى فيه : « فَأَجْفِئُوا قدورهم بما فيها » فهى لغة مجهولة[٢] ، وأفلطنى ، لغة تميمية قبيحة فى أفلتنى[٣] ، وأوقف — بالألف — لغة رديئة[٤] ، وأَعَقَّتْ الفرس فهى عقوق ، ولا يقال : مُعِقٌّ إلا فى لغة رديئة[٥] ، وغَلَقْتُ الباب غلقاً ؛ لغة رديئة متروكة[٦] ، ومحقه الله ؛ وأمحقه لغـة رديئة فيه[٧] ، وماء ملح ، ولا يقال : مالح إلا فى لغة رديئة[٨] ، ولا يقال : أشر الناس إلا فى لغة رديئة[٩] .

وأشار إلى المفاريد والنوادر كقوله : التَّوْأَبانِيَّان : قادمتا الضرع . قال ابن مقبل :

فمرَّتْ على أطراف هر عشية　　لهـا توأبانيان لم يتفلفلا

سمى ابن مقبل خلفى الناقة : توأبانيين ، ولم يأت به عربى[١٠] ، والشمَل — بالتحريك — لغة فى الشَّمْل . أنشد أبو زيد فى نوادره للبُعَيْث :

وقد ينعش الله الفتى بعد عثرة　　وقد يجمع الله الشتيت من الشَّمَلْ

---

(١) الصحاح ١ : ٥٨١ .
(٢) « ١ : ٦ .
(٣) « ١ : ٥٦١ .
(٤) « ٢ : ٦٥ .
(٥) « ٢ : ١٠٧ .
(٦) « ٢ : ١١٢ .
(٧) « ٢ : ١٢٠ .
(٨) « ١ : ١٩٥ .
(٩) « ١ : ٣٣٨ .
(١٠) « ١ : ٣٢ .

قال أبو عمر الجَرْمى : ماسمعته بالتحريك إلا فى هذا البيت[١] ، وأعقَّتْ الفرس فهى عقوق ، من النوادر[٢] .

و « الـكَمْءُ » واحدة الـكَمْأةِ ؛ على غير قياس ، وهو من النوادر[٣] ، وأسهب الرجل ، فهو مُسْهَب[٤] ، وألفج الرجل — أى أفلس — فهو مُلْفَج[٥] ، وأحصن الرجل فهو مُحْصَن[٦] ؛ من النوادر[٧] ، والحبة من العنب عِنَبَة ، وهو بناء نادر ، لأن الأغلب على هذا البناء الجمع ، نحو : قرد وقِرَدَة وفيل وفِيَلَة وثور وثِوَرَة ، إلا أنه قد جاء للواحد وهو قليل ، نحو : العِنَبَة والتِّوَلَة والحِبَرَة والطِّيَرَة والطيبَة والخِيَرَة ولا أعرف غيره[٨] » .

وأشار الجوهرى إلى المعرّب بعد أن عرّفه بقوله : « تعريب الاسم الأعجمى : تتفوه به العرب على مناهجها ، تقول : عرّبْتُه العرب وأعربْتُه أيضا[٩] » . وذكر مئات الـكلمات المعربة ؛ وأشار إلى الأسانيد فى بعضها ، ومن المعربات التى جاءت فى الصحاح : المهندس[١٠] (المهندز) والدولاب[١١] ، والبخت[١٢] ،

---

(١) الصحاح ١ : ٢٠٢ .

(٢) « ٢ : ١٠٧ وكان القياس أن يكون « معق » لأنه من باب أكرم يكرم ، جاء من النوادر ، أما « معق » فلغة قبيحة .

(٣) الصحاح ١ : ٢٢ .

(٤) « ١ : ٦٤ .

(٥) « ١ : ١٦٢ .

(٦) « ٢ : ٣٦٦ .

(٧) « ١ : ١٦٢ .

(٨) « ١ : ٨٥ .

(٩) « ١ : ٨٠ .

(١٠) « ١ : ٤٤٠ .

(١١) « ١ : ٥١ .

(١٢) « ١ : ١١٣ .

والبوس[١] ، والدهليز[٢] ، والدرز[٢] — واحد دروز الثوب — والطراز[٣] ، والإفريز[٤] ، والصك[٥] .

وأشار إلى المولد ، فذكر منه كلمات كثيرة ؛ مثل الطنز بمعنى السخرية[٦] ، والبرجاس[٧] ، والطرش[٨] ، والمـاش[٩] ، والعفص[١٠] ، والعجة[١١] ، والمخرقة[١٢] ، والجبر[١٣] ، والفسر والتفسرة[١٤] ، والبُحران[١٥] ، والـكُنه[١٦] ، والجعس[١٧] .

وتفرد الجوهرى بذكر كثير من مسائل النحو والصرف ، وهى مبثوثة فى كل أبواب الـكتاب ، مثل قوله[١٨] : « إذا نسبت إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم قلت مَدَنِىٌّ ، وإلى مدينة المنصور قلت : مدينى ، وإلى مدائن كسرى قلت : مدائِنِىٌّ » .

ولم أقف على مثل هـــذه التفرقة فى النسب إلى مدينة فى كتاب قبل الصحاح .

وعنى الجوهرى بفقه اللغة فضمن كتابه كثيراً من البحوث والآراء التى

---

(١) الصحاح ١ : ٤٤٣ .
(٢) الصحاح ١ : ٤٢٨ .
(٣) « ١ : ٤٣٠ .
(٤) « ١ : ٤٣٤ .
(٥) « ١ : ١٣٩ .
(٦) « ١ : ٤٣١ .
(٧) « ١ : ٤٤٣ .
(٨) « ١ : ٤٩١ .
(٩) « ١ : ٤٩٧ .
(١٠) « ١ : ٥٠٩ .
(١١) « ١ : ١٥٦ .
(١٢) « ٢ : ٧٩ .
(١٣) « ١ : ٢٩٥ .
(١٤) « ١ : ٣٨٢ .
(١٥) « ١ : ٢٨٣ .
(١٦) « ١ : ٤٣١ .
(١٧) « ١ : ٤٤٥ .
(١٨) « ٢ : ٢١٨ .

تتصل به ، فعرض فى غير موضع لبيان المناسبة بين الألفاظ ومعانيها ، والفوارق الدقيقة بين مدلول الكلمات ، كقوله : « فصم الشىء كسره من غير أن يبين[١] ، وقصمتُ الشىء قصما ، إذا كسرتَه حتى يبين[٢] ، والخضم : أكل بجميع الفم ، والقضم ؛ دون ذلك[٣] ، ويقال : طويل وطُوال ، فإذا أفرط فى الطول قيل : طُوّال[٤] ، والعُجَاب : الأمر يتعجب منه ؛ والعُجّاب ، أبلغ منه[٥] . كما عرض للتفرقة بين معانى الألفاظ المتقاربة كقوله : المخطىء من أراد الصواب فصار إلى غيره ، والخاطىء : من تعمد لما لا ينبغى[٦] » .

وأشار إلى المشترك ، وهو ما اتفق لفظه واختلف معناه ؛ كالأرض : وهى المعروفة ، وكل ما سفل ، وأسفل قوائم الدابة ، والنفضة ، والزكام ، ومصدر أرضت الخشبة تؤرض أرضاً فهى مأروضة ، إذا أكلتها الأرضة[٧] .

وعنى بالاشتقاق الكبير — أو المقاييس كما يسميه ابن فارس — وهو دوران المادة حول معنى أو معان تشترك فيها المفردات المتولدة من مادة واحدة ، وذلك فى الصحاح جد كثير .

فالنَّساء : أصل يدل على تأخير الشىء ، تقول : نسأت الشىء نَسْأً ، وأنسأته أيضاً : أخرته . ونَسَأ الله فى أجله : أخره . ومنه : المِنْسَأةُ للعصا ،

---

(١) الصحاح ٢ : ٣٢١ .
(٢) « ٢ : ٣٢٦
(٣) « ٢ : ٢٨٢
(٤) « ٢ : ٢٠٩ .
(٥) « ١ : ٧٨ .
(٦) « ١ : ٩ .
(٧) « ١ : ٥١٨ .

لأنها آلة لتأخير الشيء و إبعاده ، ومنه : النَّسِيء فى الأشهر ، وهو تأخير حرمة الأشهر الحرم[١] .

ورَجِبْتُه بالكسر : هبته وعظمته ، ومنه سمى . رجب ، لأنهم كانوا يعظمونه فى الجاهلية ولا يستحلون فيه القتال . والترجيب : التعظيم[٢]

وأشار إلى الأضداد فذكر أن « الرس : الإصلاح بين الناس ؛ والإفساد[٣]، وعسعس الليل ، إذا أقبل بظلامه ، وعسعس : أدبر[٤]. وأمرستُ الحبلَ ، إذا أعدتَه إلى مجراه ، وأمرستُه ، إذا أنشبته بين البكرة والقعو[٥]، والأشراط : الأرذال ؛ والأشراف[٦]. والغابر : الباقى ؛ والماضى[٧]. والقفوة ، تقول : فلان قفوتى ، أى خيرتى ممن أوثر ، وفلان قفوتى ، أى تهمتى — كأنه من الأضداد[٨]— وكلَّ : مضى قدما ، وكلل : جبن[٩] .

الهنات

وبجانب الحسنات التى يُذهِبن السيئات ، وبجانب المزايا بعض الهنات التى يجب أن نشير إليها ، لتكون لدى القارئ صورة واضحة للصحاح ، ونقولَ ماله وما عليه ، فهو لم يخلُ من بعض الهنات ، منها : اقتصاره على الصحيح ، وطرحُه مالم يصح عنده .

---

(١) الصحاح ١ : ٢٥ .
(٢) « ١ : ٥٥ .
(٣) « ١ : ٤٥٥ .
(٤) « ١ : ٤٦٢ .
(٥) « ١ : ٤٧٦ .
(٦) « ١ : ٥٥٤ .
(٧) « ١ : ٣٧٤ .
(٨) « ٢ : ٥٣٦ .
(٩) « ٢ : ٢٣٦ .

وهذه مزية من مزايا الصحاح ، إلا أننا إذا نظرنا إليها من زاوية النقد نجد فيها مجالا للقول ، فهو قد أغفل ذكر موادّ كثيرة تُعَدُّ من « تاج اللغة وصحاح العربية » ولو لم يغفلها — التزاما للصحيح وطرحا لما ظنه غير صحيح — لقدَّم لنا ثروة لغوية ضخمة ، فليس كلُّ ما طرحه غيرَ صحيح ، فقد حشد الصغانى فى التكملة والذيل والصلة أكثر من ستين ألف مادة ، أكثرها من صحيح اللغة ، بل استوعب الصغانى فى مجمع البحرين موادَّ أكثر مما ذكر فى التكملة والذيل والصلة .

ومن الهنات التى تعد على الصحاح : التصحيف والتحريف ، فهو يصحف الشعر والمواد اللغوية والأعلام ويحرِّف فى كل هؤلاء أيضا ، فقد ذكر فى مادة عفث : « الأعفث من الرجال : الكثير التكشف[1] » قال الهروى : المعروف الأعفت بالتاء بنقطتين .

وجاء فى الصحاح :

يعلون بالمردقوش الوِرْد ضاحية على سعابيب ماء الضالة اللَّجِز

أراد اللزِجَ فقلبه[2] » .

وهذا تصحيف تبع فيه الجوهرِيُّ ابنَ السكيت ، وإنما هو « اللَّجِنُ » بالنون من قصيدة نونية وقبله :

من نشْوةٍ شُمُس لا مَكْرَهٍ عنفٍ ولا فواحشَ فى سرٍّ ولا عَلَنِ

---

(١) الصحاح ١ : ٦٣ ، ١ : ١٣٦ .
(٢) » ١ : ٤٣٦ .

وهو تصحيف قبيح ، وأقبح منه تفسيره كلمة « لجز » بأنه مقلوب « لزج[١] » .

وفى الصحاح[٢] :

أسليمُ إنَّ مصابكم رجلا أهدى السلامَ تحيةً ظلْمُ

وفى رواية الجوهرى تحريف ، والصحيح :

أظليم إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلم

وظليم ؛ ترخيم ظليمة ، وهى أم عمران زوجة عبد الله بن مطيع ، وكان الحارث بن خالد بن العاصى المخزومى ينسب بها ، ولما مات زوجها تزوجها .

وفى الصحاح[٣] : « الَخزاء : نبت » وهو غلط وتصحيف . والرواية : الَحزَاء ؛ بالحاء المهملة[٤] .

وفى الصحاح[٥] : « معروف بن عمرو » والصحيح : مفروق بن عمرو[٦] .

وفى الصحاح[٧] : « ما أَعْقِله عنك شيئاً ، أى دع عنك الشك ، وهذا حرف رواه سيبويه فى باب الابتداء ، يضمر فيه مابنى على الابتداء ، كأنه قال : ما أعلم شيئاً مما تقول فدع عنك الشك ، ويستدل بهذا على صحة الإضمار فى كلامهم للاختصار ، وقال بكر المازنى : سألت أبا زيد

(١) التكملة .
(٢) الصحاح ١ : ٨٢ .
(٣) « ٢ : ٤٦٩ .
(٤) التكملة .
(٥) الصحاح ١ : ٥ .
(٦) كتاب الجيم ٢٥ ، والتكملة ، واللسان .
(٧) الصحاح ٢ : ٢١٨ .

والأصمعى وأبا مالك والأخفش عن هذا الحرف فقالوا جميعا : ما ندرى ما هو . وقال الأخفش : أنا مذ خلقت أسأل عن هذا » .

وقد علق الشيخ أبو نصر الهورينى على قول الجوهرى بقوله[١] : وقولهم : ما أعقاه ؛ الخ . فى القاموس : وقول الجوهرى « ما أعقله عنك شيئاً » أى دع عنك الشك ؛ تصحيف ، والصواب : ما أعفله بالعين والفاء[٢] » .

والكلمتان مصحفتان فهما ليستا ما أَعْقِله وما أعفله ، بل « ما أغفله » وقد ورد فى كتاب سيبويه[٣] : « ما أغفله عنك ، أى دع عنك الشك » .

وقال أبو سعيد السيرافى شارح الكتاب[٤] : لم يُفَسَّر هذا الحرف فيما مضى إلى أن مات المبرد ، وفسره أبو إسحاق الزجاج بعد ذلك فقال : معناه على كلام تقدم ، كأنَّ قائلا قال : زيد ليس بغافل عنى ، فقيل : بلى ، ما أغفله عنك ، انظر شيئاً ، أى تفقَّد أمرك ، فاحتج به على الحذف ، يريد حذف « انظر » التى نصبت « شيئاً » .

ومثل هذا مذكور فى كتاب « الإنصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين[٥] » .

ومما يؤخذ على الجوهرى : نسبته قول إمام إلى إمام آخر ، فهو

---

(١) التعليقة على هامش صفحة ٢١٨ من الجزء الثانى من الصحاح (طبعة بولاق)
(٢) فى القاموس : ما أغفله . و نقل الهورينى خطأ .
(٣) الكتاب ١ : ٢٧٩ .
(٤) نسخة المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة .
(٥) صفحة ٥٣ .

يقول[١] : « قال الأخفش : شبهوا لات بليس وأضمروا فيها اسم الفاعل » مع أن هذا القول لسيبويه ، فهو يرى أنها تعمل عمل ليس ، أما الأخفش فكان لا يُعْمِلها ويرفع ما بعدها بالابتداء إن كان مرفوعا ؛ وينصب بإضمار فعل إن كان منصوبا[٢] » .

ويؤخذ عليه أنه ينقل أقوال العلماء بغير دقة ، كما يظهر فى قوله[٣] : « قال أبو عبيد : إن ضممت الدال قلت : دُرِّىٌّ ، يكون منسوباً إلى الدر فى فُعْلِىٍّ ، ولا تهمزه ؛ لأنه ليس فى كلام العرب فُعْلِىٌّ » ويريد بالهمز دُرِّىءٌ (على وزن فُعِّيل) .

وفى نقله اضطراب ، وصحته أن يروى هكذا : « إن ضممت الدال قلت : دُرِّىٌّ ؛ يكون منسوباً إلى الدُّرِّ على فُعْلِىٍّ ، ولا تهمزه ؛ لأنه ليس فى كلام العرب فُعِّيلٌ » .

ونقول رداً على أبى عبيد : حكى سيبويه أنه يدخل فى الكلام فُعِّيلٌ ، وهو قولهم للعصفر : مُرِّيقٌ ، وكوكب دُرِّىءٌ[٤] .

ويؤخذ عليه : أنه ينسب الحديث الشريف إلى غير صاحبه عليه السلام ، وينسب إلى الحديث النبوى ما ليس منه كقوله[٥] : « فى حديث سراقة : « ما خلأت ولا حَرَنَتْ ، بل حبسها حابس الفِيل » ونسبة الحديث

---

(١) الصحاح ١ : ١٢٥ .
(٢) حواشى ابن برى ، وتهذيب الصحاح هامش صفحة ١١٩ من الجزء الأول .
(٣) الصحاح ، مادة (درأ) .
(٤) التكملة .
(٥) الصحاح ، مادة (خلأ) .

إلى سراقة سهو . وإنما هو حديث النبي صلى الله عليه وسلم قاله عام الحديبية ، رواه المِسْوَرُ بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم[١] . وكقوله[٢] : وفي الحديث : « لا تسبوا الإبل فإن فيها رَقُوءَ الدم » وهو ليس بحديث بل هو قول العرب يجرونه مجرى الأمثال ، وأصله من قول أكثم ابن صيفي في وصية كتب بها إلى طيئ ، قال فيها : ولا تضعوا رقاب الإبل في غير رقابها فإن فيها ثمنَ الكريمة ورَقوءَ الدم ، وبألبانها يُتْحَفُ الكبير ويُغْذَى الصغير ، ولو أن الإبل كُلِّفت الطحن لطحنت[٣] .

ويؤخذ عليه أنه يخطئ في رواية الشعر ويغيِّر أشطره .

جاء في الصحاح[٤] : قال الراجز :

رَأَيْنَ شيخاً ذَرِئَتْ مجاليهْ   يقلي الغواني والغواني تقليهْ

أقول : وهذا مُغيَّر ، والرجز لأبي محمد الفقعسي ، والرواية[٥] :

قالتْ سليمى إنني لا أبغيهْ   أراه شيخاً عارياً تراقيهْ

مُرْمَصَّة من كِبَرٍ تراقيهْ   مُقَوَّساً قد ذَرِئت مجاليهْ

رأتْ غلاماً جاملا تصابيهْ   يقلي الغواني والغواني تقليهْ

وفي الصحاح[٦] :

سراة صلاية خلقاء صيغت   تَزِلُّ الشمس ليس لها رئاب

---

(١) التكملة .
(٢) الصحاح ، (رقأ)
(٣) التكملة .
(٤) الصحاح ، مادة (ذرأ) ومادة (جلا)
(٥) التكملة ١ : ٩ نسخة دار الكتب المصرية ، وهوامش نسخة المناني المخطوطة من الصحاح .
(٦) الصحاح ، مادة (رأب) .

أى صدوع .

والصواب : ليس لها إياب ، أى ليس للشمس رجوع إذا زالَّتْ عن السماء للغرب لملاسة السماء[١] .

ومما يؤخذ عليه : خلطه فى نسبة الشعر أو إغفاله النسبة ، ومن الأول أنه نسب إلى كعب بن زهير هذا البيت[٢] .

طعنًا طعنـــةً حمراءَ فيهم حرامٌ رَأْبُهـــا حتى الممات

وليس لكعب على قافية التاء شىء[٣] .

ومن غلطاته فى التفسير قوله[٤] : « نضو السهم : قدحه ، وهو ما جاوز الريش إلى النصل » وهو غلط ، وقد تبعه فى هذا الخطإ ابنُ فارس ، والصواب : النضو : السهم الذى قد فسد من كثرة ما رمى به ، فأمّا ما جاوز الريش إلى النصل فهو « النَّضِىُّ » لا غير[٥] .

وقوله[٦] : « القطرب طائر » ولم يرد فى كلام صحيح ، فالقطرب دوَيْبةٌ ، ومن معانيه : الصغير من الكلاب ، وصغار الجن ، وذكر الغيلان ، واللص ، والجاهل ، والجبان ، والسفيه ، والمصروع ، والذئب الأمعط[٧] .

---

(١) التكملة ، وهوامش نسخة العنانى .
(٢) الصحاح ، مادة (رأب) .
(٣) التكملة .
(٤) الصحاح ، مادة (نضا) .
(٥) التكملة .
(٦) الصحاح ، مادة (قطرب) .
(٧) تهذيب الصحاح ١ : ٨٥ والراموز ، والتكملة .

وقوله[١] : « الصاب : عصارة شجر مر » والصواب : الصاب : شجر مر[٢] .

ومما يؤخذ عليه : غلطه فى ترتيب المواد ، ووضعه مادة مكان مادة ، أو إنزاله مادة فى غير تركيبها ، ومن الأمثلة على هذا : أنه وضع « الثيب » فى ثوب[٣] . مع أن موضعها ثيب كما نبه القاموس ، ووضعه اللسان فى تركيب ث ى ب .

ووضع « أثأ » فى تركيب « ثأثأ »[٤] وحقها إفراد تركيب لها .

وذكر « الجِىء » فى تركيب « جأجأ »[٥] وحقها أن تكون فى تركيب « جيأ » .

وأنزل « مَرِيعة » بمعنى خصبة ، فى « ريع »[٦] وحقها أن تذكر فى « مرَع » وقد ذكرها الجوهرى نفسه فى « مرع » وصنيعه مثل من يضع « مريضة » فى « ريض » .

ووضع « انْدَالَ » — فعل ماض — فى « ندل »[٧] وموضعها فى « دول » .

---

(١) الصحاح ، مادة (صوب) .
(٢) القاموس ، والراموز ، والتكملة .
(٣) الصحاح ، مادة (ثوب) .
(٤) الصحاح ، مادة (ثأثأ) .
(٥) الصحاح ، مادة (جأجأ) .
(٦) الصحاح ، مادة (ريع) .
(٧) الصحاح ، مادة (ندل) .

وجعل « حانوت » فى « حين[١] » وحقها أن تكون فى « حنت » .

و « الدِّرحاية » فى « درحى[٢] » وموضعها « درح » .

و « الشاصِلِىّ » فى « شصا[٣] » وموضعها « شصل » .

و « الديمومة » فى « دمم[٤] » وحقها « دوم[٥] » .

و « الجاه » فى « جوه[٦] » وحقها أن تكون فى مادة « وجه » لأن فيها قلباً مكانياً كما ذكر الصرفيون[٧] .

ووضع « هَراقَ » فى « هرق[٨] » وحقها أن تذكر فى مادة « روق » باب القاف فصل الراء لا فصل الهاء ، لأن الهاء بدل الهمزة ، وقد وافق الجوهرى النحويين فى أن « هَراقَ » أصلها أراق ، ومع هـذا وضعها فى « هرق » وقد أشار سيبويه[٩] وابن يعيش[١٠] والرضى[١١] والبغدادى[١٢] إلى « هراق » فى مؤلفاتهم بما ذهبنا إليه .

ووضع الجوهرى « مذحج » فى باب الجيم فصل الميم[١٣] ، وحقها أن

---

(١) الصحاح ، مادة (حين) .
(٢) الصحاح ، مادة (درحى) .
(٣) الصحاح ، مادة (شصا) .
(٤) الصحاح ، مادة (دمم) .
(٥) شرح الرضى للشافية ٣ : ١٥٢ .
(٦) الصحاح ، مادة (جوه)
(٧) شرح الشافية ١ : ٢٢ .
(٨) الصحاح ، مادة (هرق) .
(٩) الكتاب ٢ : ٣٣٣ .
(١٠) المفصل ٦ : ١٢٦ ، ١٠ : ٥ .
(١١) شرح الرضى للشافية ٢ : ٣٨٤ .
(١٢) خزانة الأدب ٤ : ٦١ .
(١٣) الصحاح ، مادة « مذحج » .

تكون فى باب الجيم فصل الذال ، لأن الميم زائدة ، وقد نسب الجوهرى إلى سيبويه القول بأصالة الميم[١] ، وسيبويه لم يقل ذلك ، وإنما ذكر زيادة الميم فى مفعل؛ نحو : مجلس ومسجد[٢] ، وقال فى « مَنْبِج » الميم بمنزلة الألف لأنها إنما كثرت مزيدة أولا ؛ فموضع زيادتها كموضع الألف وكثرتها ككثرتها إذا كانت أولا فى الاسم والصفة ، ولم يقل سيبويه بأصاله الميم إلا فى مأجج[٣] ، ومجن[٤] ، ومعد[٥] .

وقد انعقد إجماع النحويين على أن الميم زائدة إذا تصدرت وبعدها ثلاثة أحرف أصول مقطوع بأصالتها ، ولم يشذ عن هذا الإجماع أحد .

ولو جعلنا الميم أصلا فى « مَذْحج » لكان مثل جعفر ؛ وزنها فَعْلِلٌ وهو وزن غير موجود فى أوزان الاسم الرباعى المجرد ، ولم يثبته أحد من النحويين ، وقد حصر سيبويه أوزان الاسم الرباعى المجرد فى كتابه[٦] ولم يذكر من بينها فَعْلِلا ، ولم يستدرك أحد عليه هذا الوزن .

وقد وهَّم المجدُ الصحاحَ فى « مذحج » والحق مع المجد ، وقد انتصر للجوهريِّ الشيخ أبو الطيب الفاسى — شيخ صاحب تاج العروس — وتحامل على المجد تحاملا شديدا ، مريدا تأييد الجوهرى ، وخرق أبو الطيب الإجماع ،

---

(١) الصحاح ، مادة « مذحج » .
(٢) الكتاب ٢ : ٣٢٨ .
(٣) الكتاب ٢ : ٣٤٤ .
(٤) الكتاب ٢ : ٣٣٠ .
(٥) الكتاب ٢ : ٣٣٠ .
(٦) الكتاب ٢ : ٣٣٥ .

ويقول الزبيدى[١] : « روى فى كتاب سيبويه « مأجج » فصحَّفه الجوهرى « بمذحج » ، وميم مأجج أصلية ، وذكر ابن جنى فى « المصنف » كلاما مثل هذا .

ومع أن الجوهرى كان أنحى اللغويين وخطيب المنبر الصرفى ، فقد وقع فى كتابه بعض الخطإ فى الإعلال الصرفى وقواعد النحو ، ونقدم للقارىء بعض الأمثلة على هذا النوع من الخطإ :

جاء فى الصحاح[٢] : وقد يُزادانِ (إذ و إذا) جميعاً فى الكلام كقوله تعالى : ﴿ وإذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ .

ولم يقل أحد من النحويين بزيادة « إذ » وإنما قال بذلك أحد اللغويين ، وهو أبو عبيدة ، ولم يكن له حذق فى النحو ، كما قالوا .

قال أبو حيان[٣] عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ . وذهب أبو عبيدة إلى أن « إِذْ » زائدة . المعنى : قالت امرأة عمران ، وكان أبو عبيدة يُضَعَّف فى النحو ، ونقل عنه أبو حيان مثل ذلك فى البحر[٤] فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللّٰهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ .

وأما « إذا » فلم أقف على رأى يقول بزيادتها .

---

(١) تاج العروس ٢ : ٤٧ ، ٢ : ٩٩ .
(٢) الصحاح ، باب الألف اللينة ، مادة (إذا) .
(٣) تفسير أبى حيان (البحر المحيط) ٢ : ٤٣٧ .
(٤) تفسير أبى حيان ٤ : ٥٨ .

وفى الصحاح[١] : كَأَيِّنْ وكائِنْ لغتان معناهما كم فى الخبر والاستفهام ، وفى المغنى لابن هشام[٢] : لا تقع كأيِّنْ استفهامية عند الجمهور ، ويقول : إفادة كأيِّنْ الاستفهام نادر لم يثبته غير ابن قتيبة وابن عصفور وابن مالك .

وقال الجوهرى[٣] : لا تدخل الكاف على « ذلك » المؤنث . وإنما تدخل على « تا » تقول : تيك وتلك ، ولا تقل : ذيك ، فإنه خطأ ، وقد تبع الجوهرىُّ ثعلبا فى إنكار ذيك .

فى همع الهوامع[٤] : أنكر ذيك ثعلبٌ . وفى ابن يعيش[٥] : ذيك ، ولم يتعرض لإنكار ثعلب ، وفى شرح الرضى للكافية[٦] : أورد « ذيك » الزمخشرى وابنُ مالك .

وفى الصحاح[٧] : « واتكلت على فلان فى أمرى ، إذا اعتمدته ، وأصله : اوتكلت . قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ثم أبدلت منها التاء ، فأدغمت فى تاء الافتعال » .

وفى الصحاح[٨] : « اتقى يتقى ، أصله اوتقى على افتعل ، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها وأبدلت منها التاء وأدغمت » .

---

(١) الصحاح ، مادة « كين » .
(٢) المغنى ١٥٦ .
(٣) الصحاح ، باب الألف اللينة ، مادة (ذا) .
(٤) همع الهوامع ١ : ٧٥ .
(٥) المفصل ٣ : ١٣٤ .
(٦) شرح الرضى للكافية ٢ : ٣١ .
(٧) الصحاح ، مادة (وكل) .
(٨) الصحاح ، مادة (وقى) .

والمتفق عليه بين الصرفيين أن الواو إذا وقعت فاء لافتعل وما تصرّف منه تُقْلَبُ تاء وتدغم فى تاء الافتعال حتى لا تتلاعب بها حركة ما قبلها ، ويظهر منه أن الواو لم تقلب ياء ، ولم تبدل الياء تاء ثم تدغم فى تاء الافتعال كما ذهب الجوهرى .

وقد بسط القول فى هذه المسألة الرضى فى شرح الشافية[1] وقال : « اعلم أن التاء قريبة من الواو فى المخرج لكون التاء من أصول الثنايا ، والواو من الشفتين ، فتقع التاء بدلا منها كثيراً ؛ لكنه مع ذلك غير مطرد إلا فى باب افتعل نحو تراث وتجاه وتولج وتترى والتكأة وتقوى من وقيت وتوراة عند البصريين .

والتاء أقل مناسبة للياء منها للواو ؛ فلذلك قلَّ إبدالها منها وذلك فى « ثنتان وكلتا » على قول ، فلما كثر إبدال التاء من الواو فى الأول واجتمع معه فى نحو : اوتعد و اوتصل داع إلى قلبها مطلقاً صار قلبها تاء لازماً مطرداً ، وذلك الداعى إلى مطلق القلب حصولُ التخالف فى تصاريفه بالواو والياء لو لم يقلب ؛ إذ كنت تقول : ايتصل وفيما لم يُسمَّ فاعله : اوتُصِل ؛ وفى المضارع واسم الفاعل والمفعول : يَوْتَصِلُ ومُوتَصِل ومُوتَصَل ؛ وفى الأمر : ايتَصِل ، فلما حصل هذا الداعى إلى مطلق قلبها إلى حرف جلد لا يتغير فى الأحوال — وللواو بانقلابها تاء عهد قديم — كان انقلابها تاء هنا أولى ، والياء وإن كانت أبعد عن التاء من الواو وإبدالها منها أقل ؛ لكن شاركت الواو ههنا فى لزوم التخالف لو لم تقلب ؛ إذ كنت تقول : ايتسر وموتسِر

---

(١) ج ٢ ص ٨٠ .

وموتَسَر ، فاتَّبَعت اليـاء الواو فى وجوب القلب والإدغام فقيل : اتَّسَر[١] .

وفى الصحاح[٢] : « القضية والجمع القضايا على فعالى وأصله فعائل » وهو مخالف للإعلال الصرفى ، فالياء فى قضايا بدل من الهمزة الزائدة التى أصلها الياء الزائدة فى قضية ، والألف فيها منقلبة عن الياء التى هى لام الـكلمة ، وأصلها قضايِيُ ثم قضائىُ ثم قضاءَا ثم قضايا كما هو معروف فى الصرف ، فوزن قضايا — على هذا — فعايل لا فَعالَى » .

وفى الصحاح[٣] : « الإمام : الذى يقتدى به ، وجمعهُ أَيِمَّة ، وأصله آمِمَة على أفْعِلة ، مثل : إناء وآنية وإلَه وآلهة ، فأدغمت الميم فنقلت حركتها إلى ما قبلها فلما حركوها بالـكسر جعلوها ياء » .

وقد سلك الجوهرى فى تصريف أيمـة طريقاً خالف طريق الصرفيين الذين يتلخص كلامهم فى أن جمع إمام : أَأْمِمة ؛ على وزن أَفْعِلة ، واجتمع فى الـكلمة ما يوجب الإعلال فى صدرها بقلب الهمزة ألفاً وما يوجب إدغام المثلين المتحركين فى عجزها ؛ فقدم الإدغام على الإعلال ، فصار اللفظ أَئِمَّة ؛ وهذا الجمع (أَئِمَّة) فصيح استعمالا ، والقياس أَيِمَّة بقلب الهمزة الثانية ياء[٤] .

قال الرضى فى شرح الشافية[٥] : « وإنمـا قدم فى الإدغام فى أَيِمَّة

---

(١) المفصل ١٠ : ٣٧ .
(٢) الصحاح ، مادة (قضا) .
(٣) الصحاح ، مادة (أمم) .
(٤) تعليقات على الصحاح (مخطوطة العنانى) .
(٥) شرح الشافية ١ : ٢٧ .

و إِوَزَّة على إعلال الهمزة بقلبها ألفاً و إعلال الواو بقلبها ياء للـكسرة التى قبلها ، لأن المثلين فى آخر الـكلمة ، وآخرها أثقل طرفيها ، إذ الـكلمة يتدرج ثقلها بتزايد حروفها ، واللائق بالحـكمة الابتداء بتخفيف الأثقل ، ألا ترى إلى قلب لام نوى أولا دون عينه ، فلما أدغم أحد المثلين فى الآخر فى أَيِمة و إِوَزَّة — ومن شرط إدغام الحرف الساكن ماقبله نقل حركته إليه — تحركت الهمزة والواو الساكنتان فزالت علة قلب الهمزة ألفاً الواو ياء » .

و بعد هذه الهَنات التى تتصل بالمواد اللغوية وما دخل بعضها من خلل أو خطإ نختم هذا الفصل بعيوب طريقة الجوهرى — ومن تبعه من مؤلفى المعجمات — فى ترتيب المواد حسب الأبواب والفصول .

أهم عيوب هذه الطريقة : وقوع الالتباس فى الـكلمة التى يكون آخر حرف منها حرف علة ، ولعل هذا ماحمل الجوهرى على أن يجمع الواوى واليائى فى باب واحـد دون مراعاة ماكان منتهياً بواو أو منتهياً بياء ، وصعوبة ترتيب الـكلمات الأحادية والثنائية ، وهى التى أتت منها الضمائر وحروف المعانى ، كما أن هناك من الـكلمات ذات ذيول مستعارة كالـكلمات التى تنتهى بحروف غـير أصيلة ولا أصلية ، أو ذات ذيول مقطوعة ، كالأسماء الخمسة ومثل : است وماء .

نسخة المؤلف

كتب الجوهرى صحاحه بخط يده ، وكان قد ألفه لأبى منصور عبد الرحيم ابن محمد البِيشكى ، وقيل : إنه سمعه منه إلى باب الضاد المعجمة ، وقيل :

لم يكن الصحاح كله مهذَّباً منقَّحاً ، بل كان ما بعد باب الضاد مسوَّدا من غير تنقيح أو تهذيب ، فلما مات الجوهرى تولى أبو إسحاق إبراهيم بن صالح الوراق — تلميذ الجوهرى — تبييضه[١] .

ونقل أبو سهل محمد بن على بن محمد الهروى (٣٧٢ — ٤٣٣ هـ) — نزيل مصر — الصحاح من خط الجوهرى نفسه[٢] رواية عن تلميذه أبى محمد إسماعيل ابن محمد بن عبدوس الدهان النيسابورى[٣] .

ويذكر ياقوت الموصلى أنه نقل الصحاح من خط أبى سهل الهروى الذى نقله من خط المصنف ورواه عن ابن عبدوس عن المؤلف[٤] .

ويذكر محمد بن عبد الله بن أبى البقاء البصرى[٥] فى ختام نسخة الصحاح التى كتبها بخطه[٦] أنه نقلها من خط المصنف .

وكل هذا يدل على أن المؤلف كتب صحاحه بخط يده ، ونسخته هـذه كانت موجودة ، ونقل منها الهروى وابن أبى البقاء ، وكتب كل منهما نسخة من الصحاح ، إحداهما — وهى نسخة الهروى — نقل عنها ياقوت الموصلى ، والثانية ما تزال باقية حتى كتابة هذه السطور .

---

(١) معجم الأدباء ٦ : ١٥٧ ، ١٦١ .

(٢) تهذيب الصحاح ٤٨ — ٤٩ .

(٣) برع ابن عبدوس فى النحو واللغة والعروض ، وأخذ عن الجوهرى ، وأنفق ماله على الأدب وتقدم فيه (البغية ١٩٩) .

(٤) مقدمة تهذيب الصحاح ٤٨ .

(٥) هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن أبى البقاء البصرى ، أبو الفرج ، قاضى البصرة النحوى ، توفى سنة ٤٩٩ هـ . ومن مؤلفاته : « مقدمة فى النحو » و « كتاب المتقعرين » ، (أسماء المؤلفين ٢ : ٧٨ — ٧٩ البغية ٧٢) .

(٦) هذه النسخة فى خزانة كتب الأستاذ محمد خليل عنانى وعليها تعليقات بخط أبى الفرج قاضى البصرة ، وأكثر تعليقاته مما يتصل بالنحو والصرف ، وقد كتبت سنة ٤٥٠ .

أما قول من قال : إن الكتاب بقى أكثره على سواده ولم يقدر له التنقيح والتهذيب ، ولم يُسمَع من الجوهرى إلا إلى باب الضاد ، ولما مات بيّضه الوراق ؛ ففيه نظر .

يجوز أن البيشكى سمع حتى باب الضاد ، ويجوز أن أكثر الكتاب كان على سواده لم يبيضه الجوهرى نفسه ، إلا أن فى قيام الوراق بتبييض المسود مجالا للقول .

وأعتقد أن الوراق بيّض نسخة كاملة له ، أما أنه أكمل تبييض نسخة المؤلف فيرده أن الهروى وابن أبى البقاء نقلا نسختيهما من خط المصنف ، وأن الجوهرى ألف كتابه للبيشكى الذى سمع منه إلى باب الضاد .

ولو صح أن فى نسخة المصنف ما كتب بخط غيره — وهو النصف على زعم الزاعمين — لأشار ياقوت وابن أبى البقاء ، لأنه أمر لا يمكن السكوت عليه .

ونخرج مما تقدم أن الصحاح وصل إلى الناس من ثلاث طرق :

أولا : طريق البيشكى الذى ألف الجوهرى الصحاح له .

ثانياً : طريق ابن عبدوس الذى سمع عليه الهروى .

ثالثاً : الوراق الذى بيض من الصحاح ما كان على سواده بعد موت مؤلفه .

وروى عن ثلاثتهم أيضاً ، وكلهم أخذ عن الجوهرى نفسه ، وكلهم ممن اشتغل بالعلم واللغة ، إلا أن من اشتهر من هؤلاء بالسماع والإسماع والرواية : ابن عبدوس . فالهروى وياقوت روياه عنه ، الأول رواه عنه وسمع منه ، والثانى رواه متصلا إلى ابن عبدوس .

وما أشك أن هناك طرقاً أخرى سلكها الصحاح للوصول إلى الناس ، ومن هذه الطرق : طريق محمد بن تميم البرمكى الذى نقل الصحاح ، واستبدل بترتيب مؤلفه ترتيباً آخر جديداً[١] ، وطريق القاضى البصرى الذى نسخ الصحاح من خط مصنفه ، وطريق أحمد بن محمد بن أحمد الميدانى النيسابورى المتوفى سنة ٥١٨ هـ[٢] .

أما القول بأن الوراق أكمل تبييض ما كان على سواده فالقصد منه تبرئة الجوهرى من تبعة الأوهام التى فى صحاحه .

وأعتقد أن بعض المعجبين بالجوهرى أرادوا أن يربأوا به من نسبة الخطإ إليه ، ولم يرضهم أن يطعن هذا الإمام الثَّبَتُ ، ولم يكونوا يصدقون وقوع خلل فى كتاب يؤلفه هذا العبقرى المبتكر ، فاعتذروا بأنه لم يسمع منه إلا إلى حرف الضاد[٣] .

وينقض اعتذارهم هذا أن القسم الذى يزعمون تبييضه وتنقيحه وتهذيبه لم يسلم من الوهم ، والخللُ مبثوث فى كل أبوابه ، ولو صح زعمهم لكان القسم المنقح المهذب المقروء على المؤلف مُبرَّءا من الخطأ ، أما وقد وقع فيه فإن لنا أن نقول : إن بعض الأوهام من الجوهرى ، وبعضَها من النساخ ، وجلَّ من لا يخطىء .

يقول الباخرزى[٤] فى الحديث عن الصحاح : « هذا مع تصحيف فيه فى

---

(١) معجم الأدباء (طبعة مصر) ١ : ١٥٧ .

(٢) معجم الأدباء (طبعة مرجليوث) ١ : ٤١٥ و ٢ : ١٠٨ .

(٣) مقدمة تهذيب الصحاح ص ٤٦ .

(٤) إنباه الرواة ١ : ١٩٥ .

مواضع عدة أخذها عليه المحققون ، وتتبعها العالمون ، ومَنْ ما ساء قط ، ومَنْ له الحسنى فقط ؟ فإنه — رحمه الله — غلط وأصاب ، وأخطأ المرمى وأصاب ، كسائر العلماء الذين تقدموه أو تأخروا عنه ، فإنى لا أعلم كتابا سُلِّمَ إلى صاحبه فيه ، ولم يتبعه بالتتبع من يليه » .

ويقول القفطى[١] عن الصحاح : « ودخلت منه نسخة إلى مصر نظرها العلماء ، فاستجودوا مأخذها وقربه ، ولحوا فيها أوهاما كثيرة انتدبوا لإصلاحها ، ولا شبهة فى أنه نقلها من صُحُف فصحَّفَ ، وانفرد فى تصريف الكلمة برأيه فحرَّفَ » .

ويقول ياقوت الموصلى عن الصحاح[٢] « هذا الكتاب أرويه متصلا إلى ابن عبدوس عن المصنف ، فما صح فى هذه النسخة فهو الرواية من خطإ أو صواب ، وما خالفها من زيادة أو تغيير فهو من كلام غير المصنف ، وقد استدرك أبو سهل وبيَّن بعض ما صحَّفه المصنف » .

ويقول التبريزى[٣] : « فيه تصحيف لا يُشَك فى أنه من المصنف لا من الناسخ ، ولا تخلو هذه الكتب الكبار من سهو يقع فيها أو غلط » .

ونخلص من كل هذا إلى أن الجوهرى كتب صحاحه كله بخطه ، وفيه بعض أوهام وغلطات هى منه ، أما النسخ التى كُتِبَتْ بأقلام النساخ فقد

---

(١) مقدمة تهذيب الصحاح ٤٩ وكشف الظنون (هامش) ٢ : ١٠٧٤ .
(٢) مقدمة تهذيب الصحاح ٤٩ .
(٣) كشف الظنون ، رسم الصحاح .

وقعت فيها أوهام كثيرة ، وأمر النساخ معروف ، إلا أن نسخة القاضى البصرى[١] من خير النسخ التى رأيتها ، ورأيت نسخة يوثق بها فى مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة كتبت سنة ٦٨٦ هـ ورقمها بالمكتبة ٧٩ وأوراقها ٣٩١ فى مجلد واحد ، وكانت النسختان — مضافا إليهما نسخة دار الكتب المصرية — وبعض نسخ أخَر اعتمادى فى تحقيق الصحاح .

ومن الصحاح نسخ كثيرة بأكثر مكتبات العالم ، ففى مكتبة المتحف العراقى بضع نسخ نفيسة قديمة كتبت فى القرن السادس والسابع والثامن للهجرة[٢] .

---

(١) أوراقها ٦٠٠ فى مجلد ، ونسخت سنة ٤٥٠ هـ وهى بخط القاضى البصرى المتوفى سنة ٣٩٩ هـ وعليها حواش وتعليقات للقاضى البصرى ، وعلى النسخة تمليك للشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن سعد بن مضا . اللخمى ، وهى الآن فى خزانة الأستاذ محمد خليل عنانى من أهل مكة المكرمة .

(٢) مجلد معهد المخطوطات العربية ، العدد الأول رمضان ١٣٧٤ هـ (١٩٥٥ م) ص ٤٣ مقال كوركيس عواد .

أثر الصِّحاح

كان لظهور الصحاح بنظامه الجديد المبتكر الذى لم يألفه الناس من قبل — وهو النظام الذى مكن لهم الاطلاع على اللغة فى سهولة ويسر — أثر جليل فى إقبال الناس عليه ومدارسته ونقده وتكملته وحفظه والتعليق عليه ، وأحدث بذلك آثاراً لا تمحى فى التأليف المعجمى والتصنيف اللغوى ، ولم يُخْدَمْ معجم عربى — إطلاقا — مثلما خُدِم صحاح الجوهرى ، فقد تناوله أئمة اللغة باهتمام عظيم وحفاوة بالغة ؛ وقَدَرُوهُ حق قدره ، واختطوا منهجه ، ومازالت طريقته فى بعض مبتكراته متبوعة فى تأليف المعجمات الحديثة — الآن — وستتبع فى المستقبل .

ودفع الصحاح بعض أئمة اللغة إلى تأليف معجمات ضخمة ، كما كان مثار بحث ونقاش بين العلماء ، وما يزال الصحاح منذ أُلِّف حتى يومنا هذا موضع التجلة من أهل العلم ، ومن يوم أن أُلِّف وهو واسع الخطى فى سيره بل طفره ، يطوى المسافات والأجيال ؛ وهو عظيم القدر مرموق المكانة مرفوع الذرى ، حتى أن خصومه وحساده أُجبروا على أن يشيدوا به .

وكان تأليف الجوهرى صحاحه فتحاً جديداً فى التأليف المعجمى ، بل كان أعظم فتح فى تاريخه ، وهو وحده الذى وجَّه التأليف المعجمى وجهة صالحة ، وإلا لو اتبع المؤلفون طريقة الخليل وأبناء مدرسته كابن دريد والأزهرى وابن سيده لكانت المعجمات العربية مغلقة الأبواب أمام الناس ، عذراء لا يفتضُّها إلا الراسخون فى العلم ، وهم يعدون على الأصابع .

ومن هنا تظهر قيمة الجوهرى الذى ابتكر طريقة جديدة لم يسبق إليها ؛ والذى وضع قواعد فى ترتيب الـكلمات — ما تزال **هى** قاعدة مؤلفى المعجمات فى ترتيب الـكلمات كما أشرنا إليه فى مقدمتنا هذه — وإن طريقته البكر أرْوَدَتْ الصعب ، وأسلست قياد العاصى الحرون ، وسهلت البحث أمام الشداة والعلماء ، وزوَّدت العلماء بثروة لغوية تقدر بأربعين ألف مادة من « تاج اللغة وصحاح العربية » .

وكان الصحاح شغل العلماء والأمصار ، إذا قدم عالم بلداً سأله أهله عن الصحاح ، كما صنع المصريون مع ابن القطاع ، فهو حينما دخل مصر سئل عنه ، ولما رأى رغبة المصريين فيه وكثرة اشتغالهم به ركب عليه طريقاً ورواه لهم[١] .

بل كان المؤرخون يعدون من مزايا العالم أو الأديب اتصاله بالصحاح أى اتصال كان ، ويحسبونه من المفاخر والمزايا مما يدل على عِظَم قدره وسمو منزلته ، فالمؤرخون يذكرون أن أبا على الواسطى : الحسن محمد بن عُبْدوس[٢] — بضم العين — كتب الصحاح بخطه ، وأن ياقوت الموصلى كان مغرى بنسخ الصحاح ، ويذكر ابن خلـكان أنه رأى عديداً من النسخ بخط ياقوت ، وكل نسخة تباع بمائة دينار ، وأن أبا سهل الهروى والقاضى البصرى وغيرهما نقلوه بخطه .

---

(١) إنباه الرواة ١ : ١٩٥ .

(٢) كان ابن عبدوس فاضلا قيما بالأدب ، حسن المعانى مليح الإيراد طيب الأخلاق ، متوددا ظريفا توفى سنة ٦٠١ هـ (البغية ٢٢٩) .

ويذكرون أن ابن النحاس الحلبي[١] تفرد بسماع الصحاح ، وأن تاج الدين الخواري[٢] حفظ كتاب الصحاح « عن ظهر قلب » بعد ما قرأه على الميداني ، وأن على بن زيد بن أبي القاسم البيهقي (٤٠٩ — ٥٦٥ ه) صحح كتاب الصحاح على الميداني في المحرم من سنة ٥١٦ ه[٣] ، وأن ابن معطي الزاواوي كان يحفظ الصحاح[٤] .

أما الذين درسوا الصحاح وألفوا حوله أو أكملوه أو نقدوه أو كتبوا حواشيَ وتعليقات أو اختصروه أو نقلوه إلى لغات أخرى فكثير ؛ منهم : البرمكي ، والهروي ، وياقوت الموصلي ، والقصباني ، وابن القطاع ، وابن بَرِّي ، والصغاني ، والبَسْطي ، والزنجاني ، والخواري ، والقِفْطي ، والبَطَلْيَوْسِي ، والإشبيلي ، والشاطبي ، والصَّفَدي ، والسُّيوطي ، والتادلي ، والقرافي ، والقرشي ، والفيروزبادي ، وابن منظور ، وابن الصائغ ، والرازي ، والشريف ، والقرماني ، والقارصي ، والهمداني ، والفيشي ، والأويسي ، والجوابي ، وأبو الكرم المدني ، ومحمد الحنفي ، وعلى العلي ، والزنجاني الخزرجي ، والبصري ، والبحر اليمني ، والداوودي ، وعبد القادر اليمني ، والقولي ، وابن معطي .

---

(١) هو أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي نصر ، الإمام العلامة ؛ شيخ الديار المصرية في علم اللسان ، ولي تدريس التفسير في الجامع الطولوني ، وكان زاهدا ورعا تقيا ، توفي سنة ٦٩٨ ه (البغية ٦) .

(٢) هو تاج الدين محمود بن أبي المعالي بن الحسن الخواري اللغوي وكان حيا سنة ٥٨٠ ه وهو من المشتغلين باللغة والتأليف فيها (معجم الأدباء ، طبعة مرجليوث) ١ : ٤١٥ ، ٢ : ١٠٨ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ، طبعة مرجليوث ٦ : ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٤) البغية ٤١٦ .

وبعض هؤلاء ألف حول الصحاح غير كتاب ، مثل القرشي ، والصغاني ، والسيوطي ، والصفدي ، والشريف ، والقرافي .

وكل هذا يدل على ما لقي الصحاح من المجد والشهرة والعناية والاهتمام ما لم يلقه معجم سواه ، وألوان النشاط الحي الذي بعثه ألوان جليلة رائعة ، والنواحي التي أثر فيها كثيرة ؛ أعظمها : التعليقات ، والحواشي ، والتكملات ، والمستدركات ، والمقارنات ، والنقد ، والدفاع ، والجمع بينه وبين غيره من المعجمات ، والمختصرات ، والترجمات ، والنظم .

وها نحن أولاء نعقد لكل ناحية من هذه النواحي فصلا نوجز الكلام فيه ، والإشارة إلى الدراسات التي قامت حول الصحاح وإلى الكتب المؤلفة فيه أو المشتقة منه .

التعليقات

علق كثير من الأئمة على الصحاح تعليقات يتصل بعضها بتوضيح ما غمض منه ، ونسبة الشواهد الشعرية الغُفل ، وتصحيح أسماء الأعلام والبلدان ، وتصويب بعض أوهام الجوهري ، وأقدم هذه التعليقات ما كتبه :

١ - أبو نعيم على البصري ، أحد أئمة الأدب واللغة ، وهو الذي نزل عنده المتنبي لما ورد بغداد ، وله ردود على جماعة من أئمة اللغة الأعلام كأبي زياد الكلابي وأبي على الشيباني وأبي عبيد وابن السكيت وثعلب وابن ولاد والدِّينَوَرِي والجاحِظ ، وتوفي سنة ٢٧٥ هـ[١] وله بعض تعليقات على الصحاح .

---

(١) البغية ٣٢٧ ، أسماء المؤلفين ١ : ٦٨٢ .

٢ — أبو سهل محمد بن على بن محمد الهروى (٣٧٢ — ٤٣٣ هـ) نزيل مصر ، وأحد أئمة اللغة فى عصره ، وله فيها تواليف : مثل : شرح الفصيح ، نقل الصحاح بخطه من خط الجوهرى نفسه ورواه عن إسماعيل ابن محمد بن عبدوس النيسابوري ، وقد استدرك أبو سهل بعض الاستدراك ، و بيَّن بعض ما صحَّفه الجوهرى[١] ، وقد دون محمود بن أحمد الزنجانى فى كتابه « تهذيب الصحاح[٢] » بعض تعليقات الهروى وتصحيحاته .

٣ — محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن أبى البقاء البصرى أبو الفرج النحوى القاضى بالبصرة ، توفى فى المحرم من سنة ٤٩٩ هـ وله كتاب « مقدمة فى النحو » و « كتاب المتقعرين[٣] » وقد كتب الصحاح بخطه وعلق على بعض المواضع تعليقات نحوية وصرفية ، وقد نقلنا عنه فى مقدمتنا هذه تعليقة منها ، ونسخته موجودة[٤] .

٤ — أبو زكريا التبريزى ؛ يحيى بن على بن محمد (٤٢١ — ٥٠٢ هـ) أحد أئمة اللغة والنحو ، أخذ عن أبى العلاء المعرى ، وله مؤلفات نفيسة ؛ منها : شرح الدريدية ، وشرح شعر المتنبى ، وشرح شعر أبى تمام ، وشرح المفضليات ، وشرح القصائد العشر ، وتفسير القرآن والإعراب .

وله تقييدات على الصحاح ، اطلع عليها مرتضى الزبيدى ، ونسخة الصحاح هذه بخط ياقوت فى ثمان مجلدات ، وعليها تقييدات لابن برى أيضاً[٥] .

---

(١) كشف الظنون (هامش) ٢ : ١٠٧٤ ، مقدمة تهذيب الصحاح ٤٩ .
(٢) نشر محمد سرور الصبان ، وتحقيق كاتب هذه السطور والأستاذ عبد السلام هارون .
(٣) أسماء المؤلفين ٢ : ٧٨ — ٧٩ والبغية ٧٢ .
(٤) بخزانة كتب محمد خليل عنانى .
(٥) مقدمة التاج ، صفحة ٤ .

٥ — أبو الدر ؛ أمين الدين ؛ ياقوت بن عبد الله الموصلي (٠٠٠ — ٦١٨ هـ) المعروف بالملكى نسبة إلى السلطان ملكشاه أبى الفتح بن سلجوق ، وكان ياقوت مغرى بنسخ الصحاح فكتب منه نسخا كثيرة ، كل نسخة فى مجلد واحد ، ويذكر حاجى خليفة عن پير محمد بن يوسف الأنقروى أنه رأى نسخة من الصحاح بخط ياقوت الموصلى ، ذكر فى آخرها ما هذه صورته :

« يقول ياقوت : نقلت هذا الكتاب من خط الشيخ أبى سهل محمد بن على الهروى النحوى — رحمه الله — وذكروا أنه نقله من خط المصنف ، ورواه عن إسماعيل بن محمد بن عبدوس عن المصنف ، وشاهدت بخط ابن عبدوس على النسخة التى نقلت منها ما هذا حكايته : قرأ علىّ الشيخ أبو سهل محمد بن على بن محمد الهروى أكثر هذا الكتاب ، وسمع ما فيه بلفظى بقراءتى عليه ، فصحّ سماع جميعه منى ، وروايته عنى ، وذلك فى سنة ٤٢١ هـ ، وكتبه إسماعيل بن محمد بن عَبدوس الدهان النيسابورى . ويقول ياقوت : هذا الكتاب أرويه متصلا إلى ابن عبدوس عن المصنف ، فما صح فى هذه النسخة فهو فى الرواية من خطإ أو صواب ، وما خالفها من زيادة أو تغيير فهو من كلام غير المصنف ، وقد استدرك أبو سهل وبيّن بعض ما صحّفه المصنف . قال ياقوت : وقد أثبتُّ ذلك فى موضعه ، ولى أيضا مواضع قد نبهت عليها من سهو المصنف ومن سهو وقع فى خط أبى سهل ، على أن الكتب الكبار لا تخلو من ذلك » .

٦ — أبو نصر الهورينى ، وقد علق على الصحاح — النسخة المطبوعة ببولاق — تعليقات جليلة رائعة .

٧ — الشريف أحمد ستى الدمشقى المكى ، علق على نسخته الخاصة المطبوعة من الصحاح بمطبعة بولاق ، وله عليها نقود يسيرة ، ولكنها جيدة ، وقد ملكت هذه النسخة .

٨ — كاتب هذه السطور — أحمد عبد الغفور عطار من أهل مكة المكرمة — فقد علق على النسخة المطبوعة من الصحاح بعد أن ضبط كل كلمة فيه بالشكل ، وصحح بعض أوهام الجوهرى ، كما رد على من وهّمود خطأ ، وهذه التعليقات منشورة فى طبعة الصحاح هذه ، كما نشر بعضها فى « تهذيب الصحاح » الذى طبع منذ بضع سنين .

٩ — عبد السلام محمد هارون الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، له تعليقات على الصحاح دوّنها عندما حقق معى « تهذيب الصحاح » للزنجانى ، وهى تعليقات رائعة مفيدة .

الحواشى

١٠ — أقدم ما وصل إلينا من علم حول الحواشى ما كتبه أبو القاسم الفضل بن محمد بن على القصبانى البصرى[١] المتوفى سنة ٤٤٤ هـ ، وهو أحد علماء البصرة الأجلاء فى اللغة والنحو ، وإليه كانت الرحلة فى زمانه ، ومن مؤلفاته : كتاب فى النحو ، والأمالى ، والصفوة فى أشعار العرب ، وكتاب « حواشى الصحاح[٢] » .

---

(١) معجم ياقوت طبعة مرجليوث ٦ : ١٤٣ .
(٢) أسماء المصنفين ١ : ٨١٩ .

١١ — على بن جعفر بن على السعدى المعروف بابن القطاع الصقلى (٤٣٣ — ٥١٥ هـ) ولد فى صقلية ، ولما احتلها الفرنج انتقل إلى مصر وأقام بالقاهرة يعلم ولد الأفضل الجمالى أمير الجيوش ، ويقول عنه النقاد المصريون : إنه متساهل فى الرواية ، وذلك أنه لما قدم مصر وسألوه عن الصحاح وذكر لهم أنه لم يصل إلى المغرب ، ولما رأى رغبة المصريين فيه وكثرة اشتغالهم به ؛ ركب لهم إسنادا ورواه لهم ، فقلدوه ، ومن تصانيفه : الأفعال ، وأبنية الأسماء ، وتاريخ صقلية ، و « حاشية على الصحاح » وقد رواه عن أبى بكر الصقلى[1] .

١٢ — أبو محمد عبد الله بن برى المقدسى المصرى (٤٩٩ — ٥٧٦ أو ٥٨٢ هـ) أحد أئمة اللغة والنحو ، ولم يكن بمصر مثله علما وذكاء واطلاعا ، له مؤلفات ؛ منها : « الاختيار فى اختلاف أئمة الأمصار » و « اللباب على ابن الخشاب من حواشى درة الغواص » و « التنبيه والإيضاح عما وقع فى كتاب الصحاح » و « الإيضاح فى حاشية الصحاح[2] » .

ولعل التنبيه غير الإيضاح ، أو لعله ألف الإيضاح كله تأليفاً ، أما « التنبيه » فقد تعاون فى تأليفه ابن برى وأستاذه ابن القطاع ثم البسطى الذى أكمله .

١٣ — التنبيه والإيضاح عما وقع من الوهم فى كتاب الصحاح ، ابتدأ به ابن القطاع ثم بنى عليه ابن برى ولكنه لم يكمله ، بل أدركته المنية وهو فى باب الشين فصل الواو (وقش أو ومش) فبقى ناقصاً[3] .

---

(١) أسماء المصنفين ١ : ٦٩٥ وإنباه الرواة ١ : ١٩٥ والبغية ٣٣١ .
(٢) كشف الظنون ٢ : ١٠٧٢ .
(٣) المصدر السابق .

١٤ — وجاء الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى البَسطى — نسبة إلى بَسطة بالفتح ؛ من كورة جيان بالأندلس — وتولى إكمال « التنبيه » عام ٦٢٢ هـ[1] ، ولعل هذه الحواشى المعروفةُ بحواشى ابن برى ؛ والحواشى التى تسمى « التنبيه والإيضاح عما وقع من الوهم فى كتاب الصحاح » أجودُ ما كتب على الصحاح من حواش ، وقد استدركوا فيه على الجوهرى ، وصححوا نسبة بعض الشواهد الشعرية ، ونقدوا أحكامه النحوية والصرفية ، والمواد التى وُضِعت فى غير مواضعها ، وبعض تفسيره الكلمات .

١٥ — أبو عبد الله رضى الدين محمد بن على بن يوسف الأنصارى الشاطبى ، ولد فى بلنسية سنة ٦٠١ هـ وتوفى فى مصر سنة ٦٧٤ أو ٦٨٤ هـ ، كان إمام عصره فى اللغة ، عالى الإسناد فى القرآن ، معظماً ، مهيباً ، له كتاب « حواشى الصحاح[2] » .

١٦ — وقد اختار أحد المؤلفين من حواشى ابن برى على الصحاح مختارات جمعها وأطلق عليها اسم « تعليق لغة من حواشى الصحاح للجوهرى من كلام ابن برى » ومنه نسخة بمكتبة كوبريللى تحت رقم ١٥٢١/١ وأوراقها ٢٣ ، كتبها الشيخ أحمد بن عبد القادر بن مكتوم القيسى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ[3] .

---

(١) كشف الظنون .

(٢) البغية ٨٣ .

(٣) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٣٤٧ .

كتب جمعت الصحاح وغيره

قام بعض اللغويين بتأليف معجمات جمعوا فيها بين الصحاح وغيره من المعجمات ، ومنهم :

١٧ — تاج الدين محمود بن أبى المعالى بن الحسن الُخوارى[1] اللغوى المعروف بابن الخوارى ، ألف كتاباً سماه « ضالة الأديب من الصحاح والتهذيب » أو « ضالة الأديب فى الجمع بين الصحاح والتهذيب » انتقد فيه على الجوهرى عديداً من المواضع ، وقال عنه أحمد بن على البيهقى : « كان الخوارى إماماً فى القراءات والأدب ، حَفظ كتاب الصحاح عن ظهر قلب بعد ماقرأه على أبى الفضل أحمد بن محمد الميدانى وبرع فى اللغة ، وله النثر الفائق ؛ والشعر الرائق ؛ وكان واحد نيسابور علماً وفضلا وأدباً ، وله مؤلفات منها : « المحيط بلغات القرآن » وكان حياً سنة ٥٨٠ هـ[2] .

١٨ — ولابن أبى المعالى الخوارى كتاب آخر اسمه « ينابيع اللغة » جرّد فيه صحاح الجوهرى من الشواهد ، وضمّ إليه من « تهذيب اللغة » للأزهرى ، و « الشامل » لأبى منصور الجبان[3] ، و « المقاييس » لابن

---

(١) الخوارى ؛ نسبة إلى خوار ، بضم الخاء المعجمة : مدينة بين الرى وسمنان (أسماء المؤلفين ٢ : ٤٠٤) .

(٢) معجم الأدباء ، طبعة مرجليوث ١ : ٤١٥ ، ٢ : ١٠٨ ، ٢ : ٢٧١ ، ٧ : ١٥١ — ١٥٢ والبغية ٣٩٠ وأسماء المصنفين ٢ : ٤٠٤ ومقدمة معجم إدوارد لين .

(٣) هو محمد بن على بن عمر بن الجبان . قال ياقوت : أحد حسنات الرى وعلمائها الأعيان ، جيد المعرفة باللغة ، وكان من ندماء الصاحب بن عباد ، وله : «أبنية الأفعال» و«شرح الفصيح» و « الشامل » فى اللغة ؛ قرىء عليه سنة ست عشرة وأربعمائة . (البغية ٧٩) .

فارس ؛ قدراً صالحا من الفوائد والفرائد ، وهو كتاب صالح كبير الحجم يقرب من حجم الصحاح ، وهو غير كتاب « ضالة الأديب فى الجمع بين الصحاح والتهذيب » . و « ينابيع اللغة » لابن الحوارى غير « ينابيع اللغة » لأبى جعفر أحمد بن على المعروف بجعفرك المتوفى سنة ٥٤٤ هـ[١] . وقد أعدنا ذكر هذا الكتاب فى باب المختصرات ، لأن الحوارى اختصر الصحاح ثم ضم إليه قدراً صالحا من الشامل والمقاييس .

١٩ — أبو إسحاق إبراهيم بن قاسم البَطَلْيَوْسى النحوى المعروف بالأعلم — وهو غير الأعلم المشهور المسمى يوسف بن سليمان الشنتمرى — وكان البطليوسى أديباً وشاعراً ، برع فى النحو . توفى سنة ٦٤٢ هـ وقيل : ٦٤٤ هـ وقيل : ٦٤٦ هـ . وألف كتابا سماه « الجمع بين الصحاح والغريب المصنف » والأخير لأبى عبيد القاسم بن سلّام[٢]

٢٠ — أبو الفضائل ؛ رضى الدين ؛ الحسن بن الحسن بن حيدر الصغانى (٥٨٧ — ٦٥٠ هـ) ألف كتاباً عظيما سماه « مجمع البحرين » جمع فيه بين الصحاح وكتابه المسمى « التكملة والذيل والصلة » وهو الكتاب الذى جمع فيه ما أهمله الجوهرى ، وسيأتى التعريف به فى قسم « التكملات » وطريقة الصغانى فى مجمع البحرين أنه ذكر الصحاح ورمز له بحرف ص ثم ذكر كتابه التكملة وجعل علامته حرف ت ثم أردفها بحاشية أشار إليها بحرف ح ، يذكر المادة من الصحاح ، فإذا انتهى منها ذكر المادة من التكملة ؛ ثم ذكر ما ليس فيهما مما وصل إليه علمه ، ومن

---

(١) كشف الظنون ٢ : ١٠٥٢ .

(٢) أسماء المؤلفين .

« مجمع البحرين » مصورة بدار الكتب المصرية منقولة عن مخطوطة بمكتبة كوبريللى بالآستانة ، وهى فى ستة مجلدات[١] .

٢١ — تاج الدين عبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب بن المعالى الخزرجى الزنجانى البغدادى ؛ الفقيه الأديب اللغوى ؛ المعروف بالزنجانى ؛ الشافعى — وهو غير الزنجانى محمود بن أحمد بن بختيار — ألف كتاباً عنوانه « المعرب عما فى الصحاح والمغرب » أو « المعرب فى الجمع بين الصحاح والمغرب » أتمه فى سنة ٦٣٨ هـ فى المدرسة القاهرية بالموصل ، فصل فيه نص الصحاح عن المغرب وأشار إلى الصحاح بحرف ص و إلى المغرب بحرف م والمغرب لأبى الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزى المتوفى سنة ٦١٦[٢] هـ ، وللزنجانى مؤلفات ، وله التصريف المشهور بتصريف العزى ، ومتن الهادى ، وشرح الهادى ، وتوفى بعد سنة ٦٥٤[٣] هـ .

٢٢ — لسان العرب ، لأبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقى المصرى الأنصارى الخزرجى (٦٣٠ — ٧١١ هـ) جمع فيه بين صحاح الجوهرى وحواشيه وتهذيب الأزهرى ومحكم ابن سيده ونهاية ابن الأثير واتبع طريقة الجوهرى .

ويحتوى اللسان ثمانين ألف مادة ، وهو « دائرة معارف » و يعد من أعظم معجماتنا ، وقد طبع فى مصر فى عشرين مجلداً .

---

(١) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ١٧٠ .

(٢) البلغة ١٧٠ .

(٣) البغية ٣١٨ .

وللشيخ المرصفى تعليقات ونقدات واستدراكات وتصحيحات على نسخته المطبوعة ، تكاد تبلغ حجم اللسان نفسه ، كما أن للمستشرق كرنكو تعليقات تبلغ نصف حجم اللسان ، وحبذا عناية من ينشر اللسان بهذه التعليقات وإضافتها إليه ، ولو أضيفت إليه لخُدِمَت العربية خدمة جليلة ، ولكنى أعتقد أن من ينشرون اللسان فى هذه الأيام تجار لا يعنيهم العلم ولا تطّبيهم المعرفة .

٢٣ — تهذيب التهذيب ، تأليف أبى الثنائى ؛ صفى الدين محمود ابن أبى بكر بن حامد التنوخى الأرموى الدمشقى الشافعى ، وقيل : محمود ابن محمد (٦٤٧ — ٧٢٣ هـ) وهو فى خمسة مجلدات ، وقد التزم فيه « الصحاح والتهذيب والمحكم » مع غاية التحرير والضبط المحكم[١] .

٢٤ — التهذيب بالترتيب وما فى الصحاح والمحكم بالتقريب . مجهول المؤلف ، وقد جمع فيه مؤلفه بين « تهذيب اللغة » للأزهرى و « الصحاح » للجوهرى و « المحكم » لابن سيده ، وقد أتى المؤلف بكل مواد التهذيب ، ومعظم ما فى الصحاح والمحكم ، ومنه نسخة بمكتبة « داماد زاده ملا مراد » بالآستانة ، ورقمها بها ١٧٣١ وهى فى ستة مجلدات[٢] .

٢٥ — تاج الأسماء فى اللغة . مجهول المؤلف ، وجمع فيه مصنفه « الصحاح » و « الأسماء » للزمخشرى ، و « السامى » للميدانى ، والتزم فيه المؤلف طريقة الصحاح[٣] .

---

(١) كشف الظنون ٢ : ١٦١٧ ومقدمة التاج ١ : ٤ .
(٢) مقال المؤلف عنوانه : « نسخ تهذيب اللغة فى العالم » .
(٣) كشف الظنون ٢ : ١٥٩٩ .

٢٦ — مرقاة اللغة . مجهول المؤلف . وقد أخذ من الصحاح أربعة عشر ألف كلمة ؛ ومن القاموس ستة عشر ألف كلمة . وذكر صاحب البلغة[١] أن اسم الكتاب « مرقاة النفوس » وصاحب كشف الظنون[٢] « مرقاة اللغة » فاخترناه هنا .

التكملات والمستدركات

٢٧ — المنتهى . لأبى المعالى محمد بن تميم البرمكى اللغوى ، وهو منقول من الصحاح ، وزاد فيه أشياء قليلة ، وأغرب فى ترتيبه — كما قيل فى وصف طريقته — ورتبه على الحروف الأوائل[٣] ، وصنفه فى سنة ٣٩٧ هـ ، « والمنتهى » أول كتاب حول الصحاح ، ومنهج البرمكى فى ترتيب مواده مبتكر ، وهو أول من رتب هذا الترتيب — بعد أبى عمرو الشيبانى — وقد سبق البرمكىُّ الزمخشرىَّ فى نظامه الذى اتبعه فى « أساس البلاغة » ووهِمَ الناس فظنوا أن الزمخشرى مبتكر طريقة ترتيب المعجم على أوائل الحروف مثل ترتيب المعاجم الحديثة ، وكان عمل البرمكى فى الصحاح أنه جعله على الترتيب المعروف فى معجماتنا هذه الأيام[٤] .

وقد رأيت قطعة منه فى المكتبة الخاصة بالشيخ إبراهيم الخربوطلى ؛ أمين مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة — غفر الله له ورحمه — ومنه قطعة فى ست ورقات بمكتبة كوپريللى رقم ٦٥١١ / ٢[٥] .

---

(١) البلغة ١٦٧ .

(٢) كشف الظنون ٢ : ١٦٥٧ .

(٣) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٣٧٥ .

(٤) انظر صفحة ١٣٣ — ١٣٦ من كتابنا هذا .

(٥) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٣٧٥ .

٢٨ — التكملة والذيل والصلة . تأليف الإمام رضى الدين ؛ أبى الفضائل : الحسن بن محمد بن الحسن الصغانى (٥٧٧ — ٥٦٠ ه) . وهذا الكتاب معروف بالتكملة ، جمع فيه ما أهمله الجوهرى ، وبلغت مراجعه ألف كتاب فى غريب القرآن والحديث واللغة والنحو والصرف وأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم وحيوانهم وأسلحتهم وغير ذلك ، والتكملة خير ما ألف حول الصحاح وتكملاته وحواشيه وإصلاح خلله وتصحيح وهمه ، ويضم ستين ألف مادة ، وفرغ من تأليفه أمام بيت الله الحرام صبيحة يوم الجمعة وقت فتح باب بيت الله الحرام ؛ العاشر من صفر سنة خمس وثلاثين وستمائة للهجرة .

وأراد الصغانى من تأليف كتابه أن يكمل الصحاح ، ويورد ماأغفله الجوهرى ، وقد وفق الصغانى لما قصد إليه وأراد ، فكتابه تكملة للصحاح حقاً ، واستدرك على الجوهرى ستين ألف مادة من النوادر والفصح وصحيح اللغة ، ووجدت فى التكملة مئات الكلمات المستعملة فى اللغة العامية — وظُن أنها عامية ؛ ويتحاشى الكتاب استعمالها — فصيحة مما تكلم به العرب ، وقد أشرت إلى كثير منها فيما نشرت حول اللغة العامية وقواعدها ، ونشرت بعضها فى كتابى المسمى « بحوث فى اللغة » وهو تحت الطبع .

ولم يقف عمل الصغانى على التكملة واستدراك مافات الجوهرى أو أهمل من مواد اللغة ، بل صحح له كثيراً من الأوهام والغلط والتصحيف والتحريف فى الكلمات والأعلام وأسماء المواضع ، وأكمل الشواهد الشعرية الناقصة ، وصحح نسبة كثير منها ورواياتها مما أخطأ فيه الجوهرى ، وصحح ماظنه حديثاً وهو ليس بحديث ، وما ظنه ليس بحديث وهو حديث شريف .

ونسخة المؤلف بإحدى مكتبات تركيا ، وهى بخط الصغانى — رحمه الله — ومصورتها بالإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، ومنه نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة ، لا يعرف ناسخها ؛ وجاء فى أواخرها : أنها « نسخت من نسخة المصنف وقوبلت عليه فى التاريخ المذكور » أى سنة ٦٣٥ ه ولكن كُتِبَ خطأ من قلم الناسخ فى آخر الكتاب عندما نقل كلمة الصغانى التى ذكر فيها تاريخ فراغه من تأليف التكملة وهو سنة ٦٣٥ ه ولكن الناسخ أخطأ قلمه فكتب أن تاريخ الفراغ كان سنة سبعمائة بدل ستمائة ، والمعروف أن الصغانى فرغ من التأليف سنة ٦٣٥ ه .

وهذه المخطوطة فى مجلد ضخم ؛ ورقمها بمكتبة شيخ الإسلام ٤٢ لغة ، وفى خزانة كتبى مصورة هذه النسخة ، وهى فى اثنى عشر مجلداً ، كما تضم خزانتى مصورة لنسخة دار الكتب المصرية المكتوبة سنة ٦٤٢ ه فى ستة مجلدات ، وفى آخر ورقة منها ثبت بمراجعه ، وعليها بخط السيد محمد مرتضى الزبيدى ما يفيد أنه قابل هذا الكتاب وعارضه على كتابه « تاج العروس » من أوله إلى آخره فى مجالس آخرها ثانى ربيع الأول سنة ١١٩١ ه ، ومنه نسخة بالمكتبة المحمودية فى أربعة مجلدات ، وهى جيدة موثوق بها .

وقد أردت نشر التكملة مع الصحاح ، وكنت طبعت بضع « كراسات » ولكنى وجدت وقتى غير متسع لهذا العمل الضخم ، فأرجأت نشر التكملة ، وهذا ما جعل فى الصحاح ناحية لم أبذل فيها كل جهدى ؛ تلك هى الإشارة إلى كل ما فى الصحاح من وهم ، لأننى كنت أريد نشر هذين المعجمين نشراً علمياً جديداً ، وذلك بأن أورد المادة من الصحاح ، ثم أتبعها بتكملتها من التكملة ، ومع هذا يجد القارئ أننى لم أهمل الإشارة إلى أوهام الصحاح

كل الإهمال ، بل عنيت ، وأرجو الله أن يوفقنى لنشر التكملة ، وقد أعددت العدة لنشر تهذيب الأزهرى وتكملة الصغانى بعد أن أنتهى من طبع الصحاح ، والله الموفق لما صمدت له .

٢٩ — الذيل والصلة لكتاب التكملة وحاشيتها ، للصغانى أيضاً ؛ وذكر فى مقدمته قائلا : « هـذه حاشية ذيل الصحاح فى اللغة من تأليفى المسمى بالتكملة وصلته ، أفردتها تسهيلا على الطالب ؛ وتيسيراً على الراغب ، فمن حواها والتكملة حاز جميع ما فات الجوهرى ، ومن جمع بينها و بين الصحاح أو اقتنى كتابى المسمى بمجمع البحرين حاز اللغة بجذافيرها » ومنه نسخة بمكتبة مراد ملا تحت رقم ١٧٦٦ وأوراقه ٣١١ وقد كتبت فى حياة المؤلف وعلى هوامشها تصحيحات بخطه ، وكذلك العنوان بقلمه[١] .

٣٠ — ما أهمله الجوهرى من لغة ؛ للصغانى أيضاً ، وهو كتاب صغير أكمل به التكملة ، ذكر فيه ما فاته ذكره فيها ، وترتيب كل معجمات الصغانى على طريقة الصحاح .

٣١ — القراح بِتَكَمُّل الصحاح . من تأليف أبى الفضل محمد بن عمر بن خالد القرشى المعروف بجمالى القرشى ، وكان حياً سنة ٦٨١ هـ ، وهو تكملة للصحاح[٢] ، ولكنه ليس كتكملة الصغانى ، وترتيب مواده مثل ترتيب الصحاح ، واستدرك القرشى على الجوهرى مواد ، ونقده فى مواضع .

---

(١) نقلنا ما كتب عن الذيل من فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٣٥٥ .

(٢) معجم سركيس ٧٠٧ ومخطوطة « الصراح من الصحاح » بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة .

٣٢ — كتاب الإمام اللغوى عبد الله بن السيد المهدى بن محمد بن مسعود بن الحوالى الحميرى الملقب بالبحر ، وهو من علماء اليمن ، توفى سنة ١٠٦١ هـ وقد استدرك فيه على الصحاح وسماه صاحب أسماء المؤلفين[1] « شرح القاموس » . وهو ليس بشرح ، بل استدراك على القاموس والصحاح ، وهو فى مجلد واحد[2] .

٣٣ — القاموس المحيط والقابوس الوسيط فيما ذهب من كلام العرب شماطيط ، لمجد الدين أبى طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازى الفيروزبادى (٧٢٩ — ٨١٦ هـ) ويتصل نسبه بأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان المجد ممن فاقوا أقرانهم على رأس القرن الثامن فانتهى إليه فى عصره العلم بالعربية ، وقد حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ، وكان سريع الحفظ وقال عن نفسه : إنه كان لا ينام حتى يحفظ مائتى سطر ، ورحل إلى العراق ثم الشام ، وسافر إلى بلاد الروم والهند واليمن ، وذهب إلى مكة مراراً وجاور بها ، وأقام بالمدينة المنورة و بالطائف ، وله بهذه المدن مآثر حسنة ، وتلقى فيها العلم على أعظم العلماء فى زمانه .

وكان المجد موضع التجلة والتبجيل من الناس فما دخل بلداً إلا أكرمه أهله ، بل بالغ الملوك والحكام فى تعظيمه مثل شاه منصور بن شاه شجاع فى تبريز ، والأشرف صاحب مصر ، وأبى يزيد صاحب الروم ، وابن إدريس فى بغداد ، بل كان الحكام العتاة الظلمة يعظمونه ويبالغون فى تعظيمه ، فقد كان تيمورلنك المعروف بعتوِّه وعسفِه وطغيانه شديد الإعظام والإكرام للفيروزبادى ؛ حتى قيل : إنه أعطاه عند اجتماعه به مائة ألف درهم .

(١) أسماء المؤلفين ١ : ٤٤٧ .

(٢) مقدمة تاج العروس ١ : ٣ .

وله مؤلفات كثيرة فى مختلف العلوم والفنون المعروفة عند العرب ، منها « الأحاديث الضعيفة » و « محاسن الطائف » و « أسماء الغادة » و «أسماء النكاح » و « زيارة الحجون » و « افتراض الجهاد » و « أشراف الحنفية » و « طبقات الشافعية » و « المثلث فى اللغـــة » و « البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة » و « أسماء الليث » و « تحبير الموشِّين فيما يقال بالسين والشين » ؛ وقد تتبع فى التحبير أوهام المجمل فى أكثر من ألف موضع ، و « تفسير الفاتحة » و « أسماء الخندريس » و « فضائل سورة الإخلاص » و « الروض المسلوف فيما له اسمان إلى الألوف » و « شرح قصيدة بانت سعاد » و « اللامع العجاب الجامع بين المحكم والعباب » و « المتفق وضعاً والمختلف صنعاً » و « شرح صحيح البخارى » و « تاريخ أصبهان » و « شرح البردة » و « تهييج الغرام إلى البلد الحرام » .

وأشهر مؤلفاته « القاموس » بل يُعَدُّ من أشهر المعجمات العربية ، وقد جمع فيه خلاصة « المحكم » لابن سيده ، و « العباب » للصغانى ، واستدرك فيه على الجوهرى موادَّ كثيرة ، ووهَّمه كثيراً ، وعَلَّم على المستدرك بالأحمر مفاخرة منه وإظهاراً لفضله وقدرته وعلمه وبياناً لعجز الجوهرى وانتقاصاً له .

وقد تحامل الفيروزبادى على صاحب الصحاح ، ووَهِمَ المجد نفسه فى كثير مما وهَّم فيه الجوهرى ، ومع انتقاص المجد الصحاحَ فإنه سار على نهجه ونظامه وترتيبه .

وكان « القاموس » من أعظم المعجمات التى بعثت النشاط فى محيط التأليف المعجمى واللغوى . وقد تُلُقِّىَ القاموس بالترحاب والإكبار ، وقامت حوله دراسات ، وألف العلماء كتباً كثيرة تناولوا فيها القاموس من مختلف الزوايا ، فبعضهم شرحه ، وبعضهم نقده ووهّمه ، وبعضهم دافعوا عن القاموس ، وبعضهم اختصره ، وحسب القاموس شهرة أنه أصبح عند المتأخرين مرادفاً للمعجم ، حتى أن أحدنا يسمع سائلا يقول : قاموس الصحاح ؛ وقاموس لسان العرب ، وقاموس التهذيب ، وقاموس العين ، مما يدل على طغيان اسمه على المعجمات ، بل سمى باسم القاموس كثير من المعجمات ، مثل : القاموس العصرى ، وقاموس الجيب .

ومن الكتب التى ألفت حول القاموس :

(١) « تاج العروس من جواهر القاموس » وهو شرح القاموس ، لمحمد مرتضى الحسينى الزبيدى ، وهو أعظم معجم عربى مطبوع ، وفيه عشرون ومائة ألف مادة ، وقد طبعته مصر ، وجزى الله الناشر عن لغة القرآن أحسن الجزاء .

وما أدرى أفى الوسع طبع التاج طبعاً أنيقاً يليق بمقامه الرفيع ، وترتيب مواده ترتيباً حسناً بحيث يكون رأس المادة فى أول السطر ، وكذلك مشتقاتها ؛ ولعل الله يوفق ناشراً لإعادة طبع التاج فيدين العربية ديناً لا يقضى .

(٢) « إضاءة الراموس وإفاضة الناموس على أضاة القاموس » ، لمحمد ابن طيب الفاسى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ وهو شرح للقاموس .

(٣) « شرح القاموس » لابن معصوم السيد على خان ابن السيد الأمير نظام الدين أحمد بن محمد معصوم الحسينى الدشتكى الشيرازى الشيعى (١٠٥٢ — ١٢٣٥ هـ) .

(٤) « الأقيانوس فى شرح وترجمة القاموس » لأحمد عاصم بن جنانى العينتابى الرومى ، أبو الـكمال ؛ المعروف بجنانى زاده ، من الموالى (١١٦٩ — ١٢٣٥ هـ) .

(٥) « إضاءة الأدموس ورياضة الشموس من اصطلاح القاموس » لأبى العباس أحمد بن عبد العزيز المغربى ؛ الشهير بالهلالى أو الفيلالى ، السجلماسى (١٠٧٠ — ١١٧٥ هـ)[(١)]

(٦) حاشية أبى العباس أحمد بن عبـد العزيز الفيلالى ، وقد شرح القاموس شرحاً وافياً حسناً .

(٧) « حلية العروس نظم إضاءة الأدموس » وهو نظم كتاب الهلالى ، وقد نظمه الـكردودى قاضى طخمة ، توفى ١٢٦٨ هـ .

(٨) « القول المأنوس فى صفات القاموس » لمحمد سـعد الله المفتى برامفور ، المتوفى سنة ١٢٨٧ هـ .

(٩) « القول المأنوس بتحرير ما فى القاموس » لمحمد بن يحيى القرافى المتوفى سنة (١٠٠٨ هـ) .

(١٠) « القول المأنوس بشرح مغلق القاموس » للقرافى أيضاً .

(١١) « القول المأنوس فى حاشية القاموس » لعبد الباسط بن خليل ابن شاهين الملطى القاهرى الشهير بابن الوزير الحنفى (٨٤٤ — ٩٢٠ هـ) .

(١٢) « القول المأنوس » لمحمد بن عبد الرءوف بن على بن زين العابدين المناوى الفقيه الشافعى (٩٢٤ — ١٠٣١ هـ) .

---

(١) رسالة في اصطلاح القاموس، تأليف الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام الوزجاني، من علماء القرن الثاني عشر، ألفها سنة ١١٧٨ هـ اقتطفها من « إضاءة الأدموس » للهلالي. منه نسخة بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٨٥ مجاميع تيمور.

(١٣) « شرح خطبة القاموس » للمناوى أيضاً .

(١٤) « فتح القدوس فى شرح خطبة القاموس » لأحمد بن عبد العزيز الهلالى السجلماسى .

(١٥) كتاب محب أبى الوليد عبد الباسط بن محمد الشهير بابن الشحنة الحلبى الحنفى المتوفى سنة ٩٠٣ هـ .

(١٦) كتاب أبى الروح عيسى بن عبد الرحيم الكجراتى .

(١٧) « شرح القاموس » لميرزا على الشيرازى .

(١٨) كتاب أحمد بن مسعود الحسينى الهركامى الهندى .

(١٩) كتاب زين العابدين بن محسن الحديدى الأنصارى من أهل القرن الثالث عشر .

(٢٠) « الزهر اليانع على قول صاحب القاموس : لا مانع » فى مقدمة القاموس . لمحمد بن يوسف الدمياطى الحنفى ، من القرن الحادى عشر .

(٢١) « منتهى الأرب » رتبه مؤلفه — وهو غير معروف — على المصباح المنير ، ذكره محمد صديق خان فى البلغة .

(٢٢) كتاب محمد بن عبد الرءوف المناوى ، استدرك فيه على القاموس .

(٢٣) كتاب عبد الله بن المهدى الحوالى اليمنى الملقب بالبحر ، المتوفى سنة ١٠٦١ هـ استدرك فيه على القاموس وعلى الصحاح .

(٢٤) « رجل الطاووس » لمحمد بن عبد الرسول بن قلندر الحسينى البرزنجى (١٠٤٠ — ١١٠٣ هـ) وتوفى بالمدينة المنورة .

(٢٥) « التكملة والصلة والذيل على القاموس » لمرتضى الزبيرى ، وقيل : التكميل والصلة والذيل .

(٢٦) « ابتهاج النفوس بذكر ما فات القاموس » لمحمد النهالى الحلبى .

(٢٧) « رسالة العنقاء المغرب الواقع فى القاموس » ، للشيخ محمد ابن عبد الرحمن الدنوشرى الشافعى المتوفى بمصر سنة ١٠٢٥ هـ أولها « الحمد لله رب المشرق والمغرب » .

(٢٨) « الإفصاح فى زوائد القاموس على الصحاح » للسيوطى ، ولم يتمه .

(٢٩) « بهجة النفوس فى المحاكمة بين الصحاح والقاموس » .

(٣٠) « الدر اللقيط فى أغلاط القاموس المحيط » لمحمد بن مصطفى الداوودى ؛ المعروف بداود زاده المتوفى سنة ١١٠٧ هـ جمع فيه الأغلاط التى عزاها القاموس إلى الصحاح وردَّ عليها .

(٣١) « مرج البحرين » لأويس القاضى ابن محمد ؛ المعروف بويس ، المتوفى سنة ١٠٣٧ هـ أجاب فيه على اعتراضات المجد على الصحاح .

(٣٢) « الوشاح وتثقيف الرماح فى رد توهيم المجد الصحاح » لأبى زيد عبد الرحمن بن عبد العزيز التادلى .

(٣٣) « فلك القاموس » لعبد القادر بن أحمد اليمنى من تلاميذ ابن الطيب الفاسى ، علل فى مقدمته إعجاب الناس بالقاموس ، وفضّل الصحاح عليه ، وتتبع فيه ما وهّمه فيه الفيروزبادىُّ ورد عليه وعلى غيره ، معتمداً على شيخه ابن الطيب الفاسى .

(٣٤) « ضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس » وقد ذكره محمد صديق خان ، ولم ينسبه .

(٣٥) « طراز اللغة » للسيد على خان ، نقد فيه القاموس ورد على صاحبه ما وهّم فيه الصحاح .

(٣٦) « الجاسوس على القاموس » لأحمد فارس الشدياق ، نقد فيه الفيروزبادى .

(٣٧) « تصحيح القاموس » لأحمد تيمور باشا .

(٣٨) « ترويح النفوس على حواشى القاموس » للشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى المصرى المتوفى سنة ١٣٠٦ ﻫ .

(٣٩) كتاب الشيخ محمد النجارى المصرى المتوفى سنة ١٣٣٢ ﻫ أخذ لسان العرب لابن منظور والقاموس ورتبهما ترتيباً جديداً على نسق جديد غير مسبوق ، وهو أنه رتب موادها على الحروف الهجائية ، مهملا الاشتقاق والتجريد ، فكلمة « كتب » يضعها فى حرف الكاف ؛ وكلمة « مكتب » فى حرف الميم . فهو يضع الكلمة فى بابها باعتبار أول حرف يُنطَق به ، غير ناظر إلى حقيقته ؛ أهو مجرد أم مزيد .

(٤٠) معجم باللغة العربية واللاتينية للمستشرق الألمانى فرايتاغ Freytag جمع فيه ما اختار من القاموس والصحاح وغيرهما ، ويقع معجمه فى أربعة مجلدات .

(٤١) « حاشـية على القاموس » لسعد الله بن عيسى ، المعروف بسعدى چلبى ، القاضى بالقسطنطينية ، المتوفى سـنة ٩٤٥ ﻫ وهى تقييدات كتبها فى هوامش نسخته من القاموس .

(٤٢) وجمع عبد الرحمن بن على الأماسى المتوفى سنة ٩٨٣ ﻫ تقييدات سعدى چلبى وألف منها كتاباً .

(٤٣) « حاشية على القاموس » لنور الدين على بن غانم المقدسى المتوفى سنة ١٠٠٤ ﻫ دوَّنها ولده من طرة القاموس .

(٤٤) « كسر الناموس » لعبد الله بن شرف الحسنى ؛ ملك اليمن ، المتوفى سنة ٩٧٣ ﻫ .

(٤٥) « الناموس على القاموس » وهو حاشية لمحمد أمين بن فضل الله المحبى .

(٤٦) « حاشية ابن الأمير » ذكرها محمد سعد الله .

(٤٧) « مختصر القاموس وزيادته » لأحمد بن شاهين القبرصى الدمشقى ، المعروف بالشاهين (٩٩٥ — ١٠٥٣ ﻫ) .

(٤٨) « تلخيص القاموس » أو « كتاب البرهان » لإبراهيم بن محمد الحلبى المتوفى سنة ٩٥٦ ﻫ .

(٤٩) « مختصر القاموس » لعلى بن أحمد الهيتى ، وكان حيا سنة ١٠٢٥ ﻫ حل فيه رموز القاموس ، وحذف الشواهد والأدلة ؛ وتوهيمات المجد الصحاح ؛ وكثيراً من الصيغ .

(٥٠) « الناموس » لعلى بن سلطان محمد القارى الهروى ، نور الدين ؛

الفقيه الحنفى ، نزيل مكة المكرمة ، وقد توفى بها سنة ١٠١٤ هـ لخص فيه ما ورد من القاموس ، واستدرك فيه عليه .

(٥١) « البابوس على القاموس » للشيخ أحمد بن مصلح الدين موسى ، المعروف بابن مركز الرومى ، من رجال الصوفية ، وتوفى سنة ٩٦٣هـ والبابوس ترجمة لكتاب الدر اللقيط فى أغلاط القاموس المحيط .

(٥٢) « أحكام باب الإعراب من لغة الأعراب » ، لجبرائيل فرحات الماردنى (١٠٨١ — ١١٤٥ م) .

(٥٣) كتاب أبى عبد الله محمد بن أحمد الدلأئى الشهير بالمسناوى ، المتوفى سنة ١١٣٦ هـ وهو نقد للقاموس ودفاع عن الصحاح .

(٥٤) « مدّ القاموس » لادوارد لين A. Lane (١٨٠١ — ١٨٧٦م) ترجم فيه « تاج العروس » للزبيدى ، وحذف فيه ما تكرر من ألفاظ فى مواد التاج ، وهو أشهر معجمات المستشرقين[1] .

وهناك دراسات علمية ناضجة ، وكتبٌ ألفت حول القاموس تركناها اكتفاء بهذا القدر من الكتب التى أثبتناها هنا .

---

(١) وقع في يدي وأنا أعد الصحاح للطبعة الثانية سنة (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) كتاب « ترجمة القاموس » بالتركية، تأليف حسن حلمي أفندي، ويقع في أربعة أجزاء، طبع المطبعة البحرية بالآستانة سنة ١٣٠٥ هـ.

وقرأت في معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٣/ ٢٥٥ : طب القاموس، وأمثال القاموس، تأليف حسن بن علي بن عبد الحسين بن نجم السعدي الرياحي، الدجيلي الأصل، الململومي المحتد، النجفي المولد والمسكن والمدفن؛ الشهير بالقفطان (وفي أعيان الشيعة: حسن بن علي بن نجم بن عبد الحسين) ولد سنة ١١٩٩ هـ (١٧٨٥ م) وتوفي سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م).

وبدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٩ مجاميع تيمور نسخة من كتاب « الرسالة العِشْرية في شرح قول القاموس: والعِشْر، بالكسر: ورد الإبل اليوم العاشر والتاسع. صنفها مؤلفها بشير أغا - أغا دار السعادة، مدة السلطان محمود الأول بن مصطفى، أي في القرن الثاني عشر.

وجاء في سلك الدرر ٣/ ١٧٩ - ١٨٠ : أن عمر بن عبد الجليل البغدادي ألف رسالة في شرح قول صاحب القاموس: العِشر بالكسر، الخ.. (أنظر ٦٩ مجاميع تيمور).

وأطلنا فى هذا السبيل ، ووقفنا عند القاموس أكثر من غيره ، لأنه الكتاب الذى ألفه صاحبه ليخفت به صوت الصحاح ولينافسه به .

ونعود الآن إلى ذكر بقية التكملات والمستدركات فنقول :

٣٤ — «الراموز» للسيد محمد بن حسن الشريف بن حسام الدين المتوفى سنة ٨٦٦ هـ . وهو الصحاح نفسه إلا أن السيد جرده من الشواهد ، وأوجز الشرح ، وحذف الأمثال والأنساب ، وشرح صاحب الراموز عمله فى مقدمته حيث قال : « إن الصحاح كتاب فاخر ، وبحر موّاج زاخر ، لكن لما فيه من تطويل وإطناب — بإيراد كثير مما يُستغنى عنه من الأمثال والشواهد والأنساب ، واختصره بعض الفضلاء ولكنه أخل ، كما أن الأصل أسهب وأمل ، وزاد فيه فوايد سمحت بها قريحته الوقادة وطبيعته النقادة ، وإن كان بعضه مما يجاب كما أشرت إليه فى أثناء الكتاب — أضفت إلى ما اختاره وقبله ، جميع ما أهمله من اللغة وأغفله ، لتتميم الفائدة وتعميم العايدة ، ثم ألحقت به غرايب ألفيتها فى « المغرب » للمطرزى ، وعثرت عليها فى « الفائق » للزمخشرى ، و « النهاية » لابن الأثير أبى السعادات الجزيرى » .

وعند ما حذف المؤلف الشواهد والأنساب والأمثال أضاف إليه موادّ كثيرة ، وأضاف بعض « الخواص » الطبية ، آخذا على الجوهرى ما يعد من حسنات كتابه ، فليس فيه ما يستغنى عنه مما حذفه ، وليس اتهامه الصحاح بأنه أسهب وأملّ صحيحاً ، فمن ميزات الصحاح إيجازه واختصاره ، وليس فيه تطويل وإطناب ، بل الصحاح دقيق العبارة موجزها .

وقد اتهم السيد — غفر الله له — الجوهرى اتهاما غير صحيح ، اتهمه فى مقدمته بأن ما نقله مطعون ، وكتابه « الصحاح » بخلاف الصواب مشحون[١] ، والحق أن ميزة كتاب الجوهرى التزامه الصحيح ، وهذا ما حمله على أن يغفل آلاف المواد مما استدركه العلماء عليه .

وكان السيد متنفجاً مغروراً صاحب هوى ، ولهذا تحامل على الجوهرى وتجنى على الصحاح . وعلى كل فالراموز معجم جليل فيه حوالى ثمانين ألف مادة ، وفيه نوادر وفوائد لغوية جليلة ، وسمته البارزة الإيجاز الدقيق ، ويكاد أسلوبه يشبه الأسلوب التلغرافى .

وكان الراموز من مراجع الزبيدى فى تاج العروس كما ذكر فى مقدمته ، ولكنه لم يعرف اسم المؤلف بل قال : « والراموز لبعض عصريى المصنف » .

ومنه نسخة هى أقدم نسخه إطلاقا ، لأنها مسودة المؤلف الأولى ، وفرغ منها فى ربيع الآخر سنة ٨٥٧ هـ وقد منّ الله علىّ بشرائها وزيّن خزانة كتبى بها ، وهى الآن تزين مكتبة الشيخ محمد سرور الصبان .

ومنه نسختان بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة ، وكل منهما فى مجلد ضخم كبير ، إحداهما تحت رقم ٥٩ لغة وأوراقها ٤٠٠ ونسخت سنة ٩٦١ هـ وبها تعليقات بالعربية والتركية ، وتصويبات من القاموس بقلم كمال باشا زاده ، والثانية رقم ٦٠ لغة وأوراقها ٥٠٠ ونسخت سنة ٩٦١ هـ ولا يعرف ناسخاها .

---

(١) مقدمة الراموز .

وبدار الكتب المصرية نسخة مصورة من أصل بمكتبة « يكى جامع » بالآستانة ، مكتوب فى سنة ٩٨٨ ﻫ وهى فى ثلاثة مجلدات .

* * *

وهناك كتب كثيرة كان فى وسعنا أن نضعها فى هذا الباب ، لأنها استدركت على الصحاح ؛ مثل كتب الحواشى ، وبعض كتب النقد ، وفى وسع الباحث أن يضعها فى هذا السمط إذا أراد ، وفى وسعه أن يضع كتب التكملات والمستدركات فى باب النقد ؛ لأنها نقدت الصحاح .

كتب النقد

الدراسات النقدية التى قامت حول الصحاح كثيرة ، وألفت فيها كتب ؛ بعضها ألفه علماء دفعهم الهوى ، وبعضها علماء أرادوا النقد النزيه ورغبوا فى الحق ، وقد تناول الصحاحَ عديد من نقدة اللغة والشعر والأدب والأنساب ، ونظر كل مؤلف من زاويته ، واستوعبت الدراسة النقدية كل جوانب الصحاح ، وممن نقدها : أبو سهل الهروى ، وعلى بن حمزة البصرى ، والصغانى ، وابن القطاع ، وابن برى ، والبسْطى ، والقصبانى ، والشاطبى ، والتبريزى ، وكانوا منصفين ؛ والفيروزبادى ، وجمال القرشى ، وكانا متحاملين ؛ وغيرهم ممن مرّ ذكرهم ، ولا داعى لأن نعيد ذكرهم بعد أن أفردنا لمؤلفات هؤلاء وتعليقاتهم أبواباً خاصة ، وأشرنا إليها فيما قدمنا .

أما الكتب التى تصلح لأن نصفها بأنها كتب نقد فكثيرة ؛ أهمها :

٣٥ — « قيد الأوابد » من الفوائد ، لأبى الفضل ؛ أحمد بن محمد ابن أحمد الميدانى النيسابورى المتوفى سنة ٥١٨ ﻫ ونسب الميدانى إلى

« ميدان زاده » محلة فى خراسان ، وهو صاحب « مجمع الأمثال » المشهور ، وذهب بروكلمان إلى أنه نقد فيه الجوهرى .

٣٦ — «الإصلاح لما وقع من الخلل فى الصحاح » ، للوزير العلامة جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف بن إبراهيم الشيبانى القفطى (٥٦٨ — ٦٤٦ هـ) والقفطى نسبة إلى قفط من الصعيد الأعلى بمصر ، سكن حلب ، وتولى الوزارة ، ولقب بالوزير الأكرم ، وكان جليلا كريما مغرى بجمع الكتب ، وله مؤلفات ؛ منها : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، وأخبار مصر ، وإنباه الرواة على أنباه النحاة ، وحقق هذا الكتاب صديقنا الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

وقد أشار إلى « الإصلاح لما وقع من الخلل فى الصحاح » ياقوت وابن العماد والسيوطى وصاحب كشف الظنون .

٣٧ — « نقود على الصحاح » ، لأبى العباس أحمد بن محمد بن أحمد الأندلسى المالكى المعروف بابن الحاج الإشبيلى المتوفى سنة ٦٥١ هـ وقيل : توفى سنة ٦٤٧ هـ[١] . وهو من البارعين فى علوم اللغة والعربية والعروض ، وله مؤلفات غير نقوده ؛ منها : إملاء على كتاب سيبويه ، وكتاب الإمامة ، وحكم السماع ، ومختصر خصائص ابن جنى ، والروائع[٢] ، وقد عدَّ صاحب البلغة فى أصول اللغة كتاب « نقود على الصحاح » من كتب الحواشى ، والصحيح ما ذكرناه .

(١) مجلة المجمع اللغوى المصرى ، العدد ٣ ص ٣٥٣ .
(٢) البغية ١٥٦ أسماء المؤلفين ١ : ٩٥ .

٣٨ — « نفوذ السهم فيما وقع للجوهرى من الوهم » لصلاح الدين ؛ أبى الصفاء : خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدى ثم الدمشقى (٦٩٦ — ٧٦٤ هـ) وللصفدى مؤلفات كثيرة ؛ ولم يأت فى كتابه هذا بجديد مذكور، بل تضيَّف ابن برى وأخذ نقوده بعد تجريدها من الشرح وتكملة الشواهد، « وأحل محل ما حذفه بعض أدبيات واستدلال ببعض أبيات » .

٣٩ — « غوامض الصحاح » لابن أيبك الصفدى ، وهو نقد للصحاح ، وهو غير « نفوذ السهم » فهو فى « الغوامض » جلَّى بعضها ، ثم نقد بعض ما وقع للجوهرى من الوهم .

٤٠ — « مجمع السؤالات من صحاح الجوهرى » تأليف الفيروزبادى

٤١ — « نور الصباح فى أغلاط الصحاح » لأبى الفضل محمد بن عمر ابن خالد القرشى المعروف بجمال القرشى ، وهو نقد للصحاح ؛ ولكنّ القرشى لم يكن نزيهاً فى نقده ، بل كان يتحامل على الجوهرى ، وفى بعض نقده كان منصفاً ، وأخذ على الجوهرى بعض ما وهم فيه ، وصوَّب له بعض ما صحَّف وحرَّف وغيَّر فى كلمات اللغة وأسماء الأعلام ، وهو يشبه التكملة فى بعض الوجوه ، إلا أن « نور الصباح » موجز ، وقد سلك سبيل الجوهرى فى ترتيب المواد .

وللقرشى أربعة كتب ؛ ما ذكرناه هنا أحدها ، وقد مر له فى باب التكملات كتاب آخر هو « القراح بتكمل الصحاح » وله « مختصر الصحاح » وترجمة له سماه « الصراح » وقد تحامل فى الصراح على الجوهرى ، فانبرى

له الشيخ محمد سعد الله المفتى وفنّد آراء القرشى ، ورد عليه فى عنف تحت اسم « بور الصباح فى أغلاط الصراح[١] » .

٤٢ — نور الدين : على بن سلطان محمد القارى الهروى ؛ الفقيه الحنفى ، نزيل مكة والمتوفى بها سنة ١٠١٤ هـ ألف كتاب « الناموس » وهو ما استدركه على القاموس ، وفيه نقد للجوهرى ، وقد ردَّ عليه ابن الطيب الفاسى ، ومحمد بن أحمد المسناوى ، وابن حجر المكى ، والشهاب الخفاجى[٢] .

٤٣ — محمد بن عبد المنعم بن محمد القاهرى الجوجرى (٨٢١ — ٨٨٩ هـ) ألف كتاباً أخذ فيه على الجوهرى ونقده ، فرد عليه السيوطى رداً عنيفاً تجنى فيه عليه .

٤٤ — عبد البر بن محمد بن محمد بن الشحنة ؛ سرى الدين ؛ أبو البركات الحلبى ثم القاهرى الحنفى (٨٥١ — ٩٢١ هـ) ألف كتاباً فى نقد الجوهرى ، فألف السيوطى كتاباً فى الرد عليه .

الدفاع عن الصحاح

ما كتب من الدفاع من الأسفار الخاصة عن الصحاح كثير ، وهناك من العلماء من جردوا أقلامهم فى بطون أسفارهم دفاعاً عن الجوهرى ، وأكثر الباحثين فى المعجمات واللغة انتصروا له وردوا عنه عدوان خصومه وحساده ، وأشادوا به ، واعتذروا لغلطاته وأخطائه ، ودفع التعصب بعض

(١) البلغة ١٧٧ .
(٢) مقدمة التاج ٣ .

أنصار الجوهرى إلى تسويغ أوهامه ، كما صنع ابن الطيب الفاسى الذى خرق من أجل تعصبه الإجماع ، وتحامل على المجـد تحاملا شديداً آخذه عليه تلميذه الزبيدى[١] .

أما الكتب التى ألفت فى الدفاع عن الصحاح فكثيرة ، وأكثرها ألِّف بعد عصر القاموس رداً عليه وعلى أنصاره . وأهم من انتصروا للجوهرى ودافعوا عنـه وذادوا عن حماه ؛ وألفوا الكتب الخاصة ؛ أو بثوا فى ثنايا مؤلفاتهم الردود ، هؤلاء الأعلام :

٤٥ — جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ألف — وهو بمكة — كتاب « اللقْط الجوهرى فى رد خباط الجوجرى[٢] » دفاعا عن الصحاح ، إلا أن بعض المستشرقين والباحثين العرب خلطوا بين هذا الكتاب وكتاب آخر يقرب عنوانه من عنوان هذا الكتاب ، والكتاب الآخر اسمه « اللفظ الجوهرى فى رد خبط الجوجرى » أو « غلط الجوجرى » والجوجرى هو محمد بن عبد المنعم بن محمد الجوجرى القاهرى (٨٢١ — ٨٨٩ هـ) وظن دى غويه وآدم متز[٣] « اللفظ الجوهرى » هو الكتاب الذى ألفه السيوطى دفاعا عن الجوهرى ، وتبعهما بعض إخواننا الباحثين من أساتذة جامعة القاهرة ، مع أن الكتاب الثانى يبحث مسألة « رؤية النساء » وألف فيها رسالة أخرى سماها « إسبال الكساء على النساء » ثم اختصرها وجعل اسمها « دفع الأسا فى تلخيص إسبال الكسا » .

---

(١) تاج العروس .
(٢) منه نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة تحت رقم ١٦١ لغة .
(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ٣٣٠ .

٤٦ — السيوطى أيضاً ، ألف كتاباً سماه « الكر على ابن عبد البر » رد فيه نقوده على الجوهرى[١] .

٤٧ — عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطى القاهرى الشهير بابن الوزير الحنفى (٨٤٤ — ٩٢٠ هـ) ألف كتاب « القول المأنوس فى حاشية القاموس[٢] » .

٤٨ — سعد الله بن عيسى بن أمير خان القسطمونى الرومى الحنفى، الشهير بسعدى چلبى ، القاضى بالقسطنطينية والمفتى بها ؛ توفى سنة ٩٤٥ هـ له حاشية على القاموس[٣] .

٤٩ — عبد الله بن الإمام يحيى شرف الدين بن شمس الدين بن المهدى لدين الله أحمد بن يحيى المرتضى الحسنى ملك اليمن المتوفى سنة ٩٧٣ هـ وألف كتاباً سماه « كسر الناموس فى شرح القاموس » رد فى مواضع كثيرة نقود المجد للصحاح[٤] .

٥٠ — على بن محمد بن خليل بن محمد ، المعروف بابن غانم المقدسى (٩٢٠ — ١٠٠٤ هـ) درس القاموس ؛ وله حاشية عليه[٥] ، رد فيها على المجد بعض توهماته الصحاح .

٥١ — بدر الدين : محمد بن يحيى بن عمر بن يونس القرافى المصرى

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٣٣٠ .
(٢) أسماء المؤلفين ١ : ٤٩٤ .
(٣) أسماء المؤلفين ١ : ٣٨٦ .
(٤) مقدمة تاج العروس ص ٣ أسماء المؤلفين ١ : ٤٧٢ .
(٥) أسماء المؤلفين ١ : ٤٧٤

المالكى المتوفى سنة ١٠٠٨ ﻫ ألف كتاب « بهجة النفوس فى المحاكمة بين الصحاح والقاموس » وقد ألفه للانتصار للصحاح ، وجمع مادته من خطوط عبد الباسط الملطى ، الشهير بابن الوزير الحنفى ؛ وسعدى چلبى ؛ وأحمد ابن عبد العزيز الهلالى وغيرهم [١] .

٥٢ — بدر الدين القرافى أيضاً ، ألف « القول المأنوس بتحرير ما فى القاموس » وهو نقد القاموس ، ودفاع عن الصحاح ؛ ورد توهيم المجد الصحاح ، وكان المؤلف يختار مواضع من القاموس يعلق عليها ، وفيه نقد يسير للجوهرى ، وإشارة إلى زيادة القاموس على الصحاح ، وأهم ما نقد به الفيروزباديّ تحامله على الجوهرى .

٥٣ — محمد بن يحيى القرافى ، ألف شرح القاموس عام ٩٧٠ ﻫ وفيه مواضع كثيرة رد فيها على المجد فى توهيمه الصحاح ؛ وللقرافى غير كتاب واحد حول القاموس .

٥٤ — أبو زيد عبد الرحمن بن عبد العزيز المغربى الشاذلى (التادلى) المدنى العمرى المالكى ؛ نزيل مكة ، وأحد المدرسين بالمسجد الحرام ، ألف « الوشاح وتثقيف الرماح فى رد توهيم المجد الصحاح » وقد رد فيه المؤلف على نقدات مجد الدين الفيروزبادى صاحب القاموس ، وأبان فيه أن المجد كان واهما فيما أخذه على الجوهرى .

بل لم يقتصر نقده أو ردُّه على المجد وحده ، بل تناول غير المجد

---

(١) مجلة المجمع اللغوى المصرى العدد ٣ صفحة ٣٥٥ وطبقات المالكية ٢٨٨ .

بالرد ، فقد رد على السيوطى والتبريزى ؛ وقال[١] : « ما أُخِذ على الجوهرى من التصحيف مما ذكره السيوطى ولم ينقده المجد . أنشد على الدبدبة بموحدتين :

عاثور شر أيّما عاثور   دبدبة الخيل على الجسور

قال التبريزى : الصواب دندنة بنونين ، وهى أن تسمع من الرجُل ولا تفهم ما يقول .

ومنه الحديث : « لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ » وكان أبو محمد الأسود ينشد هذا البيت استشهادا على ذلك . قلت : قد وافق الجوهرىَّ المجدُ والزبيدىُّ . فقال : الدبدبة : كل صوت كوقع الحافر على الأرض الصلبة . وقال الثانى الدبدبة : تقارب المشى فى سرعة . والمستشهد بالبيت على ما قال الجوهرىُّ أبو مهدية ، وهو من ثقات الأعراب وعلمائهم ، وأخذ عنه أبو زيد الأنصارى وأبو عبيدة والأصمعى ؛ وهؤلاء الثلاثة هم أئمة الناس فى اللغة وعلوم العرب . وأما الدندنة بنونين فقد فسرها الجوهرى بعين ما فسره التبريزى حرفاً بحرف ؛ واستشهد بالحديث أيضاً . والعلم عند الله » .

٥٥ — محمد بن مصطفى الداوودى المعروف بداود زاده ، ألف « الدر اللقيط فى أغلاط القاموس المحيط » وانتهى من تأليفه فى أوائل المحرم سنة ١٠١٧هـ ، وهو كتيب جمع فيه الغلطات التى عزاها المجد إلى الصحاح ورد عليها ، وانتصر للجوهرى وكتابه[٢] .

---

(١) الوشاح ، مخطوطة مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة وأوراقه ١١١ وطبع فى بولاق سنة ١٢٨١ هـ .

(٢) منه نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة تحت رقم ٥٠ لغة وأوراقه ١٦ .

٥٦ — أحمد بن مصلح الدين موسى ، المعروف بابن مرَكّز الرومى ، من الصوفية ، توفى سنة ٩٦٣ ﻫ ، ترجم فيه « الدر اللقيط فى أغلاط القاموس المحيط » تأليف داود زاده ؛ إلى اللغة التركية .

٥٧ — أبو الفتح عبد الله بن عبد الرحمن بن على بن محمد الدنوشرى المصرى الشافعى الصوفى المتوفى سنة ١٩٢٥ ﻫ ، ألف رسالة « العنقاء المغرب الواقع فى القاموس » دافع فيها عن الجوهرى[1] .

٥٨ — محمد بن عبد الرءوف بن على المناوى الشافعى (٩٢٤ — ١٠٣١ ﻫ) ألف « القول المأنوس » وصل فيه إلى حرف الدال ؛ وقيل : السين ولم يكمله ، وقد حشى به القاموس ، ورد عليه بعض توهيماته الصحاح .

٥٩ — القاضى أويس بن محمد الآلاشهرى الحنفى ، الشهير بويس (ويس الرومى) ولد سنة ٩٦٩ ﻫ وتوفى بأسكوب سنة ١٠٣٧ ﻫ . ألف كتابه « مرج البحرين » أجاب فيه على اعتراضات المجد ورد عليه ، ودافع عن الجوهرى ، ولم يكمله[2] .

٦٠ — محمد بن السيد عبد الرسول بن قلندر الحسينى البرزنجى الشهرزورى المدنى الشافعى ولد سنة ١٠٤٠ ﻫ وتوفى بالمدينة المنورة سنة ١١٠٣ ﻫ . ألف كتاب « رجل الطاووس فى شرح القاموس » وفيه دفاع عن الصحاح[3] .

٦١ — محمد أمين بن فضل الله الحموى الدمشقى الحنفى المتوفى سنة ١١١١ﻫ ألف « الناموس على القاموس » وفيه رد على توهيم المجد الصحاح .

---

(١) أسماء المؤلفين .

(٢) كشف الظنون ٢ : ١٣٠٨ ، ١٦٥٣ . وأسماء المؤلفين ١ : ٢٢٨

(٣) أسماء المؤلفين ٢ : ٢٠٢

٦٢ — السيد على خان ؛ صدر الدين الحسينى الحسنى ؛ ابن الأمير نظام الدين أحمد بن محمد معصوم ، المعروف بابن معصوم الحسينى الدشتكى الشيرازى الشيعى ، ولد سنة ١٠٥٢ هـ وتوفى بشيراز سنة ١١١٧ هـ[١] ألف كتاب « طراز اللغة » واسمه الكامل « الطراز الأول فيما عليه من لغة العرب المعوَّل » نقد فيه القاموس ، وآخذ الفيروزبادى على إهمال ضبط ما يجب ضبطه ، وتركه الدقة فى ترتيب بعض المواد ووضعها فى غير مواضعها ، وخطئه فى تفسير الكلمات ، وتصحيفه ، وسوء قوله وتعبيره ، ولامه على تجنيه وتحامله على الجوهرى ، وتوهيمه إياه ، ومن نماذج نقده ما ننقل من حرف الراء ، حتى يرى القارىء أسلوبه وطريقته ونظامه وترتيبه :

ب أ ر البئر كالعِهْن ؛ معروفة ، وتخفف بإبدال الهمزة ياء ، وهى مؤنثة ، أبآر — على أفعال — وآبار ؛ بتقديم الهمزة على الباء وقلبها ألفاً ، وأَبْؤُر كأفْلُس ، وبئار كذئاب ، وحافرها ؛ البَئَّار كعبَّاس . وقول الفيروزبادى : الأبّار ؛ غلط . وإنما الأبّار صانع الإبر لا حافر البئر .

ب ث ر البَثْر كفَلْس ، ويحرك ؛ أورام صغار رقيقة ، أو هى ما تفتح معها سطح الجلد سواء تقدمها ورم أولا ؛ واحدتها بهاء ، والجمع بثور كنمور . وقال الفيروزبادى : هو خراج صغار ، إذا كان الخراج اسم جنس كالنخل قال الله تعالى : ﴿ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ على اللفظ ، و ﴿ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ على المعنى . وهذا مما لا يخفى على صغار الطلبة ، فإن زعم أن الخراج مفرد كما هو ظاهر كلامه فقد خالف المنصوص عليه من أئمة اللغة .

---

(١) أسماء المؤلفين ١ : ٨١١ .

قال المطرزى فى المغرب : الخراج بالضم ، البثر . الواحدة : خراجة ، و بثرة وكذلك قال غيره . وخالف نفسه أيضا فى تفسيره فى باب الجيم حيث قال : الخراج كغراب : القروح . وفى قوله هنـا : البثر خراج صغير . و إلا فـكيف ساغ أن يفسر المفرد بالجمع ؛ والجمع بالمفرد ؟ وهل هو إلا كقولك : العذق ؛ بالفتح : النخل . والنخل : العَذْق ، وهو الواحدة من النخل . وكقولك : الرجل ؛ القوم . والقوم : الرجل ، وهو ظاهر الفساد .

ب خ ر البخار ، بالضم : ما تصاعد كالدخان من أجزاء هوائية تمازجها أجزاء صغار مائية ، تحللها الحرارة من مادة رطبة كالماء والأرض الرطبة ، جمعه أبخرة و بخارات . وقول الفيروز بادى : وكل دخان من حار بخار ؛ غلط قبيح ، فإن الدخان أجزاء نارية تخالطها أجزاء أرضية ، تحللها الحرارة من من مادة يابسة كالأرض اليابسة ، فبين البخار والدخان تقابل التضـاد ، فـكيف يكون كل دخان بخارا[1] ؟ .

٦٣ — ولابن معصوم أيضا شرح القاموس رد فيـه كثيراً من توهيمه الصحاح .

٦٤ — أبو عبد الله محمد بن أحمد الدلائى الشهير بالمسناوى الفقيه المالـكى المفتى المدرس بفاس المتوفى سنة ١١٣٦ هـ ألف كتابا نقد فيه الفيروز بادى ورد بعض توهيمه المجدَ[2] .

٦٥ — أبو عبد الله : محمد بن الطيب بن محمد بن محمد الشرقى الفاسى المالـكى

---

(١) مجلة الحج ، عدد ٧ سنة ١٣٧٤ هـ مقال الأستاذ عبد الله عبد الجبار .
(٢) أسماء المؤلفين ٣١٧ .

نزيل المدينة المنورة (١١١٠ — ١١٧٠ هـ) وهو محدث لغوى ، له تصانيف كثيرة ، ولد بفاس ومات بالمدينة المنورة ، ألف كتابا سماه « إضاءة الراموس وإفاضة الناموس ، وأضاة القاموس » شرح فيه غوامض القاموس واصطلاحاته ، ورد على نقوده للصحاح ، وبنى كتابه على كتابَيْ أبي الوليد محب الدين : عبد الباسط بن محمد ، الشهير بابن الشحنة الحلبى الحنفى المتوفى سنة ٩٠٣ هـ ، والبدر القرافى ؛ ورجع إلى غيرهما مثل أبى مهدى عيسى بن عبد الرحمن المراكشى ؛ الفقيه المالكى ؛ المفتى بمراكش ، المتوفى سنة ١٠٦٢[١] هـ .

٦٦ — أحمد بن عبد العزيز السجلماسى المغربى ، الشهير بالهلالى ، كان يدرِّس بسجلماسة ، وسافر إلى مكة مراراً ، وتوفى سنة ١١٧٥ هـ ، ألف « إضاءة الأدموس ورياضة الشموس فى اصطلاح القاموس » وقد دافع فى بعض مواضع من كتابه عن الجوهرى ، وله شرح خطبة القاموس سماه « فتح القدوس فى شرح خطبة القاموس » .

٦٧ — السيد عبد القادر بن أحمد بن عبد القادر الحسنى الكوكبانى اليمنى المتوفى سنة ١٢٠٧ هـ ، وهو من تلاميذ ابن الطيب الفاسى ، ومؤلفاته تزيد على الأربعين ، ومن أحسنها كتابه « فلك القاموس » ذكر فى مقدمته سبب إعجاب الناس بالقاموس وأسباب تأليفه وأسباب تأليف الصحاح ، وفضَّل الصحاح على القاموس ، وتتبع نقدات الفيروزبادى ورد عليها ، وأبان وهم المجد فيما حسبه وهما من الجوهرى[٢] ، وقد وصف عمله

---

(١) أسماء المؤلفين ١ : ٨١١ .

(٢) أسماء المؤلفين ١ : ٥٩٩ . ذيل كشف الظنون ٢ : ٢٠١ .

بقوله : « فى زماننا قد نقصت رتبة الصحاح ، واكتفى الناس بالقاموس لثلاثة أمور :

الأول : لجهلهم أن الصحاح أصح الكتب فى اللغة ، حتى توهموا أنه كثير الغلط لما سمعوا أن فيه تصحيفاً يسيراً ، أو لم يعلموا أن ذلك لا يخلو منه إلاّ كتاب الله عز وجل ؛ وأنه يمكن أن يعرفه كل مشتغل باللغة .

والثانى : لجهلهم بعيوب القاموس حتى صار عندهم جميع ما فيه قطعياً .

والثالث : جهلهم بمحاسن الصحاح .

وما ادعى المجد أن الجوهرى وَهِمَ فيه فهو دعوى مجردة ، وأوهام الصحاح يسيرة كما نص عليه الأئمة ، ولذلك اعتمد عليه أئمة اللغة بخلاف القاموس ، وإن أكب عليه أهل عصرنا ، على أنا تتبعنا كثيراً مما ادعى المجد وغيره أن الجوهرى وهم فيه ؛ فوجدناه صحيحا . وقد أبان ذلك شيخنا ابن الطيب فى شرح القاموس[1] » .

٦٨ — محمد سعد الله المفتى برامفور ، ألف كتاب « القول المأنوس فى صفات القاموس » وكسره على خمسة وثلاثين فصلا ؛ سمى كل فصل صفة ، وقد نقد فيه القاموس نقداً عنيفاً مراً ، ودافع عن الجوهرى دفاعا حاراً فيه فقه وعلم ومنطق ، وعقد لكل فصل عنواناً يدل على ما احتواه ، مثال ذلك أنه يذكر فى الصفة الخامسة عشرة « نسيان المجد بعض المعدود فى عدّ العدد المعدود » وهو فى ثلاثة مواضع ، وفى الصفة السادسة عشرة

---

(١) البلغة ١٥٣ .

« أوهام الفيروزبادى فى حصر الأوزان » والسابعة عشرة « تغليط المجد الصحاح لفظاً فى مواضع وإتيانه به فى موضع آخر » وذلك فى ثلاثة مواضع من القاموس ، والثامنة عشرة « أوهام المجد فى العروض » والتاسعة عشرة « أوهام القاموس فى التناقض » والعشرين « أوهام المجد فى الوزن والترتيب » والحادية والعشرين « أوهام الفيروزبادى فى كتابة اللغات بالحمرة ، إشارة إلى عدم ذكرها فى الصحاح ، مع أنها مذكورة فيه » وهى أربعون لغة . والثانية والعشرين « أوهام القاموس فى كتابة اللغات بالسواد » إشارة إلى أنها من الصحاح مع أنها ليست فيه ، وهى فى تسعة مواضع ، والثالثة والعشرين « أوهام المجد المتفرقة » والرابعة والعشرين « تخطئة المجد الجوهرى وهو عنها برى » والخامسة والعشرين « اعتراضه على الجوهرى » مع أنه يفعل ما فعله ، والسادسة والعشرين « نسْيان الفيروزبادى بعض اللغات المذكورة فى الصحاح مع التزام احتوائها » والسابع والعشرين « نسيانه المعانى المذكورة فى الصحاح » مع عدم إحرازها . والثامنة والعشرين « تركه الألفاظ المشهورة فى موادها » والتاسعة والعشرين « اللغات الزائدة على لغات القاموس » والثلاثين « التكرار والإعادة من غير إفادة » والحادية والثلاثين « ترجمة المجد بعض اللغات بألفاظ لا يذكر معناها فى مادتها » والثانية والثلاثين « الاقتصار إلى حد الاختلال فيشتاق الناظر فيه إلى تفصيل الإجمال » والثالثة والثلاثين « ما عيب على المجد[1] » .

٦٩ — محمد سعد الله المفتى المرادأبادى ، نزيل رامفور بالهند ، ألف « نور الصباح فى أغلاط الصراح » وهو رد على « الصراح » لأبى الفضل

---

(١) البلغة ١٥٣ .

القرشى ، والصراح ترجمة الصحاح ، وفيه نقد غير عادل ، وتحامل على الجوهرى وتجنٍّ ، و « نور الصباح » مؤلف باللغة الفارسية ، ومطبوع بالهند سنه ١٢٩٣ هـ[١]

٧٠ — أبو الكمال أحمد عاصم بن جنانى العينتابى الرومى ، المعروف بجنانى زاده ؛ من الموالى (١١٦٩ — ١٢٣٥ هـ) ألف كتاب « الأقيانوس فى شرح وترجمة القاموس » وهو ترجمة للقاموس وشرح ، وفيـه دفاع عن الجوهرى فى مواضع معدودات .

٧١ — عبد الهادى نجا الإبيارى المصرى المتوفى سنة ١٣٠٦ هـ وكان من أكبر علماء مصر ، ولد فى إبيار ، وجاور بالأزهر وبرع فى العربية حتى صار من أئمتها ، وكان فى العلوم الإسلامية مبرِّزا ، وكان إمام « المعية » الخديوية ومفتيها ، وكان شاعراً وأديباً ، وله مؤلفات ؛ منها : « الدورق » فى اللغة ، وألف كتاباً سماه : « ترويح النفوس على حواشى القاموس » رد فيه على الفيروزبادى كثيراً من توهيمه الصحاح[٢] .

* * *

وهناك كثير دافعوا عن الصحاح ومؤلِّفـه ، ولم يؤلف كل مدافع كتاباً مستقلا ، بل ألف كثير منهم كتباً مستقلة ، وعقد كثير من العلماء الفصول فى بطون الأسفار ، وبعضهم أشار — كلما دعت المناسبة — إلى ما يعد انتصاراً للصحاح ، وانتقاصاً لنقاده أو ردا عليهم ، وثار حول الصحاح جدل عنيف مشبوب الضرام ، استحال ـ أحياناً ـ إلى حرب كلامية مستعرة ، وانقسم الناس إلى فريقين ، فريق يعطى الصحاح حقه فيرفعه إلى أعلى

---

(١) البلغة .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، الجزء الرابع .

الذرى ، وفريق يتحامل عليه ، ومع هذا لا يستطيع أن يبخسه حقه ويخفض من قدره ، فصاحب القاموس – مع تحامله الشديد – لم يسعه إلا أن يصف أثر الصحاح وإكبار الناس إياه واعتمادهم عليه فى مقدمة كتابه ، إلا أن فريق النقاد معدود محدود ، والمتحاملون منهم قليل .

وأغفلنا ذكر كل من عقدوا الفصول دفاعاً ، أو بطَّنوا مؤلفاتهم بالذود عن الصحاح ، اكتفاء بمن ذكرنا منهم وبالكتب المؤلفة التى أشرنا إليها .

ومن ألوان النشاط التى كانت حول الصحاح مما يُعَدُّ من قبيل الدفاع انبراء العلماء بعضهم لبعض فيما يشبه الجدل ، ولكنه جدل علمى وعملى ، فالسيوطى ألف كتاباً سماه « الإفصاح بزوائد القاموس على الصحاح » فتصدى بعض المعجبين بالجوهرى وألفوا كتباً ؛ منها : « ضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس » و « ابتهاج النفوس بذكر ما فات القاموس » وهذه الكتب رد عملىٌّ على السيوطى ، فإذا كان للقاموس مزية الزيادة فى بعض المواد فإن الصحاح لا يفتقر إلى هذه المزية ؛ لأن فيه زوائد على القاموس .

والصراع الناشب بين معسكر الصحاح ومعسكر القاموس ذو ألوان وضروب ، فإذا ألف أحد كتاباً فى مزية أحد الكتابين العظيمين انبرى له من المعسكر الثانى من يتلمس المزايا نفسها ويؤلفها فى كتاب .

ومن حظ الصحاح أن مُكْبِرِى القاموس وقادرى مؤلفه هم ممن دافعوا عنه ، بل إن بعض شرّاح القاموس – كابن الطيب – تحامل على المجد وذاد عن الجوهرى ، حتى أنه فى سبيل الدفاع عن الصحاح كان يخرق الإجماع ولا يباليه .

وسنختم هذه الفصول بطائفة من الكتب ذات الموضوعات المختلفة ؛ التى ألفت حول الصحاح لتكمل صور النشاط الضخم الكبير الذى أوجده فى محيط التأليف اللغوى عامة والتأليف المعجمى خاصة .

ونترك هذا إلى موضعه لنستقبل مختصرات الصحاح ، فإذا وفيناها القول بررنا بما وعدنا .

المختصرات

من أعظم مظاهر النشاط : مظهر جليل رائع ، كان الصحاح باعثه فى محيط العلماء والكتاب والأدباء واللغويين ، ذلك محاولة تيسير الانتفاع بالصحاح وتمهيد سبيل إليه لا يبهر أنفاس سالكه ؛ بوساطة مختصرات ، يكون فيها غناء الباحث المتعجل ، والشادى المستسهل .

واحتشد العلماء حول الصحاح ، وأخذوا يختصرونه رغبة فى تقريبه إلى الناس ونشره تيسيراً للعلم والمعرفة بلغة القرآن ؛ وما فى العربية معجم احتُفِىَ به كالصحاح ، وما بها معجم التفَّ حوله جيش من العلماء يختصرونه ككتاب الجوهرى ، بل هو المعجم الوحيد الذى اختُصر كثيراً ، وما يزال يختصر ، مما يدل على عِظَم شأنه وسمو منزلته ، ومن أشهر المختصرات التى انشقت عن الأم الكبرى ؛ هذه الكتب :

٧٢ — « ينابيع اللغة » لتاج الدين محمود بن أبى المعالى بن الحسن الخوارى الذى كان حياً سنة ٥٨٠ هـ جرد فيه الصحاح من الشواهد ؛ واختصره ، ثم ضم إليه من « تهذيب اللغة » للأزهرى و « الشامل » لأبى منصور

الجبان و « المقاييس » لابن فارس قدراً صالحاً من الفوائد والفرائد ، وهو كتاب صالح كبير الحجم ؛ يقرب حجمه من حجم الصحاح[١] ، وهو غير كتابه « ضالة الأديب فى الجمع بين الصحاح والتهذيب » الذى أشرنا إليه فى باب الكتب التى جمعت بين الصحاح وغيره من المعجمات العربية ، ولم نضع « ينابيع اللغة » فيه لأنه مختصر للصحاح ، وبعد أن اختصره ضم إليه من التهذيب والشامل والمقاييس قدراً صالحاً ، ولو وضعناه لما كان علينا تثريب .

و « ينابيع اللغة » أقدم مختصر للصحاح ، والخوارى أول من تصدى له بالاختصار ، هذا ما وصل إلى علمنا ، وكنا ذكرنا فى المقدمة[٢] التى كتبناها لتهذيب الصحاح تأليف الزنجانى الذى نشرناه قبل بضع سنين ما ننقله : « لعل ترويح الأرواح للزنجانى أقدم مختصر لكتاب الصحاح » فالزنجانى والخوارى كانا متعاصرين إلا أن الزنجانى ولد سنة ٥٧٣ ﻫ والخوارى كان حياً سنة ٥٨٠ ﻫ وقرأ الخوارى الصحاح على أبى الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميدانى النيسابورى[٣] ، والميدانى توفى سنة ٥١٨ ﻫ[٤] وعلى هذا يكون الخوارى قرأ الصحاح على الميدانى قبل ميلاد الزنجانى بخمس وخمسين سنة .

ولا نشك أنه أسبق من الزنجانى ، وكان الخوارى مشاركا فى العلوم

---

(١) معجم الأدباء طبعة مرجليوث ١:٤١٥ ، ٢ : ١٠٨ ، ٢ : ١٧١ ، ٧ : ١٥١—١٥٢ والبغية ٣٩٠ وأسماء المؤلفين ٢ : ٢٤٢ ومقدمة ادوارد لين لمعجمه .

(٢) صفحة ٥٢ .

(٣) معجم الأدباء طبعة مرجليوث ١ : ٤١٥ ، ٢ : ١٠٨ .

(٤) أسماء المؤلفين ١ : ٨٢ والبلغة ١١٥

والآداب ، والزنجانى حينئذ طفل صغير ، ويكفى أن يكون الحوارى أديباً عالماً شاعراً ناثراً قبل ميلاد الزنجانى بأكثر من نصف قرن .

٧٣ — « ترويح الأرواح فى تهذيب الصحاح » للإمام المحدث الفقيه أبى المناقب ، أبى البقاء ، محمود بن أحمد بن محمود بن بختيار الزنجانى الشافعى (٥٧٣ — ٦٥٦ هـ) وهو من زنجان — بلد كبير من نواحى الجبال قريب من نهر قزوين — وأفتى الزنجانى ودرّس بالمدرسة النظامية والمستنصرية ، وولى قضاء القضاة ببغداد مدة ، واستشهد فى كائنة بغداد بسيف التتار سنة ٦٥٦ هـ ، ويصفه الذهبى بأنه كان من بحور العلم[1].

وقد ذكر الزنجانى أن مختصره — هذا — وقع من الصحاح موقع الخمس ، دون أن يحذف منه سوى الخمس .

٧٤ — ثم اختصر الزنجانى « ترويح الأرواح » وذكر سبب ذلك فى مقدمة المختصر الثانى ما ننقله : إنى لما فرغت من كتاب « ترويح الأرواح فى تهذيب الصحاح » تأليف الأستاذ إسماعيل بن حماد الجوهرى — رحمه الله — ووقع حجمه موقع الخُمْس من كتابه ، من غير إهمال شىء من لغته ، وكان قد حدانى إلى تهذيبه — أعنى تجريد لغته من النحو والصرف الخارجين عن فنه ، وحذْفَ ما فيه من حشو وتكرار ، وإسقاط مالا حاجة إليه من الأمثال والشواهد الكثيرة — رومُ التخفيف والإيجاز ليسهل حفظه ، ويقرب ضبطه ، ثم نظرتُ نظراً ثانيا فرأيت همم بنى الزمان ساقطة ؛ ورغباتهم نائمة ،

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٥ : ١٥٤ وطبقات الشافعية لتقى الدين بن شهبة الشافعى، الورقة ٥٣ ب من المخطوطة رقم ١٥٦٨ بدار الكتب المصرية ، والمنهل الصافى ٣ : ٣٤٠ مخطوطة دار الكتب رقم ١١١٣ تاريخ . والنجوم الزاهرة ٧ : ٦٨ وطبقات المفسرين للداودى الورقة ٣١٣ من مخطوطة دار الكتب رقم ١٦٨ تاريخ .

وحرصهم قليلا ، وحفظهم كليلا ، فأوجزته إيجازاً ثانيا ؛ حتى وقع حجمه موقع العُشْر من كتاب الجوهرى ؛ ولا يعوِزه من لغته أكثر من العُشْر » .

ولهذا المختصر ميزات ؛ منها : قيمته الذاتية متجلية فيها القيمة التاريخية ، إذ يُعَدُّ أقدم مختصر معروف حتى الآن ؛ لأن مختصر الخوارى غير موجود ، وهو يمتاز بسهولة العبارة ؛ ودقة الإيجاز ، ووضوح الأسلوب ، مع حرصه على الأصل ومساوقته له ، وقلَّ أن يعدل عن عبارة الصحاح إلا أن تُلجِئه إليه ضرورة .

وقد نشرنا هذا المعجم فى ثلاثة مجلدات سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) نشراً علميا ، وأعاننى فى التحقيق أخى العلامة الأستاذ عبد السلام محمد هارون ، وأضفنا إليه تحقيقات نادرة ، وتنبيهات نافعة تتصل باللغة والنحو والصرف والحديث وغير ذلك ، كما وضعنا له فهارس كثيرة ، منها فهرس لغوى لكل مواد الكتاب رتبناه على الطريقة الحديثة ، وعنى بنشره الأديب الفاضل الشيخ محمد سرور الصبان من أهل مكة المكرمة [١] .

ولم نجدْ فى المصادر التى كانت بين أيدينا اسماً لمختصر الزنجانى الثانى فاقتبسنا له اسما نظرنا فى اشتقاقه إلى مختصره الأول وسميناه « تهذيب الصحاح » إلا أن « بروكلمان » ذكر أن اسم هذا المختصر « تنقيح الصحاح » ولعل ذلك صحيح .

وقد كان « تهذيب الصحاح » موضع القدر والإعجاب والاهتمام من المشتغلين باللغة والعلم والأدب من عرب وغير عرب ومستشرقين ، وأثار فى

---

(١) أنفق هذا الرجل الكبير — جزاه الله خيرا — على طبع تهذيب الصحاح أكثر من عشرة آلاف جنيه مصرى ، وهو مطبوع طباعة أنيقة رائعة .

الصحف العربية كالأهرام والبلاد السعودية والمنهل جدلا عنيفا ، واحتفل به إلى جانب العلماء والأدباء ورجال الفكر ملوكٌ وقادة وزعماء .

٧٥ — « مختصر الصحاح » لأبى عبد الله شمس الدين : محمد بن الحسن ابن سباع المعروف بابن الصائغ الدمشقى — وهو غير ابن الصائغ المشهور المسمى محمد بن عبد الرحمن بن على بن أبى الحسن الزمردى — وكان شيخاً جليلا فاضلا ، له معرفة ثاقبة بالنحو واللغة ، بارعاً فى النظم والنثر ، وكان له حانوت بالصاغة يقرأ فيه . ولد سنة ٦٤٥ هـ وتوفى سنة ٧٢٢ هـ .

٧٦ — « مختار الصحاح » لزين الدين محمد بن شمس الدين محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى من أهل القرن الثامن وله من المؤلفات : « هداية الاعتقاد فى شرح بدء الأمالى » وكتاب « التوحيد » نقل عنه الدميرى فى حياة الحيوان آخر ترجمة الجن ، وكتاب « غريب القرآن » وذكر فيه أن طلبة العلم وحملة القرآن سألوه أن يجمع لهم تفسير غريب القرآن ؛ فأجابهم ، ورتبه ترتيب صحاح الجوهرى ، وضم إليه شيئاً من الإعراب والمعانى ، وله شرح على مقامات الحريرى نقل عنه المسيو ده ساسى فى شرحها ، واسمه « كنوز البراعة فى شرح مقامات الحريرى » .

وللرازى كتاب « أسئلة القرآن وأجوبتها » وهى مئتان وألف ، ولخصها شيخ الإسلام زكريا بن محمد بن زكريا الأنصارى الشافعى (٨٢٣ — ٩٢٦ هـ) وزاد عليها ، وكتاب الرازى — هذا — مطبوع .

وله تاريخ لطيف من أول الخلافة الإسلامية إلى القرن الثامن ، ومنه نسخة فى المكتبة الأهلية بباريس .

ومن تصانيفه : « روضة الفصاحة » و « حدائق الحقائق » فى الوعظ و « دقائق الحقائق » فى التصوف ، و « معانى المعانى » وهو يحتوى على

عشرة فصول ، وبه مختارات شعرية اصطفاها من مائة ألف بيت .

وخير مؤلفات الرازى « مختار الصحاح » وبه عرف واشتهر ، ومع أنه أباح لنفسه أن يتصرف — بعد الحذف وتجريد الصحاح من الشواهد وإيجازه — فإن الأمانة العلمية دفعته إلى أن يشير إلى هذا التصرف فى مقدمته ، ويعزز هذه الإشارة فى صلب الكتاب .

و « مختار الصحاح » أشهر مختصراته وأسيرها ، ومنه مخطوطات كثيرة بدور الكتب العامة والخاصة ، وطبع عديداً من المرات ، وأول مرة طبع فيها كان سنة ١٢٨٢ هـ بمطبعة بولاق ، وطبع أكثر من ثمانى طبعات .

٧٧ — فكرت وزارة المعارف المصرية فى طبع « مختار الصحاح » ، فأفسدت جوهره ، وغيرت نظامه ، واستبدلت به ما يجدر أن يكون كتاباً آخر ، وزعمت أنه مختار الصحاح ، ومن الغريب أن تزعم أنه هو نفسه « مختار الصحاح » وما أدرى كيف يكون ذلك بعد أن غيَّرت ترتيبه ليكون موافقاً ترتيب « أساس البلاغة » للزمخشرى ، و « المصباح المنير » للفيومى ، والمعجمات الحديثة ، وحذفت الوزارة « ما لا ينبغى أن يطرق مسامع النشء » وكان أولى بالوزارة أن تغير اسم الكتاب وتخلع عليه اسماً جديداً ، إذ ليس من الأمانة أن يحدث الناشر تغييراً جوهرياً فى كتاب ويتصرف فى ترتيبه ونظامه ومواده ، ويحذف ما يريد ، ثم يستبقى اسمه واسم مؤلفه الذى اعتُدِى على حقه وسُلِبَه .

ووكلتْ وزارة المعارف المصرية أمر القيام بقلب كيان مختار الرازى إلى الأستاذ محمود خاطر ، وأشرف على التحقيق العلامة الشيخ حمزة فتح الله ، وكان ذلك سنة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ والحق أن نشرة وزارة المعارف المصرية تمتاز من حيث التحقيق والضبط .

ووضعْنا لهذه النشرة رقماً وعددناها من المختصرات لأنها تعتبر أحدها ، وإن اختلفت مع الصحاح فى الترتيب والوضع .

٧٨ — « مختصر الصحاح » لأبى الفضل محمد بن عمر بن خالد القرشى المعروف بجمال القرشى ، ألفه سنة ٦٨١ ﻫ ، وله حول الصحاح ثلاثة كتب أخرى هى : « القراح بتكمُّل الصحاح » وذكرناه فى باب التكملات ، و « نور الصباح فى أغلاط الصحاح » وأشرنا إليه فى باب النقد ، و « الصراح » وهو ترجمة الصحاح ، ذكرناه فى باب الترجمات . ومختصر الصحاح للقرشى مختصر دقيق كبير الحجم لم يحذف من الصحاح إلا قليلا ؛ ومنه نسخة بمكتبة أحمد الثالث بتركيا كتبت سنة ٩٠٧ ﻫ بخط فارسى جميل ، وأوراقه ٥٥٩ من الحجم الكبير[١] .

٧٩ — « نجد الفلاح فى مختصر الصحاح » لخليل بن أيبك الصفدى (٦٩٦ — ٧٦٤ ﻫ) وله غير المختصر كتابان هما : « نفوذ السهم فيما وقع للجوهرى من الوهم » و « حلى النواهد على ما فى الصحاح من الشواهد » ومختصر الصحاح للصفدى محذوف منه الشواهد وكثير من المواد ، والمواد التى حواها موجزة ، وذكر أن فيه ما يحتاج إليه القارىء العجِل ، وأشار إليه « كشف الظنون » ولم ينسبه ، وكذلك لم ينسبه من كتبوا عن مختصرات الصحاح وعدوه بينها ، ولكن مؤلف كتاب « أسماء المؤلفين » ذكر أنه للصفدى[٢] .

٨٠ — « الجامع » من تأليف السيد محمد بن السيد حسن الشريف

---

(١) فهرس المخطوطات المصورة ١ : ٣٧١ .
(٢) أسماء المؤلفين ١ : ٢٥٢ .

ابن حسام الدين بن السيد على المتوفى سنة ٨٦٦ ﻫ وهو مختصر الصحاح ؛ جرده مؤلفه من الشواهد ، وتكاد تكون موادُّه مواد الصحاح فى العدد إلا أنه حذف الشواهد ، وأوجز فى الشرح إيجازاً غير مخل ، وفرغ من تأليفه ببلدة أدرنة سنة ٨٥٤ ﻫ ، ومنه مخطوطة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة تحت رقم ٤٦ لغة ، وعدد أوراقها ٣٩٢ فى مجلد ، وفرغ ناسخها منها سنة ٩٤٨ ﻫ . وقد اطلعت عليها عندما زرت المدينة المنورة سنة ١٣٦٧ ﻫ .

٨١ — « ملتقط الصحاح والملحق بمختار الصحاح » لمؤلفه پير محمد ابن يوسف القونوى الأنقروى الرومى (القرمانى الأركلى) الحنفى اللغوى ؛ المعروف بقره پيرى المتوفى سنة ٨٨٦ ﻫ أو سنة ٨٦٦ ﻫ[١] . وقد ذكره صاحب كشف الظنون .

٨٢ — « مختار اللغة » لمحمود بن أويس ، وهو مختصر مجرد من الشواهد ، دقيق العبارة موجزها ، وأكبر من مختار الرازى قليلا ، ومنه نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة كتبت سنة ٨٨٧ ﻫ وأوراقه ٣٠٠ .

٨٣ — « مختصر الصحاح » . لمؤلف اسمه « الجوابى » ، وهو مختصر جليل فى مجلدين ، ومنه نسخة بخزانة مكتبة الأزهر تحت رقم ٤٦ كتبت سنة ١٠٠١ — ١٠٠٢ ﻫ

٨٤ — « مختصر الصحاح » تأليف المولى محمد بن مصطفى التيروى الرومى الحنفى المعروف بالعيشى[٢] ، وكان مدرساً بمدرسة ابن ملك ببلدة تيرة[٣]

---

(١) أسماء المؤلفين ٢ : ٢١٣ .

(٢) فى المقدمة التى كتبها الشيخ العلامة أبو نصر الهورينى — رحمه الله — للصحاح : القيسى . والصحيح ما قلناه .

(٣) أسماء المؤلفين ٢ : ٢٦٧ .

وهى التى نسب إليها . قال صاحب كشف الظنون : « وهو أنفع وأفيد من مختار الصحاح ؛ كذا قيل ، ولـكنه غير مشهور » .

٨٥ — « صفو الراح من مختار الصحاح » . لأبى الوجاهة عبد الرحمن ابن عيسى بن مرشد العمرى الحنفى الهمدانى ، مفتى الحرم المـكى ، وأحد شعراء الحجاز العلماء ، ولد بمكة سنة ٩٧٥ ﻫ . وولى ديوان الإنشـاء فى ولاية الشريف محسن بن الحسين ، ولما مات محسن وتولى الشريف أحمد ابن عبد المطلب قبض على عبد الرحمن وقتله سنة ١٠٣٧ ﻫ وله مؤلفات فى اللغة والنحو والصرف والبلاغة والتفسير والمناسك والأدب[1] .

وهو مختصر لمختار الصحاح تأليف الرازى ، ويصلح أن يكون معجم جيب ، ولعل ناشرا يُوفَّق لذلك فيحيى تراث مكة اللغوى بإحياء اسم هذا العالم القتيل ظلما .

وإن مختصر الهمدانى مختصر جيد جدير بالطبع ، ومنه نسخة بدار الـكتب المصرية تحت رقم ٣١ لغة .

٨٦ — « مختار مختار الصحاح » لداود بن محمد القارصى الرومى الحنفى ، نزيل القاهرة ، وله شروح على بعض كتب المنطق والعقائد والأصول وكان حيا سنة ١١٧٠ ﻫ وهو مثل « صفو الراح » مختصر لمختار الصحاح للرازى[2] .

٨٧ — « مختصر الصحاح » لأبى الـكرم عبد الرحيم المدنى .

٨٨ — « مختصر الصحاح » لمحمد بن أحمد بن أحمد بن نجم الدين الحنفى .

---

(١) خلاصة الأثر ٢ : ٣٦٩ — ٣٧٦ مقدمة تهذيب الصحاح ص ٥٤ الأعلام ٢ : ٥٠٣ .
(٢) أسماء المؤلفين ١ : ٣٦٣ .

٨٩ — « مختصر الصحاح » لعلى العلى بادى .

وثلاثة المختصرات الأخيرة ذكرها بروكلمان فى كتابه « تاريخ الآداب العربية » .

الترجمات

ليس ما ذكرنا كلَّ مظاهر النشاط فى التأليف المعجمى أو التأليف اللغوى الذى بعثه الصحاح فى محيط الثقافة العربية ، بل تجاوزه إلى أبعد من ذلك مما يدل على عِظَم قدر الصحاح وما ناله من قدر كبير واحتفاء كريم عند أبناء الأمم غير العربية ، حتى ترجم إلى الفارسية والتركية ، ومن هذه الترجمات :

٩٠ — « الصراح من الصحاح » لأبى الفضل محمد بن عمر بن خالد القرشى المشتهر بجمال القرشى ، ألفه سنة ٦٨١ هـ ، وقد ذكرنا له مؤلفين حول الصحاح — غير الصراح — أحدهما فى باب التكملات والمستدركات والثانى فى باب النقد .

والصراح ترجمة للصحاح إلى اللغة الفارسية ، إلا أن المترجم أبقى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشعر والأمثال على لغة الصحاح ، ولم ينقلها إلى الفارسية .

وتصرف القرشى فى ترجمة الصحاح . فأضاف إليها نقدات تحامل فيها على الجوهرى ، فانبرى له الشيخ محمد سعد الله المفتى المرادأبادى نزيل رامفور بالهند ، ورد على القرشى وسمى كتابه « نور الصباح فى أغلاط الصراح » وقد مر ذكره فى باب الكتب المؤلفة فى الدفاع عن الصحاح .

ومن الصراح نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة كتبت سنة ١٠٩٠ هـ وأوراقه ٤٠٠ فى مجلد ورقمها بها ٨٠ لغة ، وطبع مرتين بدار الإمارة بكلكتا . وكانت الطبعة الثانية سنة ١٢٤٥ هـ .

٩١ — « الترجمان » . تأليف پير محمد بن يوسف القونوى الأنقروى الرومى الحنفى (القرمانى الأركلى) المعروف بقره پيرى المتوفى سنة ٨٨٦ هـ أو سنة ٨٦٦ هـ وقد سبق أن أشرنا فى باب المختصرات إلى مختصر الصحاح الذى ألفه پير محمد .

والترجمان ترجمة إلى اللغة التركية ، وقد ذكر فى مقدمته أنه لما فرغ من « ملتقط الصحاح والملحق بمختار الصحاح » رأى ميل الطلاب إلى ترجمة الصحاح فألفها وسماها « الترجمان » .

٩٢ — ترجمة المولى محمد بن مصطفى الكورانى الرومى الوانى المعروف بوان قولى المتوفى سنة ١٠٠٠ هـ . وكان قد تولى قضاء المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم[1] .

وهذه الترجمة إلى اللغة التركية ؛ وقدمها بفصلين ؛ أحدهما فى بيان الأفعال ومتعلقاتها ، والثانى : فى جميع الأسماء والصفات .

٩٣ - ترجمة الأختري ، وأختري ، لقب مصلح الدين مصطفى بن شمس الدين القره حصاري ، وسمى ترجمته للصحاح بلقبه ، وأختري كبير ، وآخر صغير ، وفرغ من تأليف الكبير في ربيع الأول سنة ٩٥٢ هـ وطبع بدار

---

(١) البلغة ١٦٨ .

الطباعة العامرة سنة ١٣٩٢ هـ ثم طبع بالاستانة سنة ١٣١٠ هـ ، ثم أعيدت طباعته بالتصوير (الأوفست) في تبريز بإيران.

٩٤ — « مرقاة اللغة » أخذ مؤلفه — وهو مجهول — أربعة عشر ألف كلمة من الصحاح وستة عشر ألف كلمة من القاموس ، ألفه بالعربية ثم ترجمه إلى التركية ، وقد أشرنا إليه فى باب « كتب جمعت الصحاح وغيره » وذكر صاحب البلغة[1] أن اسم الكتاب « مرقاة النفوس » وقال مؤلف « كشف الظنون[2] » : إن اسمه « مرقاة اللغة » وهو الذى اخترناه .

٩٥ — « منتخب اللغات » للملا عبد الرشيد الحسينى المدنى . أخذ من الصحاح ومختصره المسمى « الصراح » ومن القاموس موادّ وفسرها بالفارسية ؛ وهو مطبوع بالهند .

٩٦ — وألف جوليوس Golius (١٥٩٦ — ١٦٦٧ م) معجما عربيا لاتينيا استعان فيه بالصحاح ، وطبعه فى ليدن سنة ١٦٥٣ م وبقى معجم جوليوس مرجع المستشرقين حتى ألف فرايتاغ معجمه .

٩٧ — واختار المستشرق الألمانى فرايتاغ[3] Freytag من الصحاح طائفة كبيرة من مواده وأضاف إليه ما اختاره من القاموس وغيره ، وألف من كل ذلك معجما فى أربعة مجلدات ، وجعله بالعربية واللاتينية .

---

(١) البلغة ١٦٨ .

(٢) كشف الظنون ٢ : ١٦٥٧ .

(٣) هو من تلامذة المستشرق المعروف ده ساسى ، وتلقى اللغات الشرقية فى باريس ، وقام بتدريسها فى كلية بون ، وألف عن العرب ولغاتهم وتاريخهم ، وألف بالألمانية كتاباً عن اللغة العربية فى الجاهلية والإسلام ، طبع فى بون سنة ١٨٦١ م (تاريخ آداب اللغة العربية ٤ : ١٦٧) .

مظاهر أخرى

وليس هذا كلَّ مظاهر النشاط الذى بعثه الصحاح ، بل هناك مظاهر أخرى ، ولكنها ليست مثلما أشرنا إليه ، إلا أن البحث العلمى يقتضينا ألا نُغفِلها ، لأنها تتبطَّن نوعا من تأسِّى العلماء من غير العرب الإمام الجوهرى فى اقتباس منهجه وطريقته ، بل استعاروا منه — فوق ذلك — الاسم ، ومنهم من اكتفى بالطريقة والمنهج ، ومن هؤلاء :

٩٨ — هندو شاه بن سنجر بن عبد الله الصاحبى الكيزانى النخجوانى — وكان حياً فى سنة ٧٣٠ هـ — ألف كتابا سماه « صحاح العجم » وله بهذا الاسم كتابان : قديم وجديد ؛ وكلاهما مرتب ترتيب الصحاح ، ويقول هندو شاه : « وسميته به لكونه على أسلوب صحاح العربية » وهو باللغة الفارسية .

٩٩ — وللشيخ يحيى بن بخشى بن إبراهيم الكونانى الرومى الأميرى القرشى المتوفى سنة ٨٤٠ هـ أو سنة ٩٠٠ هـ كتاب « صحاح عجمى » فى اللغة[1] وهو مثل صحاح العجم .

١٠٠ — ولمولانا محمد بن پير على المعروف ببركلى كتاب اسمه : « صحاح عجمية » وهو رسالة باللغة الفارسية ، وهو قد استعار اسم الصحاح .

١٠١ — وألف المولى أحمد بن سليمان شمس الدين المعروف بابن كمال باشا شيخ الإسلام الرومى الحنفى المتوفى سنة ٩٤٠ هـ كتابا سماه « محيط اللغة » فى الفارسية والعربية ، وتأسَّى طريقة الجوهرى فى صحاحه .

١٠٢ — وتأسى طريقةَ الجوهرى شيخُ الإسلام ملا صالح أفندى من علماء القرن الحادى عشر ؛ وألف كتابا سماه « قاموس الأروام فى نظام الكلام » جمع فيه الألفاظ التركية وفسرها بالعربية ، وانتهج الصحاح فى

---

(١) أسماء المؤلفين ٢ : ٥٣٠ .

النظام والترتيب ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤ لغة ، وهى بخط جلال الدين الصديقى كتبها سنة ١٠٤٣ هـ .

وهناك أنواع أخر من الاهتمام والعناية بالصحاح ، فقد نظمه شاعر ، وشرح شواهده أديب ، وخرّج أحاديثه عالم . وقارن بين مواده ومواد القاموس علماء .

١٠٣ — نظمه أبو الحسين زين الدين : يحيى بن معطى بن عبد النور الزواوى المغربى النحوى (٥٦٤ — ٦٢٨ هـ) وكان إماما فى النحو واللغة ؛ مبرِّزا فى النظم ، وهو صاحب الألفية المعروفة بألفية ابن معطى ، نظم ابن معطى الصحاح ولكنه لم يستطع أن يكمله .

١٠٤ — وخرَّج الإمام السيوطى أحاديث الصحاح فى كتاب سماه : « فلق الإصباح فى تخريج أحاديث الصحاح » .

١٠٥ — وتولى خليل بن أيبك الصفدى شرح شواهد الصحاح وسماه : « حلى النواهد على ما فى الصحاح من الشواهد » .

١٠٦ — وألف السيوطى كتاب « الإفصاح بزوائد القاموس على الصحاح » قارن بين الكتابين وأحصى المواد الزائدة فى القاموس .

١٠٧ — فانبرى له مؤلف غير معروف ورد على السيوطى وألف كتاباً عنوانه « ضوء القابوس فى زوائد الصحاح على القاموس » ذكر فيه المواد الزائدة فى الصحاح .

١٠٨ — وألف محمد بن يوسف المعروف بالنهالى الحلبى الشهير بنابى زاده المتوفى سنة ١١٨٦ هـ كتاب « ابتهاج النفوس بذكر مافات القاموس » وقد ذكر كثير من المؤلفين أنه مجهول المؤلف ، ونسبهُ بعضهم إلى الفيروزبادى ، وهو خطأ ، ومنه نسخة بمكتبة شيخ الإسلام بالمدينة المنورة ؛

موضوعة فى « ظرف » كتب عليها اسم الكتاب ، ونسب تأليفه إلى الفيروزبادى . ولكن فى الكتاب ورقة تذكر أنه للنهالى ، والعلم عند الله .

١٠٩ — وكتب المستشرق الألمانى بروكلمان[١] بحثاً عنوانه « الجوهرى وترتيب حروف الهجاء العربية » نشر فى ZDMG م ٦٩ ص ٣٨٣ وما يليها .

هذا بعض ما قام حول الصحاح من دراسات تناولته من أكثر جوانبه ؛ تدل على ما قوبل به من حفاوة ما تزال تتجدد على مر الأيام ، وما كل هذا النشاط الذى شهدناه إلا آية على عِظَم الصحاح وعلى حسن قبول الناس له وعنايتهم به ، وحق لهم ذلك ؛ فالجوهرى أول من فتح طريقاً جديداً فى التأليف المعجمى ، وما زالت قواعد نظامه المبتكر الذى لم يُسبق إليه متبوعة حتى اليوم ، وستُتَّبع ما كان فى العربية مؤلف معجم عربى ، وهذه القواعد مراعاة الحرف الثانى والثالث والرابع فى ترتيب المواد والكلمات .

والصحاح أول معجم عربى صحيح يوثق به ثقة علمية ، ولا نغالى إذا قلنا : إنه أول معجم حق عُرِف فى العالم ، لأن المعاجم التى عاصرته أو سبقته فى الأمم العربية أو غير العربية لم تكن فى مستواه العلمى واستيعابه كثيراً من مواد اللغة الصحيحة ، وترتيبه ونظامه ودقته وتحرِّيه الصحة .

وأكثر المعجمات لم تكن إلا معجمات خاصة ، أما إذا كان هناك معجمات عامة فلا تصل إلى درجة « الصحاح » فى الدقة والاستيعاب والشمول والترتيب والمنهج وروعة الأسلوب فى تفسير الكلمات وثقوب النظر ونفاذ البصيرة فى الاستقصاء والفهم ، وما من شك أن « تاج اللغة وصحاح العربية » طفر — أبعد ما تكون الطفرة — بالتأليف المعجمى ، وخطا أعظم خطوة عرفها تاريخ العربيـة فى هذا السبيل .

---

(١) المنتقى ١ : ٣١ .



تأليف

أحمد عبد الغفور عطّار

دار العلم للملايين

ص.ب ١٠٨٥ - بيروت

الطبعة الأولى
القاهرة
١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م

الطبعة الثانية
بيروت
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس